

عَدَدٌ بِأَحْمَدَ

مَوْسُوعَةٌ

الْغَزْوَانُ الْكُبْرَى

صُلْحُ الْحَدِيثِ

الْمَكْتَبَةُ السَّلَفِيَّةُ

بمحمّد أحمد بابا بنينيل

الكتاب الخامس

من معارك الاسلام الفاصلة

- ٥ -

صالح الدين بنينيل

المكتبة السكافية
القاهرة

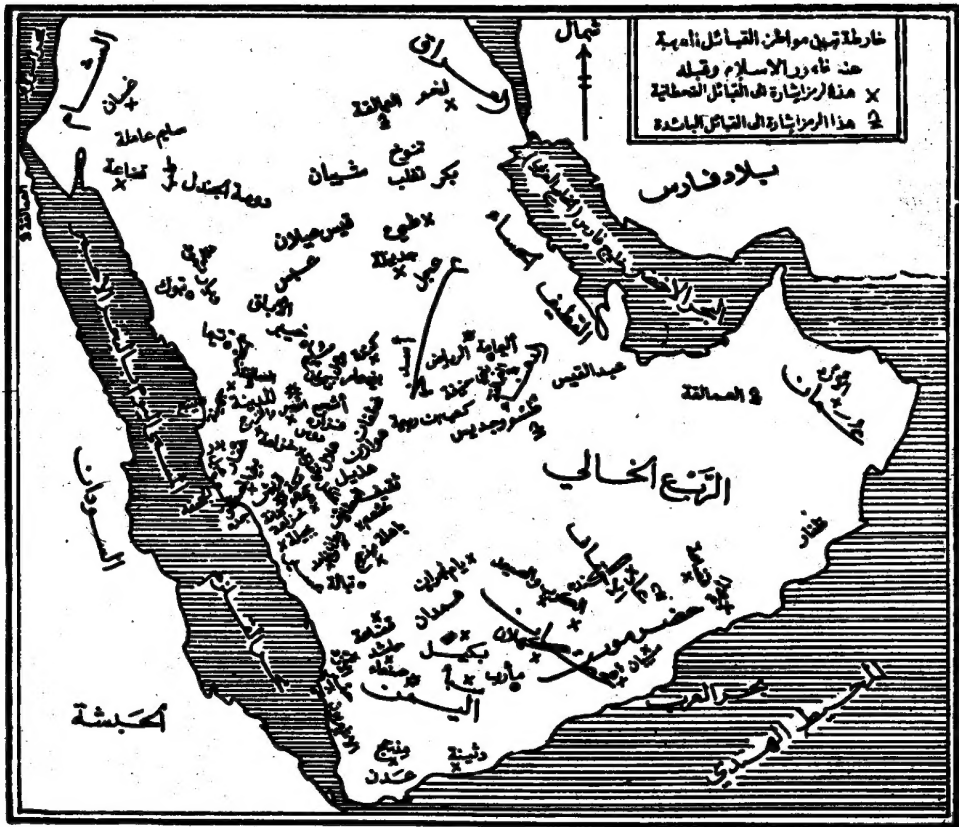
الطبعة الثالثة

١٤٠٦ هـ — ١٩٨٦ م

جميع حقوق الطبع محفوظة

المكتبة السلفية

٢١ شارع الفتح بالروضة — القاهرة • تليفون ٨٤٠٣٦٤



تقديم الكتاب

بقلم الكولونيل عبد الله التل

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

والصلاة والسلام على سيد المرسلين ، محمد النبي الكريم الأمين
وعلى آله وصحبه أجمعين ، وبعد :

فهذا هو الكتاب الخامس الذي يكتبه الأستاذ محمد أحمد
باشميل ، في سلسلة معارك الإسلام الفاصلة . وقد سبقه من الكتب
غزوة بدر الكبرى ، غزوة أحد ، غزوة الأحزاب ، وغزوة بني قريظة .
وموضوع هذا الكتاب الخامس هو :

(صلح الحديبية) وما سبق ذلك الحدث التاريخي الحاسم من
أحداث سياسية وعسكرية ، شرح المؤلف منها تسع عشرة غزوة وحملة
وسرية . وقد أحسن صنعاً في ذلك ، لأن أحداث السيرة النبوية ،
العسكرية والسياسية جميعها مهمة وجديرة بالتدوين لتُقدّم لجيل
شبابنا المغلوب على أمره ، زاداً طاهراً نقيّاً ، ينهلون منه ويقتبسون العبر
والدروس من عظمة الرسول وصحابته الأبرار ، الذين صنعوا الأمجاد بإيمانهم
وصبرهم وحكمتهم وشجاعتهم ، ووطدوا لنا أركان الإسلام ، فغدونا
نصحاء اليوم لنرى امتداد الإسلام ، من إندونيسيا شرقاً إلى تطوان

غرباً ، بفضل ما بذله الجيل المثالي ، جيل محمد ﷺ من توضيحات
وبطولات .

وتتجلى عظمة الرسول ﷺ في قصة صلح الحديبية ، فيما صاحب
ذلك الحدث التاريخي من عزمه عليه الصلاة والسلام على أداء العمرة .
بينما كانت قبائل (نجد) المجاورة للمدينة ، معادية ومتعاونة مع كفار
قريش ، وفيما كان يهود خيبر يتحفزون للانتقام من الدين الجديد
الذي هزم أهلهم من بني قينقاع ، وبني قريظة ، وبني النضير ،
وأذلم لتآمرهم على الإسلام وغدرهم بالمسلمين . ومع كل تلك الأخطار
استنفر أصحابه وخرج بهم من المدينة قاصداً العمرة ، وزيارة الكعبة
التي حُرِّم المسلمون منها طيلة ست سنوات تقريباً .

حقاً لقد كانت تلك الرحلة التاريخية للعمرة محفوفة بالأخطار
كان كل شيء على السطح يشير إلى أن قريشاً القوية ، ذات العدد والعدة ،
ستشن على المسلمين حرباً (عندما يقتربون من مكة) حرباً بلغ بضعاف
النفوس من المنافقين الجبن إلى أن يعتقدوا أن نهاية المسلمين ستكون
فيها على أيدي قريش .

الأمر الذي حمل كثيراً من منافقي المدينة والأعراب ، على
الاعتذار عن مصاحبة الرسول العظيم في هذه الرحلة التي لم يرافقه فيها
سوى ألف وأربعمائة ، هم الصفوة المختارة التي خلّد الله ذكراهم ،
وأعلن رضاه عنهم في قرآن يتلى إلى يوم الدين ﴿ لقد رضى الله عن
المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما في قلوبهم فأنزل
السكينة عليهم وأثابهم فتحاً قريباً ﴾ ^(١)

إن تصرفات الرسول القائد صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم ، في حوادث الحديبية ، هي في حد ذاتها دستور شامل يمكن الرجوع إليه للاقتباس منه في باب (الحكمة والأناة ويُعد النظر وضبط النفس والسيطرة على الأعصاب أمام استفزازات السفهاء وتحدثي الحمقى ، وفي مجال العدل والوفاء بالعهد واحترام المعارضة النزاهة) .. إن الرسول ﷺ لم يتوصل إلى عقد الصلح إلا بعد أن اجتاز مراحل شاقة وتغلّب على مشاكل عويصة معقدة ، سواء في محيط أصحابه الكرام المعارضين لإبرام هذا الصلح ، أم في محيط قومه من قريش الذين حشدوا كل ما لديهم ولدى حلفائهم من قواتٍ حربية ليخوضوا مع المسلمين معركة لم يخرجوا لها ولا يرغبون فيها .. فأحبط بشجاعته وحلمه وصبره معاً ، خطط المتهورين القرشيين الشريرة وجعلهم يجنحون إلى السلام ، بدلاً من الحرب فيسعون (هم أنفسهم) لعقد هذا الصلح التاريخي .

كان الرسول العظيم قمة في الحنكة السياسية حين أقدم على الصلح مع قريش ، مخالفاً آراء عدد كبير من صحابته الذين قاسوا الأمر بمظهرها السطحي ، ولم يكن لهم بعد نظر الرسول الحكيم الحليم . وسرعان ما أثبتت الأحداث صدق الرسول ﷺ وبُعد نظره ، فحقق صالح الحديبية ما كان الرسول ﷺ يؤمل من ورائه . وأخذ المسلمون يعملون على نشر الدعوة الإسلامية بحرية وقوة ، فتضاعف عدد المسلمين ، وتسربت فضائل الإسلام وأخلاق المسلمين الكريمة إلى نفوس عدد كبير من شيوخ القبائل ورؤوس الكفر في قريش ، مما جعلهم يغيرون نظرهم إلى الدين الجديد ، ويقلمون

من عداوتهم لآتباعه . ومن أهم فوائد صلح الحديبية أنه أسهم في إنجاح خطة غزوة خيبر والقضاء نهائياً على خطر اليهود في جزيرة العرب .

* * *

إن هذا الكتاب (صلح الحديبية) وما أصدره وسيصدره الأستاذ باشميل بإذن الله من سلسلته التاريخية (معارك الإسلام الفاصلة) هو جهد مشكور يبذله المؤلف لتوعية الشباب الإسلامي وتعريفه بتاريخنا الإسلامي المجيد ، الذي هو المرآة الصافية التي تنعكس على صفحتها حقيقة ماضينا الإسلامي المشرف الذي تغص عند ذكره - حلق المارقين المبطلين من عبید المذاهب المادية الهدامة الدخيلة - من المفكرين العملاء الذين يعملون (عن قصد مسبق خبيث) على تشويه هذا التاريخ المشرق الوضاء وطمسه .. بغية قطع صلتنا بماضينا الإسلامي الذي منه نستمد قوتنا الحقيقية التي تخيف أسيادهم الذين استأجروهم ليعملوا بكل الوسائل على بتر هذه الصلة ، لكي يتمكنوا من ربطنا بعجلة مذاهب وعقائد ومبادئ غريبة عنا ، دخيلة علينا ، فاسدة في ذاتها .. أثبتت فشلها وإفلاسها في موطنها الأصلي قبل أن تتدفق جداول عفنها علينا من وراء الحدود .

* * *

إن العناية بالتاريخ الإسلامي ودراسته دراسة موضوعية واعية ، هي من أهم الروافد التي تمد الإنسان المسلم بعناصر الشجاعة والرجولة والتضحية والفداء ، وتحرك في نفسه عوامل الاستقامة ودواعي

الخير لما في طيات هذا التاريخ الخالد من عِبَر ومواعظ ودروس
بتأء نافعة ، حفرها على جبين الزمان وسَطَرها بأحرف من نور ،
خيار هذه الأمة بأعمالهم المجيدة التي بها بلغوا أعلى قمم المجد ، والتي
كانوا يستوحونها من تعاليم الدين الإسلامي الحنيف الذي اجتذبهم من
زوايا النسيان وقفز بهم من مؤخرة الشعوب ، ليقعدهم أمام دفء
قيادة العالم ليكونوا أساتذة للأمم وقادة الشعوب .

* * *

وكم هو نافع ومفيد لأمة العرب (وهي تخوض المعركة الحاسمة
لمحو العار عن جبينها الذي لطَّخه به انحرافها عن تعاليم الإسلام)
لو أن العملاء المستأجرين المندسين في صفوفها والمتربعين على مقاعد
قيادات فكرية وإعلامية في أجهزتها الحساسة ، يوجهون الشباب
العربي خاصة إلى دراسة تاريخ خالد بن الوليد ، وسعد بن أبي
وقاص ، وعمر بن العاص ، وأبي عبيدة بن الجراح ، ومحمد بن
القاسم ، وموسى بن نصير ، وصالح الدين الأيوبي ، ومحمد الفاتح
وغيرهم من بناء الأمجاد الإسلامية ، بدلاً من إشغال عقول هؤلاء
الشباب وتلويشها بدراسة تاريخ علوج الإلحاد أمثال : كارل ماركس ،
وأنجلز ، وماوتسى تنيج ، وغيفارا ، وكاسترو ودهوشي منه ، وأمثالهم
من ألد أعداء الإسلام .

* * *

إن أمة الإسلام والعرب بالذات لن يجدوا سبيلاً إلى استعادة
أمجادهم الضائعة وتحقيق وحدتهم المنشودة إلا إذا استلهموا ماضيهم
الإسلامي المشرق المجيد ووثقوا صلتهم بالله تعالى عن طريق اتباع

دينه والاهتداء بهدى رسوله العظيم صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم .

وإننى إذ أدعو الله مخلصاً أن يثيب الأخ الأستاذ باشميل على هذا الجهد الذى بذله وببذله لعرض هذه الصفحات المشرقة المتألثة من تاريخنا الإسلامى العظيم ، عبّر هذه السلسلة التاريخية التى يقوم بتأليفها .. أدعو كل مسلم عربياً كان أو غير عربى (وخاصة الشباب المثقف ومن له صلة بالشؤون العسكرية والسياسية من أية رتبة كان) أن يعكف على دراسة هذه السلسلة من معارك الإسلام الفاصلة التى خاضها محمد ﷺ وأصحابه الكرام ، الذين (عبّر هذه المعارك) بنوا لنا هذا المجد الباذى الأثيل ، وشيدوا لنا سمعة عظيمة كانت ملء سمع الدنيا وبصرها حتى مرغ الانحراف عن جادة الإسلام هذه السمعة ، ومسح بها الأرض ، وكان آخر نتائج هذا الانحراف (ولعله أظفها) تمرغ سمعة مائة مليون عربى ، بل سبعمائة مليون مسلم ، على يد مليونى يهودى ، من شذاذ الآفاق ونفايات الأمم يوم الخامس من حزيران الأسود .

اللهم بك نستجير وإليك نضرع ، أن تعيد أمة محمد إلى صراطك المستقيم وتلهمها العمل بكتابك وسنة نبيك ، لتستعيد مجدها الضائع وقوتها المفقودة ، وتستأنف سيرها بالإنسانية من جديد فى دروب الخير والمحبة والتسامح والسلام ، إنك على كل شيء قدير .

عبد الله التل

قائد معركة القدس سنة ١٩٤٨ م*

عمان

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تمهيد المؤلف

- ١ -

اللهم صلّ على منقذ البشرية ، ومحرّر الإنسانية ، نبيّنا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين .

وارزقنا اللهم السداد في القول والتوفيق في العمل إنك على كل شئ قدير .

وبعد ، فهذا هو كتابنا الخامس (صلح الحديبية) نقدّمه إلى قُرّاء التاريخ الإسلامي ضمن سلسلة (معارك الإسلام الفاصلة) التي عقدنا العزم (بعون الله تعالى) على إصدارها ، في محاولة متواضعة لتبصير أجيالنا بالتاريخ الإسلامي المشرق الحافل بالبطولات والأُمجاد والذي تحالفت لطمسه أو تشويهه جهات كلها عدو للإسلام والمسلمين .. وظاهرها - ولا يزال يظهرها مع الأسف - نفرٌ من المفكرين ، هم من أبناء جلدتنا ويتكلمون لغتنا ، بل ويحملون هويّات تجعلهم محسوبين على ديننا .

هؤلاء ساهموا إلى حدّ مؤسف جداً في تحريف التاريخ الإسلامي ، وحاولوا طبع ما في هذا التاريخ من محاسن وفضائل بطابع مبادئ ومذاهب سياسية دخيلة على الوطن الإسلامي ، بل هي والإسلام

على طرفي نقيض ... وهو أمر خطير يجب على المرتين والمسؤولين
عن التربية والتعليم في أى بلد يدين بالإسلام أن يقاوموه بكل الوسائل ،
ويعملوا على إزالة الأثرية والسوافى التى ألقى بها الأعداء على جوهر هذا
التاريخ لطمس معالمه الوضاعة المشرقة التى يمكن أن يستضىء بها الشباب
المسلم على دروب الفضيلة والاستقامة التى (إن سار عليها) ستنتهى به
إلى سلم العزة والكرامة والمجد ليرقاه رافع الرأس وضاح العجيين .

- ٢ -

إن ما حدث قبل وحتى عقد هذا الصلح التاريخى الخالد لم يكن
معركة حربية بالمعنى التقليدى المتعارف عليه فى القاموس العسكرى .
فلم تنشأ هناك معارك دامية فى بطاح الحديبية بين المسلمين
وقريش ، كما نشبت فى بطاح بدر وشعاب أحد ومشارف الخندق
ووديان خيبر ومرتفعاتها ، والتى نتجت عنها تلك الانتصارات لصالح
الإسلام والمسلمين .

ولكن نتائج (صلح الحديبية) الإيجابية لم تكن أقل من نتائج
أية معركة من تلك المعارك الظافرة الدامية الفاصلة .

بل إن نجاح الرسول الأعظم ﷺ فى عقد صلح الحديبية مع
قريش حقق للدعوة الإسلامية من المكاسب (على كل المستويات
السياسية والروحية والمعنوية والعسكرية) ما لم تحققه له أية معركة
خاضها النبي محمد ﷺ وأصحابه الكرام بالسيف والرمح والنبل .
شهد بذلك كبار الصحابة الذين كانوا قد عارضوا النبي ﷺ ،
أشد المعارضة فى عقد هذا الصلح كما سيراه القارئ مفصلاً فى صُلب

هذا الكتاب عند التعرض بالتحليل لدروس ومكاسب هذا الصلح التاريخي .

بل لقد شهد القرآن الكريم بعظيم هذه المكاسب وخلّد ذكرها في آيات تتلى إلى يوم القيامة ، حيث وصف صلح الحديبية بأنه (الفتح المبين) (١) .

وهو أمر لم يعطه القرآن الكريم وصفاً لنتائج أية معركة أو حادثة في العهد النبوي سوى (لصلح الحديبية) .

إذن ، من هنا يمكن القول : أن صلح الحديبية هو حسيطة كسب لأعظم معركة دارت بين الإسلام والوثنية في العهد النبوي من حيث النتائج الإيجابية التي بها توطدت دعائم الإسلام وبفضلها تصدّعت قواعد الوثنية ، ثم انهارت واضمحلت من الوجود . كما هو مفصل في فصول هذا الكتاب .

لذلك أدرجنا (صلح الحديبية التاريخي هذا) ضمن سلسلة (معارك الإسلام الفاصلة) ، لأنه من حيث النتائج ينطبق عليه كل الانطباق ، اسم المعركة الفاصلة .

- ٣ -

إن النبي الأعظم ﷺ لم يتوصل إلى عقد صلح الحديبية إلا بعد أن خاض سلسلة من الصراعات الشاقة والمعارك المضنية على الصعيدين الداخلي - محيط أصحابه المعارضين للصلح أشد المعارضة - والصعيد الخارجي - محيط قومه وأهله وعشيرته من مشركي قريش الذين

(١) انظر حديث القرآن عن صلح الحديبية في هذا الكتاب :

لم يتركوا وسيلة من وسائل الاستفزاز والتحدى إلا واتبعوها لإثارة النبي ﷺ وأصحابه .

فهى إذن معارك شاقة خاضها النبي - منذ خروجه من المدينة حتى إبرام هذا الصلح - على جبهتين .

فى محيط أصحابه خاض معارك طرفاها :

١- العقل الراجح ، والأفق الواسع ، والنظرة البعيدة ، والأناة والحلم والصبر الذى لا يعرف الحدود .

٢- العاطفة الفؤارة العابرة التى لا يفكر المستجيب لها فى العواقب .
محمد ﷺ فى جانب العقل والصبر والحلم والأناة ، يصّر على التزام جانب التروى والصبر وعدم الإجابة على استفزاز أهله وعشيرته باستفزاز مثله ، ويعمل جاهداً على نبذ فكرة الحرب والسعى لتحقيق السلام بين المسلمين وقريش .

وعامة الأصحاب فى جانب العاطفة الجياشة يعارضون الصلح أشد المعارضة ، ويستعجلون الصدام الدامى مع قريش ، مفضلين الاحتكام إلى السيف على طول الانتظار فى الحديبية ، وعلى القبول بصلح يرون قبول بعض شروطه مذلة للمسلمين ومساساً بكرامتهم .
وفى محيط أهله وعشيرته المشركين خاض محمد ﷺ معارك خصماها :

١- داعى الرغبة فى صلة الرحم والحفاظ عليها وإعطاءها حقها من الرعاية ، والحرص على هداية الأهل والعشيرة ليخرجوا من ظلام الشرك إلى نور التوحيد . والعمل على حقن الدماء وصبون الأرواح (أيا كانت) من أن تزهق .

٢- داعى العنجهية الجاهلية وصلف الكبرياء الوثني المقيث والاستجابة الجانحة للدواعي الشر ونوازع البطر والطفيان .

* محمد ﷺ فى جانب الداعى الأول .. يبلغ قومه وعشيرته رسمياً أنه لم يأت للحرب ولا رغبة له فيها ، وأنه إنما جاء معتمراً يزور الكعبة ثم يعود بأصحابه من حيث أتوا .

* وقريش تقسم أغلظ الأيمان أنها ستصد محمداً وأصحابه عن البيت حتى وإن لم يأتوا إلا لزيارته ، وتستنفر كافة قواتها وقوات حلفائها (ثمانية آلاف مقاتل) وتعسكر بهم خارج مكة لتبر بقسمها الأثم هذا .

* محمد ﷺ يبعث بالوسيط تلو الآخر إلى قريش يدعوهم إلى السلام ويؤكد لهم عدم رغبته فى الحرب ، ويعرض عليهم إقامة سلم يأمن فيه المسلمون والقرشيون بعضهم بعضاً .

* وقريش إزاء هذه المساعي النبوية السلمية تشتط فى طغيانها وبطرها فتبعث بعدة وحدات من فرسانها لتعترض طريق النبي ﷺ ، وأصحابه وتسدها عليهم بنضال السيوف لتجرهم إلى حرب لم يخرجوا لها ولا رغبة لهم فيها .

* محمد ﷺ تجنباً للصدام الدامى مع أهله وعشيرته - يعدل عن سلوك الطريق الرئيسى الذى يسده خالد بن الوليد بفرسانه المشركين ، ويسلك طريقاً غير مطروق ليفضى به إلى سهل الحديبية ، فيعسكر بأصحابه هناك خارج الحرم فى انتظار فرصة يتحقق فيه سلام بينه وبين أهله وعشيرته .. ولثلا يحدث بين أصحابه وبين مشركى مكة احتكاك يؤدى إلى حرب هى أكره ما تكون إلى نفسه .

* وقريش إزاء كل هذا السمو الإنساني والنبل الأخلاقي ، تبهث بسفهاؤها ليتسللوا في جنح الظلام إلى معسكرات المسلمين في الحديبية فيغيروا عليهم لاستفزازهم وتحدى مشاعرهم ليفقدوا صوابهم .

* محمد ﷺ يطلق سراح سبعين من المشركين المتسللين المعتدين بعد أن ألقى عليهم الحرس النبوي القبض وهم يتسللون .. فيعفو عنهم تكرماً وصلة للرحم وتخفيفاً لحدة التوتر .

* وقريش تريد تصعيد الأزمة وتحاول تفجيرها فتحتجز مبعوث النبي الخاص في مكة (عثمان بن عفان وعشرة من الصحابة) دخلوا مكة بإذن من سادات قريش وفي جوارهم .

فيزداد التوتر في الحديبية بين أصحاب النبي ﷺ وترتفع نسبة الغليان في النفوس وتزايد الأصوات الداعية إلى تأديب قريش الباغية وجذع أنف كبريائها الوثني بحد السيف .. والنبي الأعظم ﷺ حيال هذا وذاك يأمل في أن يحل السلام ويسود الوئام بين المعسكرين ، ويعمل على تلطيف الجو وتخفيف حدة التوتر .

- ٤ -

متاعب مضنية ومشاكل عويصة معقدة واجهها النبي الأعظم ﷺ ، كان بعضها كاف لتحطيم الأعصاب وحمل من يواجهها على الخروج عن دائرة الحلم والصبر .. لولا أن الذي واجهها نبينا محمد بن عبد الله ﷺ صاحب أرجح عقل وأهدأ نفس بين بني البشر جميعاً .

فقد عالج النبي محمد ﷺ كل هذه المشاكل المعقدة ، وتغلب على كل هذه المصاعب المضنية المرهقة بعميق حكمته وسداد رأيه

ورجاحة عقله وبعد نظره وسعة حلمه ، حتى كانت الثمرة اليانعة لذلك
المجهود العظيم الذى بذله سيد البشر ومنقذ البشرية ، هى صلح الحديبية
التاريخى الخالد الذى (كثرته من ثمراته العظيمة المباركة) دخل على
الدعوة الإسلامية من المكاسب وتحقق لها من الانتصارات خلال سنتين
اثنتين ما لم يدخل عليها وما لم يتحقق لها خلال تسعة عشر عاماً ،
كما سجل ذلك المحققون الثقة فى كتب السنة النبوية .

إن صلح الحديبية هو حدث من أهم أحداث التاريخ ، يعقده
تحول مجرى الصراع بين الإسلام والوثنية فى جزيرة العرب لصالح
الإسلام والمسلمين حتى قضى قضاء تاماً على الشرك والوثنية وكانت
السيادة التامة للتوحيد والتوحيد فقط .

وفى صلح الحديبية عبر ومواعظ .. وحكم ودروس ، فى العلم
والصبر وضبط النفس والوفاء بالعهد ، وتقبل الانتقاد الهادف ، وتحمل
المعارضة النزيهة ، وتحمل الأذى ، لبلوغ الأهداف النبيلة السامية ..
عبر ، ومواعظ ، وحكم ، ودروس ، جدرة بالاهتمام والبحث والتمعن
للاستفادة منها والاستضاءة بنورها ، وخاصة لمن هم فى مقعد الريادة
وكرسى القيادة .. والله نسأل أن يوفقنا جميعاً للاهتمام بهدى نبينا
محمد ﷺ وعلى آله وصحبه وسلم ، والله أكبر والله الحمد .

محمد أحمد باشميل

جدة - المملكة العربية السعودية

١٣٨٩ هـ - ١٩٦٩ م

الفصل الأول

مجمال الأحداث السياسية والعسكرية

بين غزوة بنى قريظة وصلاح الحديبية

لم تعد هناك قبيلة من قبائل الوثنيين العرب (عندما ظهر الإسلام) إلا وناصبته العداوة .

وعندما وجد هذا الدين أنصاراً ، أقوياء في المدينة مؤمنين يذبون عنه وعن نبيه أكثر مما يذبون عن نساءهم وأطفالهم تضاعفت عداوة من بقى من الأعراب على الوثنية للإسلام . وكان هؤلاء الأعراب الوثنيون يتربصون (دائماً بالإسلام) الدوائر ويحاول الكثير منهم الإغارة على المسلمين في المدينة (حاضرة الإسلام الجديدة) .

الأعراب والأحزاب :

وعندما كانت معركة الأحزاب (في أواخر السنة الرابعة من الهجرة) ناشبة بين المسلمين (وهم لا يزيدون على ألف مقاتل) من جهة ، وبين أعراب نجد وقبائل الحجاز واليهود وعددهم لا يقل عن أحد عشر ألف مقاتل ، من جهة أخرى .. كان الأعراب الوثنيون - بعواطفهم ومشاعرهم وقلوبهم دونما استثناء مع إخوانهم الوثنيين من قبائل الحجاز وعشائر نجد وأحلافهم من اليهود يتمنون أن يكون لهم النصر الساحق

على جيش الإسلام الصغير .. بل وما كانوا يشكون لحظة في تحقيق هذا النصر .. لأن كل شيء ماديّ يشير على نحو ساحق بأن الأحزاب الوثنية ومحزبيها من اليهود سيكونون هم المنتصرين في المعركة .

ولكن الأمر جاء على خلاف ما يتوقع ويتمنى هؤلاء الأعراب الوثنيون حيث كتب الله الفشل الذريع لمشروع الغزو اليهودي الكبير فاندحرت جيوش الأحزاب الجرارة ، وعادت إلى نجد ومكة تجر أذيال الهزيمة والعار ، بعد أن فشلت (أمام القلة المسلمة الجبارة) في اقتحام المدينة .. فانتصر المسلمون انتصاراً عظيماً لم يحققوا مثله في عهد النبوة (بالنسبة لقتلهم وكثرة عدوهم) ، ووقع اليهود في عملهم السيئ ، فتم إعدام ثمانمائة من خونة بني قريظة وعلى رأسهم محزب الأحزاب ورأس الفتنة والشر (حيي بن أخطب النضري) وفر إلى خبير مرعوباً زميله في الخيانة والتآمر (سلام بن أبي الحقيق) الذي تمكن خمسة من القذائيين الأنصار من قتله وهو على فراش نومه في رأس حصنه كما سيأتي تفصيله .

وهذا انقلب ميزان القوى في جزيرة العرب انقلاباً خطيراً لصالح معسكر الإسلام وبصورة جعلت القائد الأعلى لهذا المعسكر (النبي محمد ﷺ) يشدد من قبضته على دفة القيادة للجزيرة العربية بأكملها .. الأمر الذي ما كانت تتخيل (سوى حدوث عكسه) أحزاب الوثنية والكفر ، عندما كانت لها قوات ضاربة مؤلفة من أحد عشر ألفاً (تحاصر المدينة التي لم يبلغ الجيش المدافع عنها أكثر من ألف مقاتل .

العمليات العسكرية :

كانت الدروس المستفادة من الماضي والتي وعها المسلمون من تجاربهم (عبر أربع سنوات) مع الأعراب الوثنيين وكل أحزاب الكفر من اليهود .. أثبتت أن العمل العسكري (وخاصة ضد الأعراب واليهود) هو السبيل الوحيد لتأمين وسلامة أمن المنطقة وتميئة الجو لدعوة التوحيد لتأخذ طريقها إلى العقول والقلوب بالقدر المطلوب من الحرية المطلوبة . ولهذا (كما أثبتت الأحداث فيما بعد) قرر النبي القائد ﷺ ، مضاعفة النشاط العسكري ضد اليهود وسكان البوادي من الأعراب في نجد والحجاز على السواء .

فقرر اجتثاث سلطان اليهود الزنيم (بقوة السلاح) نهائياً - في خيبر وبقية المناطق الشمالية ، كما قرر القيام بحملات عسكرية تأديبية قوية ضد الأعراب في نجد والحجاز .

خيبر آخر المطاف :

وكان آخر المطاف في هذا العمل العسكري هو غزوة خيبر التي بها تم للمسلمين تصفية العنصر اليهودي الدخيل في جزيرة العرب تصفية كاملة .

وقبل القيام بالحملة الكبرى لتصفية اليهود في (خيبر) قام النبي ﷺ بعشرين عملية عسكرية كانت على شكل سرايا ينشأ لتأديب العرب وتخضع شوكتهم .. ومنها حملتان وطئ فيهما رجاله من الأنصار مدينة خيبر ، وتمكنوا من الفتك فيها بملكين من ملوكها الواحد تلو الآخر ، وهما : سلام بن أبي الحقيق الملقب (بأبي رافع) وأسير ابن زارم .

حملة القرطاء - ١٠ محرم سنة خمس للهجرة

كانت العشائر النجدية من أجرا العناصر البدوية الوثنية على المسلمين ، لأن النجديين أهل قوة وبأس وعدد غامر ، وقد رأينا كيف أن العمود الفقري لقوات الأحزاب الضاربة ، كان من هذه القبائل النجدية حيث كان رجال هذه القبائل الشرسة يشكلون الأغلبية الساحقة من تلك القوة الضاربة .. ستة آلاف مقاتل من غطفان وأشجع وأسلم وفزاره وأسد ، كانت ضمن الجيوش التي قادها أبو سفيان لحرب المسلمين ، فحاصروهم أهل المدينة .

ولهذا فإن أول حملة عسكرية وجهها النبي لتأديب خصومه (بعد انتصاره الساحق في غزوة الخندق وبنى قريظة) وهى تلك الحملة التي جردها على القبائل النجدية من بنى بكر بن كلاب^(١) الذين كانوا يقطنون القرطاء بناحية ضريبة^(٢) على مسافة سبع ايام من المدينة ..

فى أوائل شهر المحرم عام خمس للهجرة - وبعد الانتهاء مباشرة من القضاء على يهود بنى قريظة - وجه النبي ﷺ إلى هؤلاء الأعراب حملة تأديبية بقيادة رئيس حرسه الخاص (محمد بن مسلمة الأنصارى) وكان عدد قوات هذه الحملة ثلاثين راكباً فقط .

(١) بكر بن كلاب من قبائل نجد العظيمة ، قال فى معجم قبائل العرب : وهى من قيس عيلان من العدنانية ، بلادها واسعة ، فيها كثير من الجبال والمياه .

(٢) قال ابن بليهد فى (صحيح الأخبار) ضريبة - بالفتح ثم الكسر وباء مشددة قرية عامرة قديمة على وجه الدهر فى طريق مكة من البصرة من نجد .

ويظهر أن النبي ﷺ أمر قائد هذه الحملة أن لا يتعرض لنساء بني كلاب بالسبي إذا ما ظفر بهم في حملته .

وقد تحرك (ابن مسلمة بهذه الحملة العسكرية ، وكان يكمن النهار ويسير بالليل حتى أغار على بني بكر بن كلاب في ديارهم بعد أن باغتهم ، فأبدوا بعض المقاومة ، إلا أنهم هربوا في النهاية بعد أن تركوا عدداً من القتلى (قال في السيرة الحلبية : إنهم عشرة) .

قال ابن سعد في (طبقاته الكبرى) : كان بنو بكر ينزلون البكرات بناحية ضرية ، وقد أمر النبي ﷺ ابن مسلمة أن يشن عليهم الغارة ، فسار الليل وكمن النهار ، وأغار عليهم فقتل نكراً منهم وهرب سائرهم ، واستاق خمسين بعيراً وثلاثة آلاف شاة .

قال ابن سعد : وفي هذه الغزوة لم يعرض المسلمون للظعن (أي النساء) وقد قسم النبي ﷺ بين الغازين الغنيمة بعد تخميسها فعدّلوا الجزور (واحدة من الإبل بعشرة من الغنم) ، وقد استغرقت هذه الحملة من الوقت تسع عشرة ليلة^(١)

سيد حنيفة في الأمر :

ويقول المؤرخون : إن هذه السرية التي يقودها محمد بن مسلمة ، قد أسرت (وهي في طريقها) سيداً من سادات بني حنيفة وهو (ثمارة ابن أثال الحنفي) .

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ج ٢ (ص ٧٨) :

وكان قد جاء متنكراً لاغتيال النبي ﷺ بإيعاز من (مسيلمة الكذاب) ^(١) وكانت سرية ابن مسلمة قد أخذت (ثمارة وهي لا تعرفه) ، فلما رآه النبي ﷺ قال : أتدرون من أخذتم ؟؟ هذا ثمارة بين أثال الحنفي فأحسنوا أساره .. وأمر ﷺ بتخصيص ناقة يأتى لبنها إلى ثمارة كل مساء وصباح ..

وقد أحسن النبي ﷺ معاملة سيد بنى حنيقة الأسير ، وكان يزوره في معتقله ويلاطفه .. حتى أثرت هذه المعاملة النبوية الحسنة في نفسه إلى درجة تحول معها من أشد الناس بغضاً للنبي ﷺ إلى أعظمهم حباً وتفانياً في تدعيم دعوته .

فقد زاره النبي مرة وهو في معتقله ، فقال له (ملاطفاً) : ما عندك يا ثمارة ؟ .. فقال : يا محمد عندي خير .. إن تقتل تقتل ذا دم .. وإن تعف .. تعف عن شاكر .. وإن تريد المال فسل ، تعط منه ما شئت !! . غير أن النبي ﷺ لم يقتله ولم يطلب قدية ، بل عفا عنه ليذهب حراً كيف شاء .. إلا أن ثمارة (وقد ملكت عليه مشاعره وأخذت بزمام قلبه تلك المعاملة النبوية الكريمة النبيلة) لم يعد إلى قومه كما جاء مشركاً بل عاد إليهم داعية إلى دين التوحيد (وكأشد ما يكون الداعية المخلص) .

فبعد أن عفا عنه النبي ﷺ وأمر بإطلاق سراحه جاء إلى النبي ﷺ وقال له : يا محمد والله ما كان على الأرض وجه أبغض إلي من وجهك .. فقد أصبح وجهك أحب الوجوه كلها إلي .

(١) السيرة الحلبية ج ٢ (ص ٢٩٧) .

والله ما كان على الأرض من دين أبغض إلى من دينك .. فقد أصبح دينك أحب الدين كله إلى .

والله ما كان من بلد أبغض إلى من بلدك ، فقد أصبح بلدك أحب البلاد إلى .

ثم شهد شهادة الحق فأعلن إسلامه ، فكان من خيرة الصحابة ومن أثبت بنى حنيفة إسلاماً .. وعندما أشعل مسيلمة الكذاب نيران فتنة الردة في نجد ، ثبت ثمامة على إسلامه ، وكان إلى جانب جيوش الخلافة يقارع الكذاب .

ثمامة ينتصر للإسلام من قريش :

وفي صحيح البخارى أن ثمامة قال للنبي ﷺ (بعد أن أسلم) :
إن خيلك أخذتني وأنا أريد العمرة فماذا ترى ؟ .
فأمره النبي ﷺ أن يغتمر ففعل .

قريش تقتل ثمامة :

ولما كان ثمامة يستند إلى عصبية قبلية قوية (إذ هو سيد بنى حنيفة)
أبى أن يدخل إلا مجاهراً في عمرته بالتلبية ، فلما قدم بطن مكة لبى
رافعاً بها صوته .

فاعتبرت قريش ذلك تحدياً لها فاعتقلته وقالت له : لقد اجترأت
علينا ، ثم اتهموه بأنه قد صبا حيث قالوا له : صبوت يا ثمامة .

فقال : ما صبوت ، وإنما أسلمت وتبعنت خير دين .. دين محمد ، فزاد ذلك من غيظهم ، فشددوا من حبسه .. وكان قد أنذرهم حالفاً بالله بأنهم لن يروا حبة حنطة تصل إليهم من اليمامة ، حتى يأذن فيها رسول الله ﷺ .. وكانت اليمامة ريفاً لأهل مكة يعتمدون على محاصيلها لتموينهم بالمواد الغذائية الضرورية .

ولقد حاول كفار مكة قتل ثمانية .. وفعلوا قدموه لضرب عنقه ، إلا أن أحد عقلائهم نصحهم بأن لا يفعلوا (خوفاً من أن يكون رد فعل قتله لدى قومه بنى حنيفة قطع المواد الغذائية عن مكة فيهلك الناس جوعاً) حيث قال : دعوه فإنكم تحتاجون إلى اليمامة ، فخلّوا سبيله خوفاً من انتقام قومه .

منع بيع محاصيل اليمامة في مكة :

وفعلوا لقد برّ هذا الزعيم الحنفى العظيم بقسمه ، فأمر قومه في اليمامة بأن يمنعوا عن قريش ما كان يأتي إليها من اليمامة من حبوب ومنافع ، فأضر ذلك بقريش ضرراً كبيراً إلى درجة نفشت معها المجاعة في مكة . حتى أكلت قريش العلهز^(١) .

ولم تجد قريش وسيلة لرفع ضائقة الجوع إلا التوجه إلى النبي ﷺ ليطلب من سيد بنى حنيفة رفع الحصار الاقتصادي الذي فرضه عليهم .

(١) العلهز (بكسر العين وسكون اللام وكسر الهاء) :: الدم يخالط بأوبار الأبل فيشوى على النار :

قال ابن عبد البر في الاستيعاب : وكتبت قريش إلى رسول الله ﷺ إن عهدنا بك تأمر بصلة الرِّحِم وتحت عليها ، وأن ثُمَامَةَ قَدْ قَطَعَ عَنَا مِيرَتَنَا وَأَضَرَّ بَنَا ، فَإِنْ رَأَيْتَ أَنْ تَكْتُبَ إِلَيْهِ أَنْ يَخْلَى بَيْنَنَا وَبَيْنَ مِيرَتَنَا فافْعَل .

فاستجاب النبي ﷺ لرجاء قومه (بالرغم من أنه في حالة حرب معهم) ، وكتب إلى سيد بني حنيفة (ثُمَامَةَ) : أَنْ خَلِّ بَيْنَ قَوْمِي وَبَيْنَ مِيرَتِهِمْ .. فامتثل ثُمَامَةَ أمر نبيِّه وسمح ابني حنيفة باستئناف إرسال المحاصيل إلى مكة فارتفع عن أهلها كابوس المجاعة^(١)

- ٢ -

حملة الغمر (٢) - ربيع الأول سنة خمس للهجرة

كانت قبائل بني أسد وهي من أقوى القبائل النجدية قد اشتركت (بقيادة طليحة بن خويلد) في معركة الخندق إلى جانب الأحزاب ضد المسلمين .. فأصبحت بذلك عدوًّا محارباً للمسلمين .

فكان من البدهى أن يقوم النبي ﷺ بتأديبها وإرهاها بالإغارة عليها لإعطائها درساً بأن المسلمين في حالة من القوة العسكرية تمكنهم من أن يصلوا بهجماتهم إلى قلب بني أسد .

(١) انظر السيرة الحلبية ج ٢ ص ٢٩٨ والاستيعاب لابن عبد البر (ترجمة ثُمَامَةَ ابن أُمِّ أَلَةَ الحنفى) :

(٢) ويقال لها الغمار قال ابن بليهد (في صحيح الأخبار) : اسم يطلق على موضعين : أحدهما محاذ بلد سميراء من الجهة الجنوبية من حدود بلاد بني أسد ، ويقال له اليوم : (الغمار) وهو جبل شاهق أحمر إلى السَّاء وتصطاد منه الصقور وبه مياه كثيرة .

لذلك جهّز حملة تآديبية (إلى ديار بني أسد) ، صغيرة في عدد رجالها كبيرة في معناها عظيمة في تأثيرها .

وقد أسند النبي ﷺ قيادة هذه الحملة إلى الصحابي الشهير (عكاشة بن محصن) وهو من بني أسد أنفسهم .. وكان عدد رجال هذه الحملة أربعين فارساً .

وقد أمره بأن يغير على بني أسد في ديارهم .

فتحرك (عكاشة) برجاله ، وما يزال يغذّ السير بهم ليفاجئ الوثنيين من قومه ، غير أن القوم نذروا^(١) به قبل وصوله ، فهربوا واعتصموا بالمناطق الجبلية من بلادهم ، ولما وصل عكاشة^(٢) إلى ديارهم لم يجد بها أحداً منهم .

غير أن القائد عكاشة لم ييئس ، فبعث بشجاع بن وهب^(٣) طليعة (عيناً عليهم) فعاد وأخبر القائد أنه رأى أثر نعم قريباً .. فتحرك بقواته في اتجاه الأثر فوجد رجلاً نائماً فسأله عن بني أسد ، فقال : وأين بني أسد ؟؟ قد لحقوا بعليات بلادهم عندما نذروا بكم .

ولما سألوه عن النعم قال : أخذوها معهم . غير أن أحد رجال استخبارات الحملة ضربه بالسوط للحصول منه على معلومات .. ولما

(١) نذر (بفتح أوله وكسر ثانيه) به أي علم به .

(٢) انتظر ترجمة عكاشة بن محصن في كتابنا (غزوة الأحزاب) .

(٣) هو شجاع بن وهب الأسدي ، من السابقين الأولين ، شهد بدرًا ومن هاجر إلى الحبشة ، قاله ابن اسحاق وموسى بن عقبة ، كان شجاع بن وهب ، سيداً من سادات بني أسد ، وكان مبعوث النبي صلى الله عليه وسلم إلى الملك المنذر بن الحارث بن شمр الفسائي ، كما بعثه النبي صلى الله عليه وسلم إلى جبلة بن الأيهم ملك الفساسة المنتصر .. اشتهد شجاع بن وهب في حروب اليمامة ، قاله ابن سعد والكلبي .

أحسن بالضرب قال : أتؤمنوني على دمي وأطلعكم على نعم لبعض القوم
لم يعلموا بمسيركم إليهم ؟ قالوا : نعم .

فانطلقوا معه (بعد أن أمنوه) فأمعن بهم في الطلب ، حتى خافوا أن
يكون ذلك منه استدراجاً وغدراً ، فاستوقفه القائد (عكاشة) وقال له :
والله لتصدقنا أو لنضربن عنقك .

وهنا خاف فقال : ارتقوا هذا المكان المرتفع ثم انظروا .. فلما
أشرفوا من ذلك المكان الذي أشار إليه وجدوا نعماً^(١) رواتع فأغاروا
عابها فاستاقوها فإذا هي مائتا بعير ، فاكثفوا بذلك حيث فاتهم القوم
هرباً ، ثم عادوا إلى المدينة ولم يلقوا كيداً .

ولقد أثبتت عمليات هذه الحملة العسكرية أن الرعب من المسلمين
قد شحن نفوس الأعراب وحتى أعظمهم شراسة وأشدهم بأساً مثل قبيلة
بنى أسد التي ما كان يتوقع أحد أنها (وهي القبيلة العظيمة) ستفر
(وفيها آلاف الفرسان) بمجرد علمها أن المسلمين ينوون القيام بغزو
أراضيها .. ولا شك أن هذا مصداقاً لقول النبي ﷺ : « نصرت
بالرعب » الحديث .

— ٣ —

غزوة بنى لحيان (٢) — سنة خمس من الهجرة

كانت قبائل بنى لحيان هذه (وهي من قبائل الحجاز) قد غدرت
بأثنى عشر من خيرة أصحاب النبي ﷺ فقتلوهم جميعاً بعد أن

(١) النعم : الأبل .

(٢) لحيان (بكسر أوله وسكون ثانيه) بطن من هذيل من العدنانية وقال القلقشندي-

أعطوهم الأمان ، وأخذوهم من المدينة في جوارهم وذلك في السنة الرابعة من الهجرة .

وقد ذكرنا في حينه أن وفداً من هذه القبائل جاؤوا إلى النبي ﷺ في المدينة متظاهرين بالإسلام وطلبوا من النبي ﷺ أن يرسل بعثة من أصحابه تعلم بني لحيان شرائع الإسلام ، فاستجاب النبي ﷺ لهذا الطلب ، فأوفد معهم بعثة تعليمية من خيرة أصحابه تتكون من عشرة أنفار على رأسهم البطل المشهور (عاصم بن ثابت) . « انظر ترجمته في كتابنا غزوة أحد » .

غير أن هذه البعثة لم تكد تصل ديار بني لحيان حتى غدر بها هؤلاء الخونة ، فاستشهد جميع أفراد هذه البعثة حيث قتلوا جميعهم غدراً^(١) .

وقد تألم النبي ﷺ أشد الألم لفقد أولئك العشرة البررة الأعزاء عليه .. وخاصة أنهم قُتلوا بطريقة تمثل أخطر أنواع الخيانة والغدر .

وكان النبي ﷺ راغباً كل الرغبة في تأديب تلك القبائل الخائنة الغادرة ، والاقتصاص منها لأولئك الشهداء من القراء الأبرار المغدور بهم إلا أن الظروف في تلك السنة (وهي السنة الرابعة من الهجرة)

كانت غير مواتية لتحقيق هذه الرغبة .. حيث كان النبي مشغولاً يدفع الأخطار الجسام التي تهدد الإسلام والمسلمين في عقر دارهم من الداخل والخارج ، لاسيما مؤامرات اليهود الخطيرة التي يدبرونها للإطاحة

= في نهاية الأرب : بطن من جرمهم من القحطانية (والأول أصح) .. تقع منازلهم بين عسفان ومكة :

(١) انظر تفاصيل هذه الحادثة المؤلمة في كتابنا (غزوة الأحزاب) ص ٤٢ الفصل الأول :

بالمسلمين والتي كانت ثمرتها تلك الغزوة الرهيبة ، غزوة الأحزاب ، التي قاموا بها لسحق المسلمين في السنة الرابعة الهجرية نفسها .

النبي يقود الحملة بنفسه :

غير أن النبي ﷺ لم يكد يتخلص من تلك الأخطار الجسام ، على أثر فشل غزو الأحزاب واندحارهم ذلك الاندحار المشهور حتى تحرك بنفسه لتأديب أعراب بني لحيان من هذيل الغادرين الخونة .

إذ تحرك من المدينة نحو منازل بني لحيان على رأس قوة قوامها مائتا مقاتل بينهم عشرون فارساً . وذلك بعد مضي حوالى شهرين فقط على العملية الحاسمة الكبرى التي قام بها النبي ﷺ لتصفية يهود بني قريظة في المدينة .

وكانت غزوة (بني لحيان) أول حملة عسكرية يقودها النبي ﷺ بنفسه بعد غزوة بني قريظة التي انتهت في أواخر شهر ذي الحجة من السنة الرابعة للهجرة .

تفاصيل العدو :

لقد كانت أرض (بني لحيان) من هذيل تبعد عن المدينة أكثر من مائتين من الأميال . وهي مسافة بعيدة ، يلاقى مشاق كبيرة كل من يريد قطعها وخاصة إذا كان غازياً ، ولكن النبي ﷺ لم يبال بذلك فقد كان حريصاً كل الحرص على الاقتصاص لأحبابه من الصحابة الذين استشهدوا (غزراً) على يد هذه القبائل المتوحشة التي لا تقيم لليهود والمواثيق اعتباراً .

وكما هي عادة النبي ﷺ في تضليل العدو الذي يريد مهاجمته اتجه بجيشه نحو الشمال بينما تقع منازل بني لحيان (الذين قرر غزوهم) في أقصى الجنوب .

وقد أعلن النبي ﷺ قبل تحركه نحو الشمال : أنه يريد الإغارة على الشام .

وسبب هذه التعمية : هو أنه أدخل في حسابه وجود جواسيس في المدينة أو حوالها يعملون لحساب قبائل بني لحيان الذين كانت لهم صولة ودولة قبل الإسلام ^(١)

واتجاهه نحو الشمال وإعلانه بأنه يريد غزو الشام يفوت على هؤلاء الجواسيس الغرض الذي من أجل تحقيقه قاموا بالتجسس .. وحتى أصحابه كانوا لا يشكّون في أنه يريد أن يغزو بهم الشام ، ولم يعلموا أنه يريد بني لحيان إلا عندما انصرف بهم نحو الجنوب ، بعد أن اتجه بهم متوغلاً نحو الشمال حوالى عشرين ميلاً .. في حركة تمويهية على العدو بارعة .

وكان تغيير خط سيره من الشمال إلى الجنوب عند مكان يقال له (البتراء) ففي ذلك المكان عطف بجيشه نحو الغرب حتى استقام على الجادة منصباً نحو الجنوب .

فرار اللحيانيون قبل وصول النبي :

ولقد بذلت قيادة الجيش النبوي قصارى جهدها في اتباع طريق

(١) انظر ذلك في EmcycloDie de Islam tome 3 p 26 – 28

السرية والكتمان (ومن ذلك سلوك السبل غير المطروقة) ليأخذوا
الغادرين على حين غرة ويقتصوا منهم للشهداء المغدور بهم .

ولكن (هذيل) الغادرة ، لتوقعها قيام النبي ﷺ بمثل هذه الحملة
التأديبية .. كانت على غاية التيقظ والانتباه ، فقد بثت الأرصاد
والجواسيس في الطرق ليتحسسوا لها ويتجسسوا .

لذلك فما كاد النبي ﷺ يقترب بجيشه من منازل هؤلاء الغادرين
حتى انسحبوا منها فارين .. فاعتصموا برؤوس الجبال وذلك بعد أن
نقلت إليهم عيونهم خبر اقتراب جيش المسلمين من ديارهم .

المطاردة :

ولما وصل النبي ﷺ إلى ديار (بنى لحيان) وتأكد له فرارهم
منه ، عسكر في ديارهم بجيشه ، ثم بث السرايا من رجاله ليتعقبوا
هؤلاء الغادرين ، ويأتوا إليه بمن يقدرون عليه .

وقد استمرت السرايا النبوية في البحث والمطاردة يومين كاملين
إلا أنها لم تجد أي أثر لهذه القبائل التي تمنعت في رؤوس تلك الجبال
الشامخة .

الإقامة في أرض العدو :

وبعد أن يثس النبي ﷺ من العثور على (بنى لحيان) أقام في
ديارهم لإرهابهم وتحذيرهم (كما هي عادته) وليظهر للأعداء مدى قوة
المسلمين وثقتهم بأنفسهم ، وقلبتهم على الحركة حتى إلى قلب ديار
العدو متى شاؤوا .

إرهاب المشركين بمكة :

ولما كانت الحالة القائمة بين المسلمين ومشركي مكة في ذلك الظرف هي حالة حرب .. فقد رأى النبي ﷺ أن يغتنم فرصة وجوده بجيشه قريباً من مكة فقرر أن يقوم بمناورة عسكرية يرهب بها المشركين في مكة .

فتحرك بجيشه حتى نزل به وادي عسفان^(١) ، وهناك استدعى أبا بكر الصديق وأعطاه عشرة فوارس من أصحابه وأمره بأن يتحرك بهم نحو مكة ليثبت الدعر والفرز في نفوسهم ، فاتجه الصديق بالفرسان العشرة نحو مكة حتى وصل بهم كراع الغميم^(٢) وهو مكان قريب جداً من مكة .

فسمعت قريش بذلك فظننت أن النبي ﷺ ينوي غزوها فانتابها الخوف والفرز والرعب ، وساد صفوفها الدعر .. هذا هو الذي هدف إليه النبي ﷺ بهذه الحركة التي كلف الصديق أن يقوم بها .

أما الصديق وفرسانه العشرة فبعد أن وصلوا كراع الغميم وعلموا أنهم قد أحدثوا الدعر والفرز في نفوس أهل مكة عادوا سالمين إلى النبي القائد ﷺ فتحرك بجيشه عائداً إلى المدينة .

قال ابن سعد في طبقاته الكبرى : فأقام النبي ﷺ في منازل بني لحيان يوماً أو يومين ، فبعث السرايا في كل ناحية فلم يقدرُوا على أحد ، ثم خرج حتى أتى عسفان فبعث أبا بكر في عشرة فوارس

(١) عسفان (بضم أوله وسكون ثانيه) واد شمال وادي فاطمة .

(٢) كراع الغميم : موضع قرب مكة .

لتسمع به فريش فيذعرهم ، فأتوا الغميم ثم رجعوا ولم يلقوا أحداً ،
 ثم انصرف رسول الله ﷺ إلى المدينة وهو يقول : آيبنون ثائبون
 عابدون لربنا حامدون ، وغاب عن المدينة أربع عشرة ليلة ^(١) .
 وزاد ابن إسحاق عن جابر أنه ﷺ قال أيضاً : أعوذ بالله من
 وعشاء السفر وكآبة المنقلب وسوء المنظر في الأهل والمال .

الترحم على الشهداء :

وعندما وصل النبي ﷺ إلى بطن (گران) ^(٢) حيث لقي الشهداء من
 أصحابه مصرعهم على أيدي العونة من هذيل ، ترحم على هؤلاء
 الشهداء ودعا لهم ^(٣) .

نهى النبي عن الاستغفار لأمه :

وذكر بعض المؤرخين أن النبي ﷺ أثناء عودته من غزوة (بنى
 لحيان) وقف على قبر أمه فاستأذن ربه في أن يستغفر لها فلم يأذن له ..
 وأنزل الله بهذا الصدد ﴿ ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين
 ولو كانوا أولى قربى من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم ﴾ .
 وفي صحيح مسلم عن أبي أيوب الأنصاري قال : زار رسول الله
 ﷺ قبر أمه فبكى وأبكى من حوله ، فقال : فاستأذنت ربي في أن
 أستغفر لها فلم يأذن لي ، واستأذنته في أن أزورها فأذن لي ، فزوروا
 القبور فإنها تذكركم الموت .

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ج ٢ ص ٧٩ .

(٢) غران بضم أوله : واديين ساية ومكة .

(٣) طبقات ابن سعد الكبرى ج ٢ ص ٧٩ .

غزوة الغابة (١) .. ربيع الأول سنة خمس للهجرة

كان عيينة بن حصن الفزاري من أعظم الزعماء نفوذاً بين القبائل النجدية حتى إنه لذلك (ومع تهوره) كان مشهوراً بلقب (الأحمق المطاع) لأنه كانت تتبعه وتطيع أمره عشرة آلاف قناة من فزارة وخدما ، يوجه هذه الآلاف أينما شاء فيطيعونه دون أن يسألوه : كيف ، ولم ؟ .

وكان عيينة هذا من ألد أعداء رسول الله ﷺ حتى إنه (في غزوة الأحزاب) كان قائد أحد الأجنحة الأربعة من القبائل النجدية التي اشتركت مع اليهود في حصار المدينة .

ولما كانت الحالة التي أعقبت اندحار الأحزاب ومحزبيهم اليهود في غزوة الخندق ، هي حالة حرب بين المسلمين وقبائل غطفان وفزارة ، فليس من المستغرب أن يقوم عيينة بن حصن الفزاري بالإغارة على المسلمين وانتهاب أى شيء تابع لهم ، ولا سيما وأن منازل فزارة (٢) أقرب المنازل النجدية إلى يشرب .

(١) الغابة .. قال في مرصد الاطلاع : هي الشجر المتلف ، وهي موضع شمالي المدينة تقع على بريد من المدينة ، وقال في معجم البلدان : تبعد الغابة عن المدينة ثمانية أميال .

(٢) انظر ترجمة قبيلة فزارة في كتابنا (غزوة الأحزاب) .

فرارة فغير على المسلمين :

كانت (الغابة) منطقة خصبة كثيرة الثبت والشجر ، وكانت بها أملاك زراعية للمسلمين ، وكانت تعتبر إحدى مراعى المدينة الرئيسية وكانت (الغابة) أقرب ما تكون إلى منازل عيينة بن حصن ^(١) وقومه فزارة .

كان النبي ﷺ قد بعث بمجموعة كبيرة من الإبل لترعى في (الغابة) بعث بها مع غلام له .. وكان أبو ذر الصحابي المشهور موجوداً في هذه الإبل مع ولده .. كما كان معهم الفارس العدائي المشهور (سلمة ابن الأكوع) ^(٢) .

ولما وصلوا إلى المرعى في الغابة وباتوا ، أغار عليهم عند طلوع الفجر عبد الرحمن بن عيينة بن حصن سيد فزارة تسانده قوة كبيرة من فرسان غطفان .

وقد استولى المفكرون على جميع إبل المسلمين واستاقوها بعد أن قتلوا ابن أبي ذر الغفاري ^(٣) الذي دافع عن الإبل واحتملوا امرأته معهم سبية .

(١) انظر ترجمة عيينة بن حصن في كتابنا (غزوة الأحزاب) :

(٢) هو سلمة بن عمرو بن الأكوع واسمه (سنان) الأسلمي . قال ابن حجر في الإصابة : كان أول مشاهده الحديبية وكان من الشجعان والعدائين الأفاضل (يسبق الفرس عدواً) بايع النبي صلى الله عليه وسلم عند الشجرة مات سنة أربع وسبعين .

(٣) أبو ذر الغفاري الصحابي المشهور ، واسمه جندب بن جنادة بن سكين كان من السابقين الأولين في الإسلام ، ومن الزاهدين ذوى اللهجة الصادقة ، وقصة إسلامه قصة شبة مفصلة في صحيح البخارى ، وفيه قال النبي صلى الله عليه وسلم : ما أقلت -

ولم يكن من الصحابة المحاربين حاضراً (ساعة الغارة) سوى سلمة ابن الأكوع الذي كان يركب فرساً لطلحة بن عبيد الله ، استعارها منه عند خروجه مع الرعاة استعداداً للطوارئ .

الصریح فی المدينة :

ولما كانت المسافة بين الغابة والمدينة غير قريبة ، وأنه لا بد من إبلاغ النبي القائد وأصحابه (بسرعة) لكي يسرعوا بالنجدة لاستنقاذ الإبل من مشركي فزارة .. ورأى سلمة بن الأكوع أنه من الصعب عليه وحده الالتحام بالمشركين المغيرين لاستخلاص الإبل منهم .. قرر التخلي عن الفرس التي كان يركبها ، واستدعى الراعي الوحيد الذي نجا من القتل ، فطلب امتطاء ظهر الجواد والانطلاق بأقصى سرعة نحو المدينة لإبلاغ النبي ﷺ خبر اعتداء ابن حصن على إبله ، وطلب النجدة لاستنقاذها .

وفعلاً امتطى الراعي (واسمه زباح) - امتطى صهوة جواد ابن الأكوع وانطلق نحو المدينة يسابق الريح ، ولم تكن إلا سويحات قائلة حتى كان في المدينة يصرخ (الفزع الفزع) .

= الغبراء وأظلت الخضراء أصدق لهجة من أبي ذر .. كانت لأبي ذر رضي الله عنه آراء في شئون المال خالفة فيها جمهور الصحابة بمن فيهم الخلفاء الراشدون ، وقد ماتت هذه الآراء مع أبي ذر إذ لم يطبقها أحد من الخلفاء بمن فيهم أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ، أشد المعجبين بأبي ذر رضي الله عنهم أجمعين وفي أبي ذر قال النبي صلى الله عليه وسلم : يرحم الله أبا ذر يعيش وحده ويهوت وحده ويمش وحده .. وقد استغل الذين حاولوا هركسة الإسلام آراء أبي ذر الشاذة استغلالاً فظيماً حتى يظن من يقرأ هؤلاء المضللين أن أبا ذر رضي الله عنه هو واضع أسس الاشتراكية العلمية (التي هي الماركسية بعينها) ألا ساء ما يحكمون . (انظر كتابنا أكلوبة الاشتراكية) .

وكانت هذه الكلمة كافية لتعبئة كل من في المدينة من المحاربين
لأنه لا يُصرخ بها إلا عندما تتعرض بلاد المسلمين لخطر جسيم من قبل
أعدائهم .

ولما تبلغ المسلمون جلية الخبر ، اهتم النبي ﷺ اهتماماً شديداً
لاستيلاء النجديين على الإبل لأن ذلك يعد تحدياً صارخاً من غطفان
للمسلمين واستهانة بقوتهم حيث جرأت غطفان وأغارت على سرح
المسلمين في منطقة تعتبر من ضواحي المدينة .

واجتياح إبل المسلمين منها اعتبره المسلمون عملاً بالغ الخطورة
وفسر بأنه قد يكون بمثابة جس النبض لقوات المسلمين ، ومقدمة
لهجوم شامل تقوم به قبائل غطفان على المدينة نفسها ، لأن فزارة وحدها
التي يتزعمها عبيدة بن حصن ، تستطيع أن تحشد عشرة آلاف مقاتل .

لذلك اهتم النبي ﷺ لهذه الحادثة اهتماماً عظيماً وجهاز جيشاً
كبيراً لمطاردة المغيرين وردعهم قوامه سبعمائة مقاتل تحركوا من
المدينة بقيادة الرسول ﷺ نفسه إلى منطقة الغابة .

اندحار المغيرين واستعادة الإبل :

وكان النبي ﷺ قد بعث أمامه بقوة خفيفة من الفرسان لمقاتلة
المغيرين وإشغالهم بقيادة الفارس الأنصارى الشهير سعد بن زيد بن مالك^(١)
ثم لحقهم النبي ﷺ في عامة الجيش .

وقد اشتبكت فصيلة الفرسان النبوية مع المغيرين (وعلى قلة رجالها

(١) انظر ترجمة سعد بن زيد في كتابنا الرابع (غزوة بني قريظة) .

وكثرة العدو) تمكنت من دحرهم واستعادة كل ما انتهبوه من إبل المسلمين ، ثم طاردتهم حتى قذفت بهم إلى ما وراء حدود المسلمين .. ولم يصل النبي القائد ﷺ إلى منطقة الغابة إلا بعد أن دحرت فصيلة فرسانه قوات الغطفانيين المعتدين على النحو الذي ذكرنا .

وقد أبدى سلمة بن الأكوع في هذه المعركة بطولة نادرة (وخاصة قبل وصول كتيبة الفرسان النبوية) حيث ظل بمفرده يشاغل المغيرين ويراميهم بالنبل ، وكان من أعظم الرماة في عصره ، وقد استخلص مجموعة كبيرة من الإبل المنهوبة قبل قدوم كتيبة الفرسان النبوية .

قتل الفريقين في المعركة :

وقد استشهد في هذه العملية ثلاثة من المسلمين ، اثنان من أفراد فصيلة الفرسان النبوية هما : محرز بن نضلة ^(١) قتله عبد الرحمن ابن عيينة بن حصن : ووقاص بن محرز ^(٢) ، وابن أبي ذر لم يذكر اسمه أحد فيما رأيت من المؤرخين ، أما قتلى المشركين فقد كانوا ثلاثة من فرسانهم وهم : حبيب وعبد الرحمن ، أبناء عيينة بن حصن الفزاري ، وفارس يقال له مسعدة ، من فزارة ^(٣) .

(١) لقبه : الأخرم الأسدي ، واسمه محرز بن فضلة بن عبد الله ، من بني أسد ابن خزيمة ، القبيلة العدنانية النجدية العظيمة ، يلقب الأخرم هذا بفارس رسول الله صلى الله عليه وسلم . شهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بدرأ .

(٢) قال في الإصابة : هو وقاص بن محرز المدلجي و: ونفى ابن إسحاق أن وقاص قد قتل في هذه العملية :

(٣) انظر تفاصيل هذه الغزوة الهامة في سيرة ابن هشام ومغازي الواقدي وطبقات ابن سعد الكبرى ، والسيرة الحلبية وصحيح مسلم .

هودة المرأة الأسيرة :

أما المرأة التي أسرها المغيرون من غطفان وهي زوجة ابن أبي ذر الذي قتله المشركون أثناء الغارة في الغابة ، فقد عادت إلى المدينة سالمة بعد أن تمكنت من الإفلات من القوم على ظهر ناقة تابعة لرسول الله ﷺ . قال ابن برهان الدين : وانفلتت المرأة من الوثاق ليلا فأتت الإبل فجعلت إذا دنت من البعير ، رغا فتركه حتى انتهت إلى العضياء فلم ترغ فقعدت على عجزها ثم زجرتها ، و علموا بها فطلبوها ، فأعجزتهم ونذرت إن نجاها الله عز وجل لتنحرنها فلما أخبرت النبي ﷺ خبر هذا النذر تبسم وقال : بثما جزيتيها أى أنها حملتك ونجت بك من الأعداء فيكون جزاؤها النحر ، ثم قال لها ﷺ : لا لنذر في معصية الله ولا فيما لا يملكين .

وهذه الغزوة تعتبر من أكبر الغزوات التأديبية التي يقودها النبي ﷺ بنفسه ضد أعزب نجد بعد غزوة الأحزاب وبني قريظة وقبل غزوة خيبر .

- ٥ -

حملة ذي القصة .. شهر ربيع الآخر سنة خمس من الهجرة

ذو القصة (بفتح القاف وتشديد الصاد) منزل من منازل بني ثعلبة من غطفان أعداء الرسول ﷺ الألداء . وتبعد عن المدينة أربعة وعشرون ميلا .

بعث النبي ﷺ إلى ذي القصة بدورية استكشاف قوامها عشرة نفر بقيادة الفارس المشهور محمد بن مسلمة الأنصاري .

وكانت عيون بني ثعلبة قد أبلغتهم بتحرك هذه الدورية نحوهم
وأنها تقصد ديارهم فاستعدوا لها وكنوا وأعدوا (للإحاطة بهم) مائة
رجل .

فلما وصل ابن مسلمة بدوريته إلى (ذى القصة) لم يجد أحداً
فاستراح بأصحابه فأخذهم النوم ، ولم يشعر إلا بمائة من فرسان بني
ثعلبة يحيطون بهم من كل جانب ، فثار الصحابة إلى سلاحهم وأخذوا
يرامونهم بالنبل ولكن دون جدوى ، فالكثرة تغلب الشجاعة كما يقولون .
فقد هجم المشركون على الصحابة فأبادوهم عن بكرة أبيهم أما
قائد الدورية (محمد بن مسلمة) فقد وقع جريحاً فضربوا كعبه فلم
يتحرك ، فظنوه قد مات فتركوه بعد أن أخذوا كل خيلهم وأسلحتهم
وحقن الثياب جردوهم منها ثم انصرفوا .

غير أن رجلاً من المسلمين مر بابن مسلمة وأصحابه ، فلما رآهم
صرعى استرجع فلما تأكد ابن مسلمة بأنه مسلم تحرك ، وهنا حملة
الرجل حتى ورد به المدينة ، حيث عولج من جراحه حتى شفى .

- ٦ -

حملة ذى القصة أيضاً ..

سنة خمس من الهجرة .. شهر ربيع الآخر

وسبب القيام بهذه الحملة ، هو أن النبي ﷺ بلغه أن بني محارب
وبني ثعلبة وأتمار ^(١) قد تحركوا إلى منطقة تغلبين والراض ^(٢) التي

(١) بني محارب وأتمار ، بطنان من قبائل نجد العدنانية ، ويتصل نسبهما بأسد
ابن ربيعة بن نزار ، أما ثعلبة فيظهر أنهم من غطفان : بنو ثعلبة بن قيس ، (انظر معجم
(٢) تغلبين والراض : موضعين يقعان على حدود بلاد نجد ناحية غطفان .

تبعد عن المدينة ستة وثلاثين ميلاً ، تحركوا للإغارة على سرح المدينة^(١) الذي كان يرعى بها على بعد سبعة أميال من المدينة بغية نهب هذا السرح والاستيلاء عليه .

لذلك سارع النبي ﷺ فبعث (على جناح السرعة) بكوكبة صغيرة من الفرسان قوامها أربعون فارساً بقيادة أبي عبيدة عامر بن الجراح ليحموا السرح ويصدوا المشركين عنه .

فتحرك أبو عبيدة بكوكبته مسرعاً بعد صلاة المغرب ، فوصل بفرسانه إلى ذى القصة مع عماية الصبح فوجد المشركين هؤلاء يتحفزون (فعلاً) للإغارة على السرح فهاجمهم (بطريقة مباغتة لم يتوقعوها) ففروا هاربين في الجبال ، وأعجزوا (بهرتهم) أبا عبيدة ورجاله إلا أنه تمكن من أسر رجل واحد منهم ، كما استولى رجاله على بعض الإبل التابعة لهم وغنموا بعض أمتعتهم التي تركوها عندما هربوا .

وقد عاد أبو عبيدة بـرجاله إلى المدينة ومعه الأسير والغنائم أما الأسير فأسلم ، فأطلق النبي ﷺ سراحه ، وقسم النبي ﷺ الغنيمة بين الأربعين فارس بعد أن خمسها كالمتباع أى أخذ خمسها للمصالح العامة .

(١) السرح (يفتح السين مع التشديد) وسكون الراء ، كناية عن الإبل التي تنفش في المراعى لترعى .

حملة الجموم (١) .. ربيع الآخر سنة خمس من الهجرة .

كانت بنو سليم من أهل الجموم (وادى فاطمة) قد أعانوا أبا سفيان في حربه ضد المسلمين في معركة (الأحزاب) فاشتراك معهم حوالى سبعمائة مقاتل ، وافوه في مر الظهران (وادى فاطمة) وهو في طريقه إلى المدينة .

وكان الأعراب الذين اشتركوا في غزوة الأحزاب (ومنهم بنو سليم) قد أصبحوا بعملهم ذاك أعداء محاربين للنبي ﷺ .

لذلك من البدهي ، (وخاصة بعد اندحارهم في معركتهم الخاسرة) أن يلقي عليهم النبي ﷺ دروساً تأديبية بنقل المعركة إلى ديارهم حتى وإن بعدت ، مثل ديار بنى سليم القريبة من مكة ليرسخ في أذهان هؤلاء الأعراب المشركين أن المسلمين أصبحوا سادة الموقف في الجزيرة ، وأنهم قادرون على نقل المعركة إلى أى مكان يريدون من أرض أعدائهم .

ومن ذلك أن النبي ﷺ بعث إلى ديار بنى سليم بسرية بقيادة (زيد بن حارثة) للإغارة عليهم وإرهابهم في الجموم (٢) .

(١) الجموم (بفتح أوله وضم ثانيه) منزل من منازل بنى سليم ، قال ابن بلهيد في (صحيح الأخبار) : الجموم : عين جارية عليها زروع وغروس وهى في الظهران الذى يقال له اليوم (وادى فاطمة) .

(٢) انظر السيرة الحلبية ج ٢ ص ٩٩ ، وقد اسمى الموضع بالجموح ، ويظهر أنه تصحيف .

وقد أغار عليهم زيد بن حارثة ، وفي طريقه وجد امرأة من مزينة يقال لها : (حليمة) فدلّتهم على محلة من محال بنى سليم ، فأغاروا عليهم وأوقعوا بهم ، ففر من (سليم) من قدر على الفرار ، ووقع الباقيون أسرى في يد رجال السرية .

كما استولى رجال زيد بن حارثة على مجموعة من الإبل والغنم فقفّلوا راجعين إلى المدينة ومعهم المرأة (حليمة المزنية) وزوجها أسيرين غير أنهم لما وصلوا المدينة وأخبروا النبي ﷺ الخبر ، وهب للمرأة الزينية نفسها ووهب لها زوجها مكافأة لها على إرشادها لرجال السرية ، فأطلق سراحهما (١) .

— ٨ —

حملة البصر (٢) .. جمادى الأولى سنة خمس من الهجرة

كان سبب هذه الحملة أنه بلغ النبي ﷺ أن عبداً لقريش قد أقبلت من الشام عائدة بالبضائع إلى مكة .

ولم يكن بين النبي ﷺ وبين قريش في تلك الفترة أى صلح أو معاهدة ، وإنما كانوا في حالة حرب ، والجو بين الفريقين على غاية من التوتر .. لاسيما المسلمون الذين لم ينسوا بعد ذلك الغزو الظالم الغاشم المخيف الذى تعرضت له المدينة حيث فرض عليها أبو سفيان

(١) طبقات ابن سعد ج ٢ ص ٨٦ .

(٢) البصر (بكسر أوله) موضع على ساحل البحر الأحمر ، يقع شمال غربى المدينة ، تمر به القوافل الآتية من الشام لمكة ، ويبعد عن المدينة مسافة أربع ليال بسير القوافل :

الحصار الخائق وكان يقود عشرة آلاف مقاتل ، قرر أن يقتحم بهم المدينة ويبعد كل من فيها من المسلمين .. لم ينس المسلمون هذا الغزو المخيف الذى لم يمر عليه أكثر من ستة أشهر .. والذى لو قدر له النجاح لكان المسلمون فى خبر كان .

لذلك كان من البدهى أن يتحين المسلمون الفرص للإيقاع بمشركى مكة الذين سعوا ذلك السعى الخطير لتدميرهم وإبادتهم .

ولهذا فإنه عندما تبلغ النبى القائد ﷺ من جهاز استخباراته العسكرية أن قافلة للعدو عائدة من الشام إلى مكة وأنها قد وطئت التراب الحجازى ، جهز كتيبة من الفرسان قوامها مائة وسبعون فارساً ، وأعطى قيادتهم لمولاه (زيد بن حارثة) . وكلفهم بالتعرض لهذه القافلة والاستيلاء عليها كجزء من أموال عدو محارب .

وقد تحرك زيد بن حارثة بكتيبته من المدينة حتى وصل منطقة العيص .. وهناك التقى بقافلة قريش ، فاستولى رجاله على هذه القافلة وأخذوا جميع الذين يقودونها أسرى .. ولم يذكر أحد من المؤرخين أن قادة القافلة قد أبدوا أى شىء من المقاومة إذ لم يشر أحد إلى أنه جرى أى قتال عند استيلاء المسلمين على هذه القافلة التى كانت فيها (يومئذ) كمية كبيرة من الفضة عائدة للتاجر القرشى الكبير المعروف (صفوان ابن أمية) ^(١) .

وقد عاد زيد بن حارثة بالقافلة وبالأسرى القرشيين إلى المدينة .

(١) انظر ترجمته فى كتابنا غزوة بدر الكبرى .

ابنة النبي وزوجها الأسير :

وكان أبو العاص بن الربيع بن أمية بن عبد شمس ^(١) (زوج زينب ابنة النبي ﷺ من بين الأسرى الذين وقعوا ضمن رجال القافلة في أيدي فرسان كتيبة (زيد بن حارثة) .

ويقول المؤرخون : إن أبا العاص بن الربيع عندما وصل (ضمن الأسرى) إلى المدينة استجار بزوجه زينب .. إذ نادى في الناس في المسجد حين صلى الرسول ﷺ الفجر : (إني قد أجرت أبا العاص) فقال النبي ﷺ : هل سمعتم ما سمعت ؟ (يعنى إعلان زينب أنها قد أجارت أبا العاص) ؟ قالوا : نعم .

قال ﷺ : أما والذي نفسى بيده ما علمت شيئاً من هذا ، ثم أجاز ما فعلت زينب قائلاً : (وقد أجرنا من أجرت) .

رد الأموال وإطلاق الأسرى :

ويدل سياق المؤرخين وأهل الحديث ، على أن أبا العاص بن الربيع كان قائد هذه العير التى استولت عليها سرية (زيد بن حارثة) بدليل أن زينب لما أجارت زوجها (وكان على شركة) دخلت على النبي ﷺ ، وسألته أن يرد على أبى العاص ما أخذت سرية زيد منه من العير ، أجابها إلى ذلك ولكنه استدعى زيد ابن حارثة ورجال سريته لأخذ موافقتهم (قبل كل شيء) حيث قال ﷺ لهم :

(١) انظر ترجمته في كتابنا غزوة بدر الكبرى :

وإن هذا الرجل (يعني أبا العاص) منّا حيث قد علمتم ، وقد أصبتم له مالاً فإن تحسنوا وتردوا عليه الذي له فإننا نحب ذلك .. وإن أبيتم فهو (أي ما أخذتم منه) في الله الذي أفاء عليكم فأنتم أحق به .

فأجابوا جميعاً بالموافقة قائلين : يا رسول الله بل نرد عليه فردوا عليه كل ما أخذوا منه بما في ذلك الأموال التي ائتمنه عليها كفار مكة لشراء البضائع لهم من الشام والتي جاءت تحملها العير التي وقعت بأكملها في قبضة سرية زيد بن حارثة .. كما وافقوا على إطلاق سراح جميع أسرى العير .

وجاء في السيرة الحلبية : أن بعض المسلمين قالوا لأبي العاص (بعد أن رد رجال السرية إليه العير وما تحمل من أموال كفار مكة) : يا أبا العاص إنك في شرف من قريش وأنت ابن عم رسول الله ﷺ - أي لأنه يلتقي مع النبي ﷺ في جده عبد مناف - فهل لك أن تسلم فتغنم ما معك من أموال أهل مكة (لأنهم كفار مشركون) .

فقال : يشما أمرتموني .. أفتتح ديني بفدريه كلاً والله .

ثم إنه (بعد أن أصر الإسلام) ذهب بالعير إلى أهل مكة فأعطى كل ذي حق حقه .. ثم قام فقال : يا أهل مكة ، هل بقي لأحد منكم مال لم يأخذه ؟ .. هل وفيت ذمتي ؟ .

فقالوا : اللهم نعم فجزاك الله خيراً .. فقد وجدناك وفياً كريماً .

وهنا (وعلى ملائمتهم) أعلن إسلامه قائلاً : إني أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله ، والله ما منعني عن الإسلام عنده (أي في المدينة) إلا خشية أن تظنوا أنني إنما أردت أن آكل أموالكم ، ثم

غادر مكة وقدم إلى المدينة ، فرد عليه النبي ﷺ زينب بالنكاح الأول^(١) .

- ٩ -

حملة الطرف (٢) - جمادى الآخرة سنة خمس من الهجرة

وهي دورية عسكرية قام بها زيد بن حارثة^(٣) ومعه خمسة عشر رجلا إلى ديار بني ثعلبة وهم بطن من غطفان الذين شاركوا في الهجوم على المدينة في غزوة الأحزاب .

وقد وصلت دورية زيد بن حارثة منطقة (الطرف) التي بها منازل بني ثعلبة هؤلاء والتي تبعد عن المدينة ستة وثلاثين ميلا .

غير أن رجال دورية زيد بن حارثة لم يلاقوا أي صدام مع بني ثعلبة ، لأن هؤلاء الأعراب كانوا قد هربوا من ديارهم إلى رؤوس الجبال بمجرد علمهم بتحريك هذه الدورية المسلحة نحو ديارهم .

وقد استولى زيد بن حارثة ورجال دوريته الصغيرة على عشرين بعيراً من أباعر هذه القبيلة فأخذتها الدورية غنيمة وعادت بها إلى المدينة بعد غيبة قصيرة لم تزد على أربع ليال .

ويظهر أن الهدف من إرسال هذه الدورية المسلحة هو إرهاب الأعراب

(١) مغازي الواقدي ج ٢ ص ٥٥٤ .

(٢) الطرف . (بضم أوله وفتح ثانيه) ماء لغطفان على بعد ستة وثلاثين ميلا من المدينة ، قاله الواقدي ، انظر صحيح الأخبار لابن بليهد ج ٥ ص ٢٣٧ .

(٣) زيد بن حارثة .. انظر ترجمته في كتابنا (غزوة بدر الكبرى) .

الوثنيين وإشغالهم وترويعهم وجعلهم في حالة خوف دائم لا يستطيعون معه التفكير في القيام بغزو المدينة كما كانوا يفعلون في السابق .

وفعلاً حققت هذه الدورية أهدافها إذ (على قلة عدد رجالها) فرت من أمامها قبيلة بأكملها يقدر عدد رجالها بعدة مئات قد تتعدى الألف .. وبث الدوريات العسكرية المستمرة هو من سياسة النبي القائد الناجحة ، حيث كانت دورياته العسكرية التي تسمى (في عرف المؤرخين القدامى) بالسرايا تجوس باستمرار خلال ديار القبائل الوثنية المعادية حتى رست قواعد الإسلام وشمخ بناء دولته في السماء عالياً .

- ١٠ -

حملة حسمى (١) - جمادى الآخرة سنة خمس من الهجرة

وهي حملة عسكرية تآديبية قام بها إلى منطقة (حسمى) خلف وادي القرى .. زيد بن حارثة لتأديب قبيلة جذام (٢) الواقعة ديارها قرب تلك المنطقة .

(١) حسمى (بالكسر ثم السكون مقصور) قال ياقوت : أرض بيادية الشام بينهما وبين وادي القرى ليلتان .. وقال ابن السكيت : حسمى لجذام جبال وأرض بين ليلة (ليلات) وجانب تيه بنى إسرائيل الذي يلي ليلة ، وبين أرض بنى عذرة من ظهر حرة تهما ، فذلك كله (حسمى) وهذا يعني أن (حسمى) تقع على خليج العقبة حتى تخوم (سبأ) ، وقال ياقوت : وأهل تبوك يرون جبل (حسمى) في غربيهم :: وفي أخبار المتنبى قال : حسمى أرض طيبة تودى لبن النخلة من لينها مملوءة جبالات في كبد السماء متناوحة ملس الجوانب ، إذا أراد الناظر إلى قلة أحدها قتل عنقه حتى يراها بشدة ، مالا يقدر أحد أن يراه ولا يصعده ، ولا يكاد القتام يفارقها ولهذا قال النابغة :

فأصبح عاقلاً بجبال حسمى دقاق الترب محترماً القمام

(٢) جذام (بضم أوله) قبيلة قحطانية عظيمة وهي من كهلان ، كانوا من العناصر

اليمنية التي هاجرت من مأرب بعد انهدام السد :

وسبب هذه الحملة العسكرية الشاذبية أن النبي ﷺ كان في تلك السنة قد أرسل دحية بن خليفة الكلبي ^(١) برسالة إلى الملك قيصر يدعوها فيها إلى الإسلام .

فأكرم الملك قيصر دحية الكلبي وكساه وأجازه .. ففعل دحية من الشام عائداً إلى المدينة ، إلا أنه لما وصل إلى منطقة (حسمى) على الحدود الشمالية الغربية لجزيرة العرب هاجمه الهنيد (بضم الهاء) ابن عارض وابنه عارض في أناس من جذام فقطعوا عليه الطريق فسلموه كل ما معه ، ولم يتركوا عليه إلا ثوباً رثاً خلقاً .

غير أن نفرأ من بني الضبيب (من قبيلة جذام نفسها ممن أسلموا) لما بلغهم ما فعل الهنيد وابنه برسول الله ﷺ دحية الكلبي نفروا إليها واستعادوا منها ومن معها (بالقوة) كل ما أخذوه من دحية الكلبي وأعادوه إليه .

فواصل دحية سيره حتى وصل المدينة ، وهنا أخبر النبي ﷺ بما فعل به الهنيد بن عارض وعصابته من قطاع الطرق .

فقرر النبي ﷺ إرسال حملة عسكرية كبيرة قوامها (خمسمائة

(١) هو دحية (بكسر أوله وسكون ثانيه) بن خليفة بن فروة الكلبي ، صحابي مشهور كانت أول مشاهدته مع رسول الله صلى الله عليه وسلم الخندق ، وكان جميل الصورة يضرب بجماله المثل ، وكان (على ما ذكره أهل الحديث) ينزل جبريل على صورته بالوحى ، وكان من ذوى الرأى والشجاعة ، وكان رسول النبي صلى الله عليه وسلم إلى هرقل ملك الروم ، شهد دحية معركة اليرموك وكان قائد أحد الكتائب فيها ، عاش حتى خلافة معاوية وسكن المزة قرب دمشق .

رجل) لتجوس خلال ديار المعتدين على دحية الكلبي وتغير عليهم لتؤديهم وتجعلهم عبدة لمن اعتبر .

وقد أعطى النبي ﷺ قيادة هذه الحملة التأديبية لمولاه (زيد ابن حارثة) فتحرك زيد برجال هذه الحملة نحو الشمال (ومعهم دحية الكلبي نفسه) .

ولكى لا يعلم الأعداء بخبر هذه الحملة صار القائد (زيد) يسير الليل ويكنم النهار ، وكان دليله من بني عُلَيرة ^(١) .

وما زال زيد يسير بحملته حتى باغت القوم وأغار عليهم مع (عمابة الصبح) وأحاط رجال حملته بهم من كل جانب فقتلوا منهم عدداً غير قليل من بينهم (الهنيد وابنه عارض) .

ثم استولى زيد ورجاله على ماشية قوم الهنيد) ونعمهم ونسائهم وصبيانهم .

فأدخلوا من النعم ألف بعير ومن الشاة خمسة آلاف شاة ، ومن السبي مائة من النساء والصبيان .

احتجاج بني الضبيب لدى القائد زيد :

ولما سمع بنو الضبيب (وهم مسلمون من جُذام نفسها) لما سمعوا بما

(١) عُلَيرة (بضم أوله وسكون ثانيه) قبيلة عظيمة من قضاة القحطانيين ومن عُلَيرة تنفرح بأفخاذ كثيرة ، وهم بنو عُلَيرة بن سعد بن هليم بن زيد بن ليث بن سود ابن أسلم بن الحافي بن قضاة ، وبنو عُلَيرة هؤلاء هم المشهورون بشدة العشق ، قال مرة يعقود بن عتبة لأعرابي منهم وهو لا يعرفه : بمن الرجل ؟ قال : من قوم إذا عشقوا ماتوا قال : علوى ورب الكعبة . فسأل الأعرابي ولماذا ؟ فقال : في نسائنا صباحة وفي رجالنا عفة .

صنع زيد ورجاله بقومهم من جُذَام جاء أحد زعمائهم إلى قائد الحملة زيد محتجاً بأنهم مسلمون وأنهم (أى بنى الضبيب) هم الذين استرجعوا (عَنوة) من الهنيد وجماعته كل ما سلبوا من دحية الكلبي وأعادوه إليه ، فطلب زيد من هذا الزعيم أن يقرأ الفاتحة ليتأكدون من إسلامه فقرأها .. ولكن يظهر أن قائد الحملة زيد قرر أن لا يعيد إلى القوم ما غنم منهم وما أسر من رجالهم ونسائهم وصبيانهم ، فواصل سيره بالسبي والغنائم نحو المدينة جنوباً .

زيد بن رفاعه يحتج لدى الرسول صلى الله عليه وسلم :

غير أن أحد زعماء قبيلة (جُذَام) وهو (زيد بن رفاعه الجذامى) أسرع في نفر من قومه إلى المدينة لمقابلة رسول الله ﷺ .

ولدى مقابلته ﷺ احتج على ما فعل زيد بن حارثة في غارته على مناطق (حسمى) قائلاً :

يا رسول الله لا تحرم علينا حلالاً ، ولا تحل لنا حراماً ، ثم دفع إليه ﷺ كتابه الذى كان قد كتبه له ولقومه ليأبى قدومه عليهم عندما أسلموا .

الأمر بإعادة الغنائم والسبي :

وهنا قرر سيد من أوفى بالعهد على وجه الأرض ﷺ .. قرر ﷺ أن يعيد إلى سادات (جذام) الوافدين عليه المحتجين لديه .. قرر أن يعيد إليهم كل ما غنمته ومنبته حملته العسكرية التى قادها ابن حارثة .

ولم يكتف بهذا ﷺ بل بحث (مع وفد جذام) موضوع القتلى منهم الذي صرعوا بسيوف رجال حملة زيد بن حارثة قائلاً : (كيف أصنع بالقتلى ؟؟) .

فقال له أحد سادات جذام المشكّل منهم الوفد وهو (أبو زيد بن عمرو) : أطلق لنا يا رسول الله من كان حياً ، ومن قُتل فهو تحت قدمي هاتين .

فقال رسول الله ﷺ : صدق أبو زيد .

ثم استدعى ﷺ علي بن أبي طالب ، وأمره بأن يكون مبعوثه الخاص إلى قائد الحملة زيد بن حارثة ليبلغه أمره ﷺ بأن يرد على القوم كل ما أخذ منهم في غارته من أموال وسبايا وأسرى ، وكانت شيئاً عظيماً كما تقدم .

فقال علي : يا رسول الله إن زيدا لا يطيعني . فقال ﷺ : خذ سيفي هذا (أي كعلامة) .

فانطلق علي ومعه زيد بن رفاعه وباقي أعضاء الوفد الجذامي نحو الشمال ، ليبلغ القائد زيدا أمر رسول الله ﷺ ، فلقى (وهو في طريقه) رافع بن مكيث الجهني^(١) على ناقة من إبل القوم ، أرسله القائد زيد بشيراً بالنصر ، فأخذ الناقة منه وردّها على القوم وأردف البشير خلفه ثم واصل سيره حتى لقي القائد زيدا وحملته العسكرية ومعهم تلك

(١) هو رافع بن مكيث (بفتح أوله وكسر ثانيه) الجهني ، قال ابن حجر في الإصابة شهد بيعة الرضوان ، وكان يوم فتح مكة يحمل لواء جبهة استعمله النبي صلى الله عليه وسلم على صدقات قومه ، شهد الجابية في الشام مع الخليفة عمر .

الغنائم العظيمة في منطقة الفحلتين مكان بين المدينة وذى المروة (١) ،
 وهناك أبلغه أمر رسول الله ﷺ بأن يرد على القوم كل ما أخذ منهم ،
 وروى أن القائد زيد قال لعلى : ما علامة ذلك ؟؟ فقال : هذا سيفه
 ﷺ فعرف زيد سيف رسول الله ﷺ ، فصاح برجال الحملة
 فاجتمعوا فأمرهم بأن يردوا على القوم كل ما أخذوا منهم قائلاً : هذا
 سيف رسول الله ﷺ ، فأطاع الناس الأمر فردوا على القوم كل ما
 ما أخذوا منهم من غنائم وسبايا وأطلقوا سراح الأسرى الذين لم يعرف
 عددهم .

- ١١ -

حملة وادى القرى .. رجب سنة خمس من الهجرة :

وهي دورية عسكرية أعطيت قيادتها لزيد بن حارثة ولم أر
 فيما بين يدي من مصادر التاريخ أن هذه الدورية قامت بأى عمل
 عسكرى ، ولم أر أحداً من المؤرخين ذكر القوم الذين وجهت إليهم
 هذه السرية .. وكل ما اطلعت عليه هو أن ابن سعد قال في طبقاته
 الكبرى قال : - بعد انتهائه من سرد حوادث حملة (حسمى الكبيرة) :
 ثم سرية زيد بن حارثة إلى وادى القرى في رجب سنة ست من مهاجر
 رسول الله ﷺ . قالوا : بعث رسول الله ﷺ زيدا أميراً سنة ست هـ
 إلا أن الإمام ابن سعد ذكر في طبقاته (كما سيأتى) أن زيد بن
 حارثة قام بحملة عسكرية كبيرة إلى بنى فزارة في وادى القرى (٢) في
 شهر رمضان من هذه السنة . والله أعلم .

(١) ذوالمروة : قرية بوادى القرى :

(٢) ولما لهذا الوادى من أهمية كبرى عبر التاريخ قبل الإسلام وبعده ، لا بد من أن -

حملة دومة الجندل (١) .. شعبان سنة خمس من الهجرة :

وهي حملة عسكرية كبرى قادها عبد الرحمن بن عوف الزهري

= نعطي القارئ الكريم لمحة عنه .. قال ياقوت في معجمه : قال أبو المنذر : سمي وادي القرى (بضم القاف وفتح الراء) لأن الوادي من أوله إلى آخره قرى منظومة ، وكانت من أعمال البلاد وآثار القرى إلى الآن بها ظاهرة إلا أنها في وقتنا هذا كلها خراب .. مياها جارية ، تتدفق ضائعة لا يتتبع بها أحد ، قال أبو عبيد الله السكوني : وادي القرى والحجر والجناب منازل قضاعة ثم جهينة وعلرة وبلى ، وهي بين الشام والمدينة يمر بها حاج الشام ، وهي كانت قديماً منازل ثمود وبها أهلكهم الله وآثارها إلى الآن باقية ، ونزلها بعدهم اليهود واستخرجوا كظائنها وأساحوا عيونها وغرسوا نخلها ، فلما نزلت بهم القبائل عقدوا بينهم حلفاً وكان لهم فيها على اليهود طعمة وأكل في كل عام ومنعها لهم على العرب ودفعوا عنها قبائل قضاعة ، وروى أن معاوية بن أبي سفيان مر بوادي القرى قتل قوله تعالى : أتتركون فيها ههنا آمنين في جنات وعيون وزروع ونخل الآية .. ثم قال : هذه الآية نزلت في أهل هذه البلدة وهي بلاد ثمود فأين العيون ؟ فقال له رجل : صدق الله في قوله ، أحب أن أستخرج العيون ؟ فقال : نعم ، فاستخرج ثمانين عيناً فقال معاوية : الله أصدق من معاوية ، وكان النعمان بن الحارث الغساني ملك الشام أراد غزو وادي القرى فحضره نابعة بني ذبيان ذلك بقوله في آيات منها :

تجنب بني حن فلان لقاءهم كربه وإن لم تلق إلا بصابر
هوا قتلوا الطائي بالحجر عنوة أبا جابر واستنكحوا أم جابر
وهم ضربوا أنف الفزاري بعدما أتاها بمعقود من الأمر قاهر
أنطمع في وادي القرى وجنابه وقد منعوا منه جميع المعاشر
ويظهر أن وادي القرى ازدهرت في العصر الإسلامي مزارعه وبساتينه حتى صار الشراء به يتفننون ومن ذلك قول جميل بثينة :

ألا ليت شعري هل آيتن ليلة بوادي القرى إلى إذن لسعيد
(٢) دومة الجندل (بضم أو فتح أوله وسكون ثانيه) موضع مشهور في التاريخ ، وهي راحة كثيرة المياه والزروع ، قال في معجم البلدان : تقع في غائط من الأرض وبها عين تتج فتنس ما بها من الزروع والنخل ، وحصنها مارد وسميت دومة الجندل لأن =

إلى ديار بني كلب^(١) بدومة الجندل ، وكانت هذه الحملة تتألف من سبعمائة مقاتل (هكذا جاء في مغازي الواقدي ج ٢ ص ٥٦٠).

وكانت دومة الجندل تقع في الشمال الغربي للجزيرة العربية قريباً من حدود العراق ، وكان بها ملك اسمه (الأصبغ بن عمرو الكلبي) وكان وقومه على النصرانية .

وذكر المؤرخون أن النبي ﷺ عندما عقد لعبد الرحمن بن عوف لواء الإمارة على هذه الحملة الكبيرة عممه بعمامة سوداء بيده الكريمة ورخى بين كتفيه منها قدر أربع أصابع ثم قال : هكذا يا ابن عوف فاعم فإنه أحسن وأعرف .

وكما هي عادة النبي ﷺ في توجيه وصاياه الإنسانية النبيلة إلى قادة جيوشه وجهه إلى قائد هذه الحملة وصية قال فيها : « أغز بسم

= حصنها مبنى بالجندل ، وهو الصخر العظيم الصلب وكانت في الجاهلية مملكة يحكمها ملوك كندة القحطانيين ، وكان آخر ملوكها أكيدر بن عبد الملك السكوني الكندي ، وكان على دين النصرانية وهو الذي وجه النبي صلى الله عليه وسلم إليه القائد خالد بن الوليد عندما كان في تبوك غازياً سنة تسع من الهجرة ، فأسر خالد الملك (أكيدر) وقتل أخاه حسان وفتح دومة الجندل وكانت ذات أسوار عالية ، وقد أسلم أكيدر إلا أنه نقض الصلح بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم فأجلاه عمر إلى العراق ، هكذا قال ياقوت في معجمه ، إلا أنه استدرك فقال : وأهل كتب الفتوح مجمعون على أن خالد بن الوليد غزا دومة الجندل مرة أخرى ، أيام أبي بكر جاءها من العراق (وكانت دومة الجندل قريباً من الحدود العراقية) في أقصى شمال الجزيرة ، وقد قتل خالد (أكيدر) سنة ١٢ هـ : لأنه ارتد ونقض العهد :

(١) هذا السياق يدل أن بدومة الجندل إمارات متعددة منها : إمارة الأصبغ بن عمرو الكلبي ، ولكن سياق المؤرخين يدل على أن أعظم أمراء أو ملوك دومة الجندل هم من كندة الذين آخروهم (أكيدر الذي ذكر ناقصته آنفاً) .

الله وفي سبيل الله ، فقاتل من كفر بالله ، لا تغل ولا تغدر ولا تقتل وليدأ
(أى صبيأ) فهذا عهد الله وسنة نبيكم ^(١) .

بعد ذلك تحرك عبد الرحمن بن عوف بسيرته الكبيرة ، ومازال
سائراً نحو الشمال (يكمن النهار ويسير الليل) حتى وصل إلى دومة
الجنديل .

ولما كان القوم يدينون بالنصرانية ، لم يهاجم عبد الرحمن بن
عوف بغتة كما هي الحال في غزو الأعراب الوثنيين .

بل دعاهم إلى الإسلام وظل يدعوهم ويفاوضهم ثلاثة أيام وهم
يأبون ويقولون لا نعطي إلا السيف أو تعود من حيث أتيت .

إلا أنه في اليوم الثالث استجاب ملكهم (الأصمغ بن عمرو الكلبي) ^(٢)
فأسلم وتبعه على الإسلام خلق كثير من قومه وكلهم كانوا نصارى .
وهكذا حققت هذه الحملة الكبيرة أغراضها ، وكفى الله المؤمنين
شر القتال .. أما من بقى من أهل دومة الجنديل على النصرانية (وكلهم
عرب) فقد تركهم القائد عبد الرحمن بن عوف وشأنهم أحرار في
دينهم على أن يؤدوا الجزية للدولة الإسلامية كاعتراف بسلطانها ومقابل
حمايتها لهم فقبلوا .

(١) انظر طبقات ابن سعد الكبرى ج ٢ ص ٨٩ والسيرة الحلبية ج ٣ ص ٣٠٤
ومغازي الواقدي ج ٢ ص ٥٦٠ تحقيق مارسدن جونز جامعة أكسفورد .

(٢) اسم كلب يطلق على عدة قبائل عربية ولكن الكلبيين أصحاب دومة الجنديل
هؤلاء هم بطن من قضاة من القحطانية وهم بنو كلب بن وبرة ، وهم قبيلة عظيمة تمتد
ديارهم حتى تبوك وأطراف الشام ، وفي الفتوح الإسلامية كان لقبائل كلب شأن عظيم
في نصرة الإسلام ، وكانوا عماد جند الشام في عهد معاوية ، وكانت مدينة تدمر وسلمية
والعاصمية هي منازل كلب ، وكان الخليفة معاوية قد أصهر إليهم إذ تزوج منهم ،
وكان منهم جبل عظيم يسكن الدهناء شرق جزيرة العرب .

وقد تزوج القائد عبد الرحمن بن عوف ابنة ملك دومة الجندل واسمها (تماضر بنت الأصبح) وأحضرها معه إلى المدينة فولدت له ابنة (سلمة بن عبد الرحمن) .

وقفة فقهية :

وذكر المؤرخون أن عبد الرحمن بن عوف توفي وتماضر الكلبية لما نزل في عنتها من طلاقه فورثها فيه الخليفة عثمان ، وهذا صار سنداً فقهياً قوياً للدين يقولون يقدم صحة الطلاق في المرض الذي يموت فيه المطلق وهو مذهب المالكية .

- ١٣ -

حملة إرهاب بني سعد (١) بفدك .. (٢)
شعبان سنة ست من الهجرة .

هي دورية عسكرية كبيرة قام بها علي بن أبي طالب لبث الرعب في قلوب قبائل بني سعد بن بكر بفدك ، وكان عدد رجال هذه الدورية مائة فارس ، أعطى النبي ﷺ قيادتهم لعلي ابن أبي طالب ، وأمره بأن يغير علي بن سعد بعد أن تلقى ﷺ من استخباراته أن بني سعد قد

(١) اسم سعد يطلق على عدة قبائل منهم العدنانية والقحطانية ، وأما هؤلاء فهم (علي ما يظهر) بنو سعد بن ثعلبة ، بطن من ذبيان ثم من غطفان العدنانية :

(٢) فدك (بفتح أوله وثانية) قرية زراعية من أرباض خيبر ، وكانت حاضرتها من اليهود حيث كانوا بها زراعاً لأنها كانت مثل خيبر ذات مياه وتربة خصبة ، أما أما باديئها فكلهم من العرب من بني سعد ، وهؤلاء هم الذين غزاهم علي بن أبي طالب :

قرروا أن يساندوا يهود خيبر ويمنّوهم بالرجال مقابل أن يعطى اليهود هذه القبيلة جزءاً كبيراً من نمر خيبر^(١).

وهذا يدل على أن اليهود كانوا يستعدون (منذ زمن طويل) للغزو المنتظر الذي قام به النبي ﷺ أخيراً لخيبر ، فأخضعها وأنهى الوجود اليهودي فيها ، كما يأتى تفصيله إن شاء الله فى كتابنا السادس .

وقد تحرك على بن أبى طالب بدوريته المسلحة ، واستمر فى تحركه ستة أيام يكمن فيها ليلاً ويسير نهاراً .

وفى اليوم السابع ، وصل على بدوريته مشارف (فلك) وهناك وجد رجلاً (لم يذكر المؤرخون اسمه) فسأله عن العدو من بنى سعد ، فخاف الرجل ، فطمأنه قائد الدورية (على) بأنهم لا يريدون به شراً ، فاستوثق لنفسه قائلاً : أخبركم عن مكان القوم على أنكم تؤمنونى ، فأعطوه الأمان ، فأرشدهم إلى الوادى الذى تتجمع فيه بنو سعد

فأغار عليهم الإمام على برجال دوريته ، وكان على رأس العدو (وبن بن عليم) ولم يبد بنو سعد (بالرغم من كثرة عددهم) أية مقاومة . بل كان همهم النجاة بأنفسهم ، ففروا ومعهم النساء والأطفال فقط ، وتركوا مواشيهم ، فاستولى عليها رجال دورية على بن أبى طالب . وكانت خمسمائة بغير وألفى شاة ، قسمها القائد على رجال دوريته كما تقسم الغنائم بعد أن عزل الخمس منها ليوضع تحت تصرف النبي ورئيس الدولة ليندخروها لنواب المسلمين كما هو المتبع .. ثم عاد على بدوريته إلى المدينة دون أن يلقى كيداً .

(١) مغازى الواقدي ج ٢ ص ٤٦٢ .

حملة تأديب بني فزارة (١) .. رمضان .. سنة ست من الهجرة

قبيلة فزارة (بفتح أوله وثانيه) تعتبر من أعظم القبائل النجدية وأكثرها عدداً في العهد النبوي ، وكان السيد الذي يرجع إليه أمرها هو عيينة بن حصن الفزاري الملقب (بالأحمق المطاع) ، فقد ذكر المؤرخون أن عشرة آلاف رمح من هذه القبيلة تتحرك (مطبعة) أينما تحرك هذا الأحمق .

وكانت بنو فزارة من أشد الناس عداوة للمسلمين وأكثرهم تحرشاً بهم لقرب منازلهم من منطقة المدينة ، وكانت بعض فخائد هذه القبيلة تنزل وادي القرى الواقع بين المدينة وخيبر .

وكان رجال هذه القبيلة الوثنية طالما شنوا اعتداءات متكررة على المسلمين ، وكثيراً ما يستأجرهم اليهود لمحاربة المسلمين .

وقد عرفنا كيف أغار عبد الرحمن بن عيينة بن حصن على المسلمين في الغاية بضواحي المدينة فاستاق إبلهم بعد أن قتل من قتل منهم سنة خمس من الهجرة كما تقدم تفصيله في غزوة الغابة) .

(١) فزارة (بفتح أوله وثانيه) قبيلة عدنانية عظيمة ، وهي جناح رئيسي في غطفان العظيمة ، وفزارة هو ابن ذبيان بن بغيض بن ريث بن غطفان ، وكان قائد فزارة في الجاهلية وحيداً عيينة بن حصن الملقب بالأحمق المطاع ، لأنه كانت تتبعه عشرة آلاف قناة يوجه أصحابها إلى أي حرب فيطيعون دون أن يسألوه عن السبب أو المبرر ، وتقع ديار فزارة في الجاهلية وعند ظهور الإسلام في نجد ، وعقب انتشار العرب خارج الجزيرة من الفتح الإسلامي تفرقت قبائل فترلوا مصر وبرقة وطرابلس والمغرب الأقصى (لتنظر معجم قبائل العرب ، لعمر كحالة) .

ولهذا كان من الطبيعي أن يتحيز المسلمون الفرص لضرب هذه القبيلة وإرهابها وكسر شوكتها بنقل المعركة إلى ديارها وضربها في منازلها ومسارحها .

لا سيما وأن المسلمين يتهيثون لخوض معركة فاصلة مع اليهود في خيبر التي تقع هؤلاء منازل الفزاريين بينها وبين المدينة . الأمر الذي يحتم على القيادة العليا في المدينة القيام بعمل عسكري حاسم تكون به خطوط المسلمين في مأمن عندما يقومون بالزحف على مدينة خيبر والذي قاموا به (بالفعل) في أوائل السنة السادسة من الهجرة .

الصدِّيق القائد :

وجهز الرسول القائد ﷺ لتأديب (فخيذة بنى بدر من قبيلة فزارة) حملة عسكرية قوية اختلف المؤرخون في القائد الذي أسندت إليه قيادة هذه الحملة الكبيرة .

فابن سعد يذكر في طبقاته الكبرى أن قيادة هذه الحملة أعطيت لزيد بن حارثة .. بينما يذكر الإمام مسلم في صحيحه (عن سلمة بن الأكوع) : أن قائد هذه الحملة هو أبو بكر الصديق .

وعلى كل .. فإن الروایتين ليس بينهما اختلاف في التفاصيل . ونحن نرجح رواية الإمام مسلم لأنه (وصحيح البخاري) أصح الكتب وأصدقها بعد كتاب الله تعالى .

تحرك القائد الصديق من المدينة على رأس قوة كبيرة من المهاجرين والأنصار (لم أر أحداً من المؤرخين ذكر عدد أفرادها) وكان تحرُّكه في

شهر رمضان من السنة السادسة للهجرة على ما حققه ابن حزم والسابعة على ما ذكره غيره من المؤرخين .

نجاح الحملة :

وقد حققت حملة الصديق العسكرية التأديبية أهدافها .. فقد بثَّ الله الرعب في نفوس بني بدر (من فزارة) .

إذ لم يكادوا يشعرون بوصول أبي بكر الصديق برجاله حتى عمَّهم الذعر والخوف فلم يبدوا أية مقاومة ، بل أخذوا في الفرار أشتاتاً . إلا أن المسلمين حالوا بينهم وبين ذلك فقتلوا عدداً منهم وأسروا عدداً آخر بمن فيهم (أم قرفة) فاطمة بنت ربيعة بن بدر وابنتها جارية بنت مالك بن حذيفة بن بدر . وهي من أجمل بنات العرب .

أما (أم قرفة) فكانت امرأة شيطانة ، وكانت (برزة مسترجلة) وفي شرفٍ من قومها تحتل بينهم مكان القائد والزعيم .

وكان يعلّق في بيتها خمسون سيفاً كل هذه السيوف لها محرم .. وكان لها إثنا عشر ولداً كلهم يحمل السلاح .

ومن ثم كانت العرب : تضرب بها المثل في العزة .

فتقول : لو كنت أعز من أم قرفة .

تحاول اغتيال النبي :

وقد كانت هذه الشيطانة (أم قرفة) على أشد ما تكون من البغض للنبي ﷺ ، لذا صممت على اغتياله داخل المدينة .

فجهزت ثلاثين فارساً من ولدها وولد ولدها وأمرتهم بالذهاب إلى المدينة لكي يقوموا باغتيال الرسول ﷺ إلا أنهم لم يتمكنوا من ذلك^(١)

ويظهر أن (أم قرفة) هذه كانت القائد الفعلي لقومها من بني بدر.. يدل على ذلك أن بعض المؤرخين أسى هذه الحملة التي أسرت فيها قرفة وابنتها (بسرية أم قرفة)^(٢).

أما كيف حققت الحملة أهدافها فقد ذكر المؤرخون أن رجال الحملة المسلمين شنوا الغارة على بني بدر في عمية الصبح ، بعد أن فرغوا من أداء فريضة الصلاة .

قال سلمة بن الأكوع (كما في صحيح مسلم) : بعث رسول الله ﷺ أبا بكر الصديق إلى فزارة ، وخرجت معه حتى إذا صلينا الصبح أمرنا فشنينا الغارة ، فوردنا الماء ، فقتل أبو بكر من قتل ، ورأيت طائفة (منهم الذراري) فخشيت أن يسبقوني إلى الجبل فأدركتهم ورميت بسهم بينهم وبين الجبل ، فلما رأوا السهم وقفوا ، وفيهم امرأة هي (أم قرفة) عليها قشع من آدم .. معها ابنتها من أحسن العرب ، فحجث بهم أسوقهم إلى أبي بكر فنفلني أبو بكر ابنتها فلم أكشف لها ثوباً .

وقد جاء في مسلم (كما نقله ابن برهان الدين) أن النبي ﷺ لما عاد سلمة بن الأكوع طلب منه أن يهب له تلك الفتاة الجميلة (جارية بنت مالك بن حذيفة بن بدر) قائلاً : يا سلمة : هب لي المرأة لله أبوك

(١) انظر السيرة الحلبية ج ٢ ص ٣٠٣ .

(٢) انظر طبقات ابن سعد ج ٢ ص ٩٠ ومغازي الواقدي ج ٢ ص ٥٦٥ .

فقلت : هي لك يا رسول الله ، فبعث ﷺ بهذه الفتاة إلى مكة ففدى بها أسرى من المسلمين هناك .

وقفة تأمل وتدبر :

ولعل في هذا التصرف النبيل من قبل النبي الأعظم ﷺ أكبر دليل على دحض مزاعم أعداء الله ورسوله من المستشرقين وفروخهم في الشرق الإسلامي الذين ينكرون على الرسول الأعظم ﷺ تزوجه بتسع نساء ، ويدعون أن ذلك منه بدافع الرغبة الجنسية .. والميل الشديد إلى اقتناء النساء .

فلو كان كما يزعمون (قبحهم الله) لاحتفظ لنفسه بهذه الفتاة الفزارية التي وهبها له سلمة بن الأكوع ، والتي هي (بإجماع المؤرخين) من أجمل بنات العرب .. ولكننا نراه ﷺ يبعث بها إلى مكة ليفتدي بها أسرى من أصحابه .. الأمر الذي يؤكد بطلان مزاعم أعداء الله الآنفة الذكر .

وقد كان من بين القتلى المشركين في هذه الحملة : النعمان وعبيد الله أبناء مسعدة بن حكمة بن مالك بن بدر .

وذكر ابن سعد في طبقاته الكبرى : (الذي ذكر أن قائد الحملة هو زيد بن حارثة) ذكر أن القائد زيدا قتل أم قرفة (الشيطانة) . أمر بأن تربط رجلها بحبل بين جملين ثم زجرهما كل منهما في اتجاه معاكس فذهبا حتى قطعاها .

أما رواية الإمام مسلم (وهي المرجحة والأصح) فلم يذكر فيها قتل أم قرفة والله أعلم .

وقال ابن برهان الدين في السيرة الحلبية : أما ابنها قرفة . الذى
تُكنى به فقد قتله النبي ﷺ : كما أن بقية أولادها قتلوا مع أهل
الردة في نجد ، فلا خير فيها ولا فى بنيتها .

والذى يجدر ذكره هنا أن إحدى بنات أم قرفة هذه واسمها
(سلمى) كانت قد قادت تمرداً كبيراً ضد جيش خالد بن الوليد الذى
بعثه الصديق لإخضاع المرتدين .. قادت سلمى (وهى شيطانة مثل أمها)
هذا التمرد فى منطقة ظفر بنجد فتبعته جموع غفيرة من فلال المرتدين
الذين انهزموا فى معركة بزاحة الشهيرة . وقد قُتلت سلمى هذه فى
المعركة بعد أن عانت منها جيوش خالد ومن أتباعها الأهوال حيث
اشتبكوا معها فى قتال مرير ليس بأقل ضراوة من القتال الذى نشب بين
جيوش خالد وجيوش المرتد طليحة بن خويلد الأسدى ^(١) فى بُزَاحَة .

(١) انظر ترجمة طليحة بن خويلد فى كتابنا (غزوة الأحزاب) .

سرية كرز القهري (١) .. إلى العرينين ..

شوال ، سنة ست من الهجرة

ففي هذا الشهر قدم نفر من عرينة (٢) ثمانية على رسول الله ﷺ ،
فأسلموا ، إلا أنهم استوبأوا المدينة . وأصيبوا ببعض الأمراض .

فأمر الرسول ﷺ بنقلهم إلى منطقة (الجدر) ناحية قباء وعلى
بعد ستة أميال من المدينة بالقرب من جبل عير للاستشفاء حيث ترعى
لقاحه (٣) في المنطقة الجيدة الهواء .

فمكثوا فيها مدة يتمتعون بالهواء النقي ويشربون من لبن لقاح
النبي ﷺ حتى صحوا وسمنوا . وهنا فعلوا فعل اللثيم الغادر الخائن
المنكر للجميل .

(١) هو كرز بن جابر بن حسل بن لب ب القهري المرتضى ، كان من سادات
المشركين وقادتهم المحاربين قبل أن يسلم ، وهو الذي أغار بقوات قريش على ضواحي
المدينة فطارده النبي صلى الله عليه وسلم في الجاهلية حتى منطقة سفوان ولم يتمكن من
اللاحاق به ، أسلم (كرز) فحسن إسلامه ، وكان قائد إحدى الكتائب في فرقة خالد بن
الوليد التي دخل بها مكة عام الفتح ، وكان (كرز) أحد اثنين من الصحابة استشهدا في
فرقة خالد عند افتتاح مكة وكان الرجل الشهيد الثاني حبيش بن الأشعر الخزاعي .
(٢) عرينة : موضع ببلاد فزارة بنجد قاله ياقوت ، ويظهر أن هؤلاء العرينين
هم من فزارة .

(٣) اللقاح : الإبل من الإناثي تتخذ خاصة لإنتاج اللبن ، وكان اللبن عند العرب
من الأغذية الرئيسية للكبار والصغار وكان النبي صلى الله عليه وسلم يقضي مجموعة من
اللقاح لتغذية الوجود وغيرهم ممن يرد على المدينة من الغرباء والمساكين والمضعفاء .

فقد عَدَّوْا على اللقاح التي غذاهم لبنها وأسمنهم فاستاقوها وحاولوا الهرب بها إلى ديارهم ، فأدركهم يسار^(١) مولى رسول الله ﷺ ، لاسترجاع اللقاح منهم (ومعه نفر قليل) فقاتلهم فتغلبوا عليه وعلى رجاله حتى قتلوه ، وقطعوا يده ورجله ، وغرزوا الشوك في لسانه وعينه .

ولما بلغ النبي ﷺ نبأ هذا الحادث الفظيع انتخب عشرين فارساً من أصحابه وأسند قيادتهم لكرز بن جابر الفهري ، وأمرهم بمطاردة العربيين وإلقاء القبض عليهم ، فأدركوهم ، ثم ألقوا عليهم القبض بعد أن أحاطوا بهم ، ثم ربطوهم وأردفوهم على الخيل حتى قدموا بهم المدينة .

وكان النبي ﷺ موجوداً بالغابة فخرجوا بهم إليه لاتخاذ ما يراه من إجراء ضدهم ، فالتقوا به ﷺ بالزغابة (مجمع الأسيال) في ضواحي المدينة .

وبعد أن أُجْرِى التحقيق معهم ثبتت إدانتهم ، فأصدر النبي ﷺ حكماً صارماً ضدهم ليكونوا عبرة لغيرهم .. إذ أمر بهم فقطعت أيديهم وأرجلهم وسمل أعينهم^(٢) ثم أمر بهم فصلبوا هناك .

ويقول ابن سعد : وفي ذلك أنزل الله تعالى : ﴿ إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً ﴾ الآية ..

فلم يسمل النبي ﷺ بعد ذلك عيناً .

(١) هو يسار الثوبى مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن حديث سلمة ابن الأكوع أخرجه الطبراني . قال : كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم غلام يقال له يسار فنظر إليه يحسن الصلاة فأعتته ، وبعته في لقاح له بالحرّة ، وذكر قصة مقتله (انظر الإصابة ج ٣ ص ٦٢٨) .

(٢) سمل عينه : قنأها .

سرية زيد بن حارثة إلى مدين؟؟

ولم أر فيما بين يدي من مصادر تاريخ هذه الحملة .. ولكن الغالب على الظن أنها حدثت في السنة الخامسة من الهجرة .. بدليل أن ذكرها في السيرة الحلبية جاء قبل ذكر حملة علي بن أبي طالب التي قام بها إلى فداء لتأديب بني سعد في شعبان سنة خمس من الهجرة .

قاد هذه السرية زيد بن حارثة إلى مدين وهي قرية نبي الله شعيب عليه السلام وهي تجاه تبوك (على ما ذكره صاحب السيرة الحلبية) .

ولم أطلع في شيء من المصادر ، على من جردت هذه الحملة . وكل ما في الأمر أن ابن برهان الدين ذكر في السيرة الحلبية أن زيدا ظفر بالقوم وأصاب سبباً ، ففرقوا في بيعهم بين الأمهات والأولاد ، فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم يبيكون ، فقال : ما لهم ؟ .

فأخبر أنه فرق بين الأمهات والأولاد في البيع . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا نبيعوهم إلا جميعاً . فصار ذلك النهي تشريعاً حرم العلماء توجبه التفريق بين الأم وأى من أولادها في البيع ، واعتبر الإمام الشافعي البيع باطلاً إذا كان فيه تفريق بين الأم وأحد أولادها ^(١) .

(١) انظر بحثنا المستفيض عن الرق الحربي في الإسلام ، في كتابنا (غزوة بني قريظة) ففيه فندنا التهم الباطلة التي ألصقها أعداء الإسلام بهذا الدين لإباحته الرق الحربي .

بعث عمرو بن أمية الضمري .. لقتل أبي سفيان بمكة ..

شوال من السنة السادسة

وفي شوال وقبل الحديبية بحوالى شهر واحد بعث رسول الله ﷺ الفاتك القداتي المشهور (عمرو بن أمية الضمري) وسلمة بن أسلم ، إلى أبي سفيان بن حرب الذي كان قائداً عاماً لجيوش المشركين في مكة . وأمرهما ﷺ أن يقتلاه أينما وجداه .

محاولة اغتيال الرسول صلى الله عليه وسلم :

والسبب في الأمر بقتل أبي سفيان هو أنه استأجر رجلاً من الأعراب وأمره بالذهاب لاغتيال النبي ﷺ . وفعلًا ذهب الأعرابي حتى وصل المدينة وحاول اغتيال الرسول ﷺ ، إلا أن الله كشف أمره . فالتقى عليه القبض قبل الشروع في جريمته ولدى إجراء التحقيق معه اعترف بكل شيء فعفى عنه النبي ﷺ ثم أسلم بعد ذلك

وخلاصة القصة أن أبا سفيان بن حرب جرى بينه وبين بعض القرشيين حديث حول تزايد قوة المسلمين وما أنزلوا بالمشركين من هزائم . فقال أبو سفيان : ألا أحد يقتل محمداً فإنه يمشى في الأسواق ؟ .

فأتاه رجل من الأعراب (وقد بلغه ما قال أبو سفيان) فقال له : قد وجدت أجنع الرجال قلباً وأشدهم بطشاً وأسرعهم عدواً (يعني نفسه)

فإن أنت مويتنى (وفى رواية فديتنى) : خرجت إليه حتى أغتاله فإن
معى خنجرأ كخافية النسر فأسوره ثم آخذه فى غير ، وأسبق القوم
عدوا . فإنى هاد بالطريق خريت .

فاغتبط أبو سفيان قائلاً للأعرابى : أنت صاحبنا .. ثم أعطاه
بغيرأ ونفقة كافية ، وطلب منه أن يكتم أمره قائلاً : أطو أمرك .

فخرج من مكة ليلاً ، وكانت المسافة بين المدينة لا يقطعها الراكب
إلا بعد أحد عشر يوماً ، غير أن الأعرابى المذكور قطع هذه المسافة فى
خمسة فقط ، إذ لم تكن صبيحة اليوم السادسة إلا وهو فى المدينة .

وبمجرد وصوله عقل راحلته ثم أخذ يسأل عن الرسول ﷺ لينفذ
الجريمة فاهتدى إليه بسهولة لأن النبي ﷺ لم يكن له حارس أو
حاجب يحول بين الناس وبين مقابله فى أى وقت .

إن هذا ليريد غدرأ :

وفى مسجد بنى عبد الأشهل كاد الأعرابى المأجور ينفذ جريمة
الاغتيال .. إذ هناك وجد النبي ﷺ جالساً ، فدخل عليه المسجد كأحد
عامة المسلمين .

غير أن النبي ﷺ نفرس فى الأعرابى وأدرك أنه يريد شراً فقال
ﷺ : إن هذا ليريد غدرأ ! ، فأسرع الأعرابى نحو الرسول ﷺ ،
لتنفيذ الجريمة المكاف بتنفيذها .

إلا أن سيد الأوس (أسيد بن الحضير) ^(١) حال دون ذلك ، إذ

(١) أسيد بن حضير (بضم أوله وفتح ثانيه) انظر ترجمته فى كتابنا غزوة الأحزاب .

أمسك بالأعرابي وشده من يديه ، وبعد أن تم القبض عليه ، قام أسيد بن الحضير بتفتيشه فوجد الخنجر مخفياً داخل إزاره .. فأسقط في يديه . وصاح خائفاً (بعد أن اكتشف أمره) دمي : دمي ، فأخذ أسيد بن الحضير بلبثته وكاد يخنقه من الغيظ .

ثم أجرى التحقيق معه في الحال ، وأثناء التحقيق ، قال له النبي ﷺ (وكان كعادته عفواً رحيماً) : أصدقني ما أنت ؟ قال : وأنا آمن ؟ ، قال ﷺ : نعم ، فأخبره بكامل مخطط المؤامرة ، فغفى عنه ﷺ ثم خلى سبيله ، فاعتنق الأعرابي الإسلام بمحض إرادته .

وقد تحدث الأعرابي إلى النبي ﷺ بعد أن أصبح عضواً في الأسرة الإسلامية ، عما اعتراه ساعة شروعه في تنفيذ الاغتيال قائلاً : يا رسول الله ، ما كنت أخاف الرجال ، فلما رأيته ذهب عقلي وضعفت نفسي ، ثم اطلعت على ما هممت به فعلت أنك على الحق ، فجعل رسول الله ﷺ يبتسم

السعي لاغتيال أبي سفيان :

وبعد هذه الحادثة استدعى النبي ﷺ عمرو بن أمية الضمري (وكان فدائياً ممتازاً ومشهوراً في الجاهلية بأنه فاتكاً يخافه الناس) استدعاه ﷺ وكلّفه بأن يذهب إلى مكة لاغتيال أبي سفيان بن حرب . وندب معه سلمة بن أسلم ^(١) (وقيل جبار بن صخر

(١) هو سلمة بن أسلم بن حريش الأوسى الأنصاري ، شهد بدرًا واستشهد في العراق تحت قيادة أبي عبيد الثقفي في معركة الجسر الشهيرة .

الأنصاري^(١)) قائلاً : إن أصبنا منه (أى أبى سفيان) غره فاقنله .
فصدع عمرو بالأمر . وما هي إلا أيام قلائل حتى كان صاحبه
بمكة إلا أنهما لم يتمكنوا من اغتيال أبى سفيان إذ اكتشف أمرهما
بمجرد وصولهما مكة .

قال ابن إسحاق : فخرج عمرو وصاحبه حتى قدما مكة ليلاً . فقال
جبار لعمر : لو أنا طفنا بالبيت وصلينا ركعتين ؟ فقال عمرو : إن
القوم إذا تعشوا جلسوا بأفئدتهم (تعبيراً منه عن خوفه من أن يكتشفهم
قبل أن يقتلوا أبى سفيان) . فقال جبار : كلا إن شاء الله .

قال عمرو : فطفنا بالبيت ، وصلينا ثم خرجنا نريد أبى سفيان ،
فو الله إنا لنمشي بمكة إذ نظر إلى رجل من أهل مكة (قال ابن سعد :
هو معاوية بن أبى سفيان) فقال عمرو بن أمية الضمري : إن قدمها
(أى ما قدمها) إلا لشر ، فقلت لصاحبي النجاء : فخرجنا نشدد حتى
صعدنا في جبل وخرجوا في طلبنا حتى إذا علونا الجبل يشسوا منا .
فرجعنا فدخلنا كهفاً في الجبل فبتنا فيه ، وقد أخذنا حجارة فرضمناها
دوننا .

فلما أصبحنا غدا رجل من قريش يقود فرساً له ويخلى عليها .
فقلت : إن رأنا صاح بنا فأخذنا فقتلنا . قال : ومعى خنجر قد
أعدته لأبى سفيان ، فأخرج إليه فأضربه على ثديه ضربة . وصاح

(١) هو جبار بن صخر بن أمية بن خنساء الأنصاري ، قال موسى بن عقبة في
مغازيه إنه شهد بيعة العقبة ، وكان (بعد عبد الله بن رواحة) يحرص على أهل خيبر ،
وقد روى ابن السكن أن جبار بن صخر قال : سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول
إننا نبينا عن أن نرى عوراتنا ، توفي جبار بن صخر في خلافة عثمان عن ٦٢ عاماً .

صبيحة أسمع أهل مكة ، وأرجع فأدخل مكانى ، وجاءه الناس يشتدون وهو بآخر رمق ، فقالوا : من ضربك ؟ فقال : عمر بن أمية الضمرى ، وغلبه الموت ، فمات مكانه ولم يدلل على مكاننا ، فاحتملوه .
قال عمرو : فلما أمسينا خرجنا ليلاً من مكة نريد المدينة .

أخذ جثة الشهيد خبيب (١) :

قال : ثم مررنا بالحرس وهم يحرسون جيفة خبيب بن عدى فقال الحراس : والله ما رأيت كالليلة أشبه بمشية عمرو بن أمية لولا أنه بالمدينة لقلت هو عمرو بن أمية .

قال عمرو : فلما حاذيت الخشبة ؟ شددت على الخشبة فاحتملتها وخرجت شداً (أى عدواً) وخرج الحراس ورائى فلم يقدرُوا على ، ثم أتيت جرفاً ممهبط مسيل يأجج فرميت بالخشبة فى الجرف فغيب الله عنهم جثة (الشهيد) خبيب فلم يقدرُوا عليه .

قتل جاسوس :

وبينا كان عمرو وصاحبه عائدين إلى المدينة أوريا إلى كهف فوجدا به رجلاً من بنى بكر ثم من بنى الدليل أعور فى غنيمة له فلم يتعرضاً له بسوء ، ولكن الشيخ الأعور رفع عقيرته بعد أن اضطجع وقال :
ولست بمسلم مادمت حياً ولا دان لدين المسلمين

(١) انظر ترجمة خبيب بن عدى فى كتابنا (غزوة الأحزاب) ص ٤٦ .

فغَازَ ذلكَ عمرو فقال في نفسه : ستعْمه ، فأمْهله حتى إذا نام
أَدْخَلَ طرفَ قوسه في عينه الصَّحيحة ثم تحامَل عليها حتى بلغت العظم .
ثم انطلق وصاحبه حتى إذا هبطاً على النقيع (على إيلتين من
المدينة) وجدا رجلين من قريش من المشركين بعثت بهما قريش للتجسس
على المسلمين ، فأنذرهما عمرو وصاحبه بأن يستسلما ، فأبيا ، فرمى
عمرو أحدهما بسهم فقتله ثم تمكن من أسر الثاني ، فأوثقه ثم قدم
به إلى المدينة .

- ١٨ -

مصرع ملك خيبر (أبو رافع) :

رمضان سنة ست من الهجرة

كان سلام بن أبي الحقيق النضري (بعد مصرع طاغية بني النضير
حي بن أخطب) سيد خيبر المطاع ، وكان لا يقل (عن حي بن
أخطب) عداوة للرسول ﷺ .

بالإضافة إلى ذلك كان من كبار مجرمي الحرب الغادرة الظالمة
التي شنها على المسلمين في المدينة (وبتلبيز من يهود خيبر) عشرة آلاف
مقاتل من الأحزاب الوثنية المتحالفة (قريش و غطفان وأشجع وفزارة
وأسلم) .

فقد كان سلام بن أبي الحقيق في مقدمة وفد التحريض اليهودي
الذي غادر خيبر في أواسط السنة الرابعة من الهجرة ليطوف بمصارب
البدو وفي نجد ومواطن القبائل في الحجاز لتحريضهم على غزو
المسلمين وتدميرهم في المدينة .

وعندما تحول المشروع اليهودي من نطاق الفكر إلى حيّز العمل ،
وتحركات (لإبادة المسلمين في المدينة) تلك القوة الضاربة من أعراب
نجد وقبائل قريش .. كان (سلام بن أبي الحقيق) هذا مع حيي بن
أخطب على رأس هذه القوة الضاربة الغازية (١) .

كما أن سلام بن أبي الحقيق التّصرّى هذا كانت له سبغة خطيرة
في الإجماع والتآمر في المدينة قبل إجلاء بني النضير عنها .

فقد كان سلام هذا ، أحد أركان تلك المؤامرة الدنيئة التي كانت
تستهدف حياة النبي الأعظم ﷺ والتي شرع يهود بني النضير في
تنفيذها عندما كان النبي ﷺ موجوداً أعزلاً في ديارهم مع قلة من
أصحابه جاؤوا إلى ديار بني النضير للبحث معهم في القيام ببعض
التزامات تفرضها على اليهود معاهدة الحلف المعقود بين المسلمين وهؤلاء
اليهود (٢) .

ولم يكن العفو الكريم الذي منحه النبي ﷺ يهود بني النضير
والذي شمل في الدرجة الأولى (سلام بن أبي الحقيق) أحد أركان
المؤامرة .. لم يكن العفو الكريم ليغيّر شيئاً من طبيعة هذا اليهودي ..

(١) قال ابن سعد في طبقاته الكبرى ج ٢ ص ٩١ : كان أبو رافع سلام بن أبي
الحقيق قد أجلب في غطفان ومن حوله من مشركي العرب ، وجعل لهم الحفل العظيم
لحرب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الله
ابن عتيك وأربعة آخرون وأمرهم بقتله .

وقال ابن القيم (زاد المعاد ج ٢ ص ٢٩٣) : كان أبو رافع ممن ألب الأحزاب على
رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يقتل مع بني قريظة كما قتل صاحبه حتى ابن أخطب
ورغب الخزرج في قتله مساواة للأوس من قتل كعب بن الأشرف .

(٢) انظر التفاصيل الكاملة لقصة هذه المؤامرة الخطيرة في كتابنا (غرور الأحزاب)

الفصل الأول ص ٥٤ .

طبيعة الأنانية والغلر والخيانة والتآمر والسعى للوصول (على أكتاف الغير) إلى الغرض المنشود بآية وسيلة مهما بلغت من الخسة والوضاعة (طبيعة اليهود في كل زمان ومكان) .

فقد رأينا (كما تقدم) كيف أن (سلام بن أبي الحقيق) بالرغم من تلك المعاملة الكريمة التي عامل بها النبي ﷺ يهود بني النضير .. رأينا كيف أن سلام هذا وعصابته ، لم تكد أقدامهم تطأ مدينة خيبر ، حتى شرعوا في حبك المؤامرة الخطيرة التي كانت ثمرتها تعريض النبي ﷺ وأصحابه لأعظم خطر شهدوه في حياتهم وهو غزوة الأحزاب .. التي رافق قواتها الضاربة سلام بن أبي الحقيق هذا وزميله في التآمر حيي بن أخطب اللذان كانا يحلمان بالعودة إلى المدينة .. أما حيي ابن أخطب فقد لقي مصرعه في المدينة على أثر محاكمة يهود بني قريظة . أما أبو رافع (سلام بن أبي الحقيق) .. فقد تمكن من الإفلات ، فعاد إلى خيبر عقب انفضاض جيوش الأحزاب عن المدينة مهزومة مدحورة .

وقد رأت القيادة الإسلامية العليا في المدينة أن التخلص من هذا اليهودي (سلام بن أبي الحقيق) الذي آلت إليه زعامة اليهود في خيبر بعد حيي بن أخطب .. رأت أن التخلص من هذا اليهودي (كمجرم حرب) أمر لا بد منه .

لأن عداؤه المستحكم للإسلام وحققه العارم المغتالم في نفسه على النبي ﷺ لن يترك له فرصة يستريح فيها من عناء الكيد للإسلام والتأليب على المسلمين لإفنائهم حتى ولو أعطاهم ألف عهد ووقع معهم ألف ميثاق .

فمن المحتمل جداً (بما لدى هذا اليهودى المرابى من ثراء واسع ولما يتمتع به من نفوذ اقتصادى كبير بين قبائل العرب الوثنية المعادية بطبعها للإسلام) أن يقوم مرة أخرى بتأليب هذه القبائل وتحريضها وأن يزيّن لها غزو يثرب من جديد .

فيشعل على المسلمين ناراً أخرى . كما أشعل (بالاشتراك مع حبيّ ابن أخطب) نار حرب الأحزاب التى كاد فيها المسلمون أن يبادوا عن آخرهم .

بل إن حديث المؤرخين يشير إلى أن سلام بن أبى الحقيق هذا لم يكد يصل خيبر (بعد فراره) حتى شرع فى اتصالاته المشبوهة بزعماء القبائل الوثنية وخاصة قبائل غطفان .. وأخذ يحرضها على المسلمين ويهيئها من جديد لشن حرب ثانية ضد المسلمين بقصد إبادتهم . الأمر الذى يجعل المسلمين (حفاظاً على سلامتهم وأمن أراضيهم) أن يفكروا فى التخلص سريعاً من هذا اليهودى العنيد المتآمر الذى لن يترك لهم فرصة يستريحون فيها ما بقى على قيد الحياة . وما قدر على فعل ما يعتقد أن فيه تدميراً (أو إزعاجاً وإقلاقاً وترويعاً على الأقل) لهم .

لأن من طبيعة اليهود عدم التردد فى ارتكاب فعل الشر ما وجدوا السبيل إلى فعله ، وما دام أن فعله يخدم غرضاً من أغراضهم الخبيثة أو يحقق هدفاً من أهدافهم الشريرة .

لذلك رأت القيادة الإسلامية العليا فى المدينة القضاء على هذا الزعيم اليهودى بأسرع ما يمكن باعتباره مصدر خطر جسيم يهدد أمن وسلامة أمة بأكملها هى أمة الإسلام الوليدة فى يثرب .. وباعتباره غادراً

وخائناً متآمرأ ، لن يتورع (لإلحاق الضرر بالمسلمين) عن سلوك أى سبيل .. فى وقت فيه المسلمون أحوج مايكونون إلى الهدوء والاستقرار لمواجهة ما يهددهم من أخطار لا تزال نذُرُها تلمع فى أفق نجد والحجاز ، حيث تتحفز قبائل غطفان (فى انتظار الفرصة) لضرب المسلمين فى المدينة لسلبها ونهبها . ولإعادة الاعتصار الذى فقدته عندما عادت قوتها الضاربة مدحورة تجر أذيال الهزيمة فى غزوة الأحزاب بعد حصار فاشل دام أكثر من أربعة أسابيع .

كما أن قریشاً من جانبها وكل قبائل الحجاز الوثنية تتحين الفرص للإغارة على المسلمين وكسر شوكتهم كأعداء عقائدين للوثنية التى هى دين تلك القبائل التى غضت غضباً شديداً بسبب ظهور دعوة التوحيد التى جاء بها الإسلام لتقام أركانها على أنقاض هذه الوثنية . وبالجماة فقد كانت القيادة الإسلامية العليا فى المدينة (بالرغم من إحساسها إحساساً كاملاً بأنها من الناحية العسكرية أقوى مما كانت عليه قبل معركة الأحزاب) تشعر بأنها لا تزال محاطة بالأخطار من الشمال والشرق والجنوب .

بالإضافة إلى الخطر الداخلى الذى لا يزال الكيان الإسلامى الوليد يعانى منه الشئء الكبير .. وهو خطر المنافقين الذين يتربصون (داخل المجتمع الإسلامى) بالإسلام والمسلمين الدوائر .

ولعل أعظم خطر يخشاه المسلمون فى تلك الفترة هو الخطر اليهودى الحاثم فى خيبر على بعد مسافة لا تزيد على ٧٠ ميلاً من المدينة . وهذا الخطر وإن لم يكن متشكلاً فى قيم هؤلاء اليهود بغزو المدينة . إذ أن ذلك بعيد الاحتمال . حيث أن القيام بالغزو ليس من طبيعة

اليهود (طيلة وجودهم في جزيرة العرب) وإنما من طبيعتهم (كما وصفهم القرآن الكريم) القتال خلف جُدُرِ الحصون والقلاع والمستعمرات المحصنة^(١).

وإنما يتمثل هذا الخطر اليهودي (في الدرجة الأولى) في أن تعاود اليهود طبيعتهم في التحريض على المسلمين والسعي لحشد حشود جديدة هائلة من الأعراب ليقوموا بحرب خاطفة شاملة ضد المسلمين لحساب هؤلاء اليهود تحت تأثير الإغراء بالعطايا الجزيلة والرشاوى الكبيرة.

ولهذا كان لابد للمسلمين من القيام بعمل حاسم يتسم بالترويع والتخويف.. يكون فيه درس رادع لليهود وإنذار عملي بأن هؤلاء اليهود (وخاصة زعماءهم وكبار مجرميهم) لن يكونوا بمنأى عن تأديب المسلمين وإنزالهم العقاب الصارم بهم جزاء تأمرهم حتى ولو كانوا في بروج مشيدة وحصون محصنة.

ولم يكن هذا العمل الجريئ المتسم بطابع المغامرة إلا قتل ملك اليهود وكبيرهم في قصره وعلى فراش نومه.

لأن ذلك يُعطي اليهود فكرة مجسدة عن قدرة المسلمين على المغامرة وعدم مبالاتهم بالموت في سبيل الله.

وفي ذلك إذا ما نجح (دونما شك) تمزيق لأعصاب اليهود وجعلهم يتصورون أن المسلمين معهم أينما كانوا وأنهم قادرون على قتلهم متى شاءوا.. الأمر الذي ينسخ من أذهانهم فكرة السعي مرة أخرى لغزو

(١) جاء في القرآن الكريم إشارة إلى واقع هؤلاء اليهود: (لا يقاتلونكم جميعاً إلا في قرى محصنة أو من وراء جدر) الحشر: ١٤.

المسلمين في المدينة .. ويجعلهم (فقط) يحصرون منهم واهتمامهم في التحصن وحماية أنفسهم من هؤلاء المسلمين .

وهل هناك قوم يخيفون أكثر من الذين يتمكنون من قتل أكبر إنسان في قومه وهو في علياء حصنه وعلى فراشه بالسيف .. بالرغم من كثرة الأبواب الموصدة دونه والأحراس المقيمة عليه .

ذلك بعض ماهدف إليه الفدائيون الخمسة الذين اتجهوا من المدينة إلى خيبر خصيصاً لقتل سيدها اليهودي وكبير مجرميها وزعيم متآمرها على الإسلام والمسلمين (سلام بن أبي الحقيق الملقب بأبي رافع) .

فالتيام بهذه المغامرة الخطيرة (وبعد استشارة النبي ﷺ) تحرّك من المدينة المنورة ناحية خيبر خمسة من الفدائيين الأنصار وكلهم من الخزرج .

وهؤلاء الخمسة الفدائيون هم :

١- عبد الله بن عتيك .

٢- مسعود بن سنان .

٣- عبد الله بن أنيس .

٤- الحارث بن ربيع أبو قتادة .

٥- خزاعي بن أسود .

وقد أسند النبي ﷺ قيادتهم إلى (عبد الله بن عتيك) لأن من عادة النبي ﷺ أن لا يسند القيام بأى عمل إلى أكثر من اثنين إلا وأمر عليهم أحدهم لتكون روح الانضباط سائدة ولئلا تجد القوضى لها أى منفذ .

وبعد أن تهيأ هؤلاء الفدائيون للتوجه إلى خيبر لإنقاذ مهمتهم الشاقة الخطيرة ، زودهم النبي الأعظم ﷺ بوصاياہ الإنسانية النبيلة المعهودة التي يوصى بمثلها (دائماً) كل من يريد الإكدام على أي عمل حربي .. أوصاهم بأن لا يقتلوا وليداً ولا يعتدوا على امرأة (١) .

وبعد أن تزود هؤلاء الفدائيون الخمسة بتلك الوصايا الإنسانية النبوية السامية التي لا تزال قاعدة يتبعها العالم المتحدين في الحروب العادلة تحرّكوا من المدينة نحو منطقة خيبر .

وكان ذلك في أواخر السنة السادسة للهجرة في شهر رمضان (٢)

الفدائيون في خيبر :

ولم تكن إلا عدة أيام حتى كان الفدائيون الخمسة في مدينة خيبر .

لقد كان دخول العرب إلى منطقة خيبر غير مستنكر لا سيما وأن أهلها (وخاصة أبها رافع المطلوب القضاء عليه) مرابون يقرضون الأعراب فروعاً ربوية تقوم عليها تجارة هؤلاء اليهود في خيبر بل في جميع أنحاء جزيرة العرب .. فالربا صفة تجارية ملازمة لليهود أينما حلّوا .

(١) سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٢٧٤ طبعة الحلبي .

(٢) على ما حققه أبو محمد بن حزم في كتابه (جوامع السيرة) وعلى أساس أن غزوة الأحزاب وقرينة حدثنا في السنة الرابعة من الهجرة كما حققه أبو محمد واعتمدناه في كتابنا (غزوة الأحزاب) ، يرى ابن سعد في طبقاته الكبرى ج ٢ ص ٩١ أن سرية عبد الله بن عتيك سنة ست من الهجرة .

تحقيق الفدائيين بالنهار :

ولقد كان بإمكان عبد الله بن عتيك وفصيلته من الفدائيين أن يتجولوا في مدينة خيبر . بل وأن يدخلوا إلى حصونها ويتحدثوا إلى أهلها بحرية تامة وفي أى وقت أرادوا كما يفعل غيرهم من الأعراب المجاورين لخيبر وغير المجاورين الذين يعرفهم يهود خيبر أو لا يعرفونهم لأن اكتظاظ خيبر دائماً بالأعراب شيء مأوف . لأنها سوقهم الرئيسية التي يتعاون منها حاجاتهم الضرورية من المواد الغذائية كالثمر والبر والشعير والذرة وغير ذلك . إذ أن خيبر تعتبر من أعظم تلك المناطق إنتاجاً للحبوب والتمور . ولذلك يسميها العرب آن ذك . (ريف الحجاز) غير أن الذى حال بين الفدائيين الخمسة وبين التجوال في مدينة خيبر والظهور فيها نهاراً . واضطروهم إلى الاختفاء بالنهار والتحرك بالليل فقط . وتحاشى التحدث إلى أى يهودى أو الاجتماع به . هو أن جميع يهود بنى النضير نساءً ورجالاً والذين أصبحوا من سكان مدينة خيبر يعرفون هؤلاء الفدائيين الخمسة فرداً فرداً ، وحتى أصواتهم سيعرفونهم بها لأنهم منذ خلقوا وهم يعيشون معهم في المدينة . ولم يفر على خروج يهود بنى النضير من المدينة إلى خيبر إلا بضعة عشر شهراً . ولو عرف يهود خيبر هؤلاء الفدائيين لاكتشفوا أمرهم ولألقوا عليهم القبض وقتلوهم في الحال .

لأنهم يعتبرون أنفسهم في حالة حرب مع المسلمين . ولأنهم سيذركون أن هؤلاء الفدائيين (وهم أعداء ألداء اليهود) . إما أن يكونوا جواسيس وإما أن يكرنوا جاءوا لقتل أحد من سادات اليهود .

اللغة العبرية :

غير أن هناك أمراً ساعد قائد فصيلة الفدائيين على تخطي بعض هذه الصعاب الشديدة وهو أنه كان يجيد اللغة العبرية (لغة دينهم) كأهلها .. وكانت هذه اللغة بالنسبة للسواد الأعظم من يهود الجزيرة تعتبر لغة ثانوية إلى جانب اللغة العربية التي يجيدها السواد الأعظم من اليهود أكثر مما يجيدون اللغة العبرية (لغة دينهم) والتي لا يجيدها إلا الأحرار والزعماء والقادة .

ولقد ساعد إمام عبد الله بن عتيك باللغة العبرية على تيسير مهمته ، حيث يَسَّرَ له الاختلاط ببعض يهود خيبر ، ويحتمل أن عن طريق مخاطبتهم باللغة العبرية حصل على أهم المعلومات التي يتوقف تنفيذ خطة قتل (أبي رافع) على الحصول عليها .

الخطة .. والتنفيذ :

بعد الحصول على المعلومات الهامة التي يظهر أن الحصول عليها استغرق عدة أيام . شرع الفدائيون الخمسة في رسم الخطة المقضاء على رأس الغدر والخيانة والتآمر (أبي رافع سلام بن أبين الحقيق) حسب أوامر القيادة العليا في المدينة .

وكانت الخطة تتلخص فيما يلي حسب وصف جبهة المؤرخين :

١- على الفدائيين الخمسة أن يتسللوا ليلاً إلى داخل الحصن بطريقة يتم الإتفاق عليها .

٢- عند نجاحهم في الدخول إلى الحصن عليهم أن يستولوا على

مقاليد أبواب الحصن التي كان قائد الفدائيين قد عرف أين توضع
بعد قفل الأبواب .

٣- بعد ذلك ، عليهم الاختفاء في أماكن الدواب حتى يمضى من
الليل أكثره فيسكن الناس وينام الحراس .. وينصرف من مجلس رافع
سُمّاره الذين يسامرونه من الزعماء كل ليلة .

٤- في النصف الثاني من الليل ، على الفدائيين أن يتحركوا في
غلس الظلام نحو الممرات والدهاليز التي تؤدي إلى غرفة نوم (أبي رافع)
على أن يكون ذلك بحذر شديد وبقطة متناهية .

٥- عند اجتياز كل باب من أبواب دهايز وممرات الحصن عليهم
أن يقفلوا هذه الأبواب من الداخل على أنفسهم ويأخذوا المفاتيح
بأيديهم .

٦- بما أن تحركهم في الممرات نحو غرفة الطاغية سيكون آخر
الليل حيث يكون جميع الحرس قد ناموا ، فإن عليهم أن يقفلوا من
الخارج باب كل غرفة (في حذر) على من فيها من الحرس والخدم ،
ويأخذوا الأقاليد (المفاتيح) معهم بعد القيام بكل هذه العمليات التي
كان تنفيذها يكاد يكون من المستحيلات ، لأنها من الصعوبة بمكان عظيم
في زمن يشعر فيه اليهود بأنهم معرضون لأي خطر من قبل المسلمين الذين
هم معهم في حالة حرب

٧- بعد قيام الفدائيين بهذه العمليات الصعبة التنفيذ .. عليهم
أن يتجهوا بأسلحتهم المخفية داخل ثيابهم نحو غرفة الطاغية (أبي
رافع سلام بن أبي الحقيق) التي عرفها قائد الفدائيين بالتحديد لدى

قيامه بالتحري) ، وذلك لتنفيذ المرحلة الأخيرة من الخطة وهى قتل الطاغية .

٨- اتفقوا على أن يقتحموا غرفة الطاغية وهو على فراش نومه . ولدى اقتحام الغرفة ليس من حق أى من الفدائيين التحدث إلى كائن من كان . إلا قائد الفدائيين (ابن عتيك) فإن من حقه أن يتكلم بما تمليه الضرورة لأنه الوحيد الذى يجيد اللغة العبرية والتي يمكنه عن طريقها التمويه على اليهود . إذا ما اكتشف أمره وأمر فصيلته .

٩- عليهم ألا يهيجوا أحداً من يهود الحصن . وأن لا يقتلوا أحداً إلا فى حالة الدفاع عن النفس لأن ذلك يفسد عليهم خطتهم ولأنهم لم يؤمروا إلا بقتل الطاغية (أبى رافع فقط) .

١٠- وكما هى أوامر النبى ﷺ عليهم أن لا يقتلوا امرأة أبى رافع التى أدخلوا فى حسابهم أثناء وضع الخطة وجودها فى حجرته وقيامها بمدافعتهم أو الصياح . وكل ما يجور لهم فعله فى حالة وجودها تهديدها أو تكليم فمها (عند الفتك بأبى رافع) إذا اقتضت الضرورة ذلك .

هذه هى الخطوط العريضة للخطة التى رسمها الفدائيون الخمسة للتخلص من رأس الغدر والخيانة والتآمر أبى رافع .

لقد رسم الفدائيون هذه الخطة الجريئة .. وعند رسمها لم يفكروا كيف يمكنهم العودة من قمة الحصن الذى ينام فى عليته أبو رافع وكيف يمكنهم المرور بالدھاليز والممرات الطويلة والحجر المنتشرة على جوانبها والتي لن يصلوا إليها إلا وقد وصل خبر اغتيال الطاغية .. إن باقى اليهود

نعم لم يفكروا في العودة ، لأن هدفهم هو تنفيذ أوامر قائدهم الأعلى
النبي ﷺ ، وإذا تم تنفيذ الأمر فلا يهمهم بعد ذلك كيف تجيء
نتائج هذا التنفيذ .

اختلاف المؤرخين :

ومع إجماع المؤرخين وأصحاب الحديث على أن الفدائيين الخمسة
قد نجحوا في القضاء على طاغية يهود خيبر وهو على فراش نومه .. إلا
أنهم اختلفوا في كيفية تنفيذ الخطة .. ومن هو الذي قام (شخصياً)
بالقضاء على أبي رافع .

فأكثر أصحاب المغازي والسير وعلى رأسهم إمامهم (محمد بن
إسحاق) يرون أن الفدائيين الخمسة كلهم اشتركوا (مع قائدهم عبد الله
ابن عتيك) في القضاء على الطاغية اليهودي ، وأن الذي أثبت أبا رافع
وقضى عليه هو (عبد الله بن أنيس)

وكل أصحاب الكتب الستة والسير (ما عدا الإمام البخاري) يتفقون
مع ابن إسحاق في رأيه ، إلا أن الإمام البخاري (مع اتفاه مع أصحاب
الكتب الستة وأصحاب السير في نجاح الفدائيين في مهمتهم) ،
يختلف معهم في أمرين اثنين (فقط) وهما :

١ - أنه روى أن قاتل (أبي رافع) هو قائد الفدائيين عبد الله بن
عتيك ، لا عبد الله بن أنيس .

٢ - لم يذكر أن بقية الفدائيين لم يدخلوا الحصن .

ونحن سنورد رواية ابن إسحاق التي عليها الجمهور ، ثم نورد رواية البخاري ، لأنها بحق أكثر تفصيلاً ، وأدق في السياق عند وصف الحادث .

رواية ابن اسحاق

وخلاصة رواية ابن هشام عن ابن إسحاق هي أن قائد الفدائيين الخمسة لما وصل بهم خيبر دخل بهم دار (أبي رافع) ليلاً ولم يحدثنا كيف دخل هؤلاء الفدائيون .

إلا أنه قال : إنهم لم يدعوا بيتاً في الدار إلا أغلقوه على أهلهم وكان (أبو رافع) في عليّة له لا يصل إليه إلا على عجلة ^(١) منصوبة له إياها ، فأُسندوا فيها ^(٢) حتى قاموا على بابه فاستأذنوا عليه فخرجت إليهم امرأته فقالت : من أنتم ؟

قالوا : ناس من العرب نلتمس الميرة .

قالت : ذاكم صاحبكم فادخلوا عليه .

فلما دخلوا عليه أغلقوا عليهم وعليها الباب تخوفاً أن تكون دونه منجولة ^(٣) تحول بينهم وبينه .

قال أحد الذين روى عنهم ابن إسحاق الحادثة : « غير أن امرأته

(١) العجلة : جذع النخلة ينقر فيه فيجعل كالسلم يصعد عليه .

(٢) أُسندوا : علوا .

(٣) منجولة : مدافعة ونحوها .

صاحت فزهرت بنا^(١) وابتدرزاه وهو على فراشه بأسيافنا فوالله ما يدُلنا
عليه في سواد الليل إلا بياضه كأنه قبطية^(٢) ملقاه .

قال : ولما صاحبت بنا امرأته جعل الرجل منا يرفع سيفه ثم يذكر
نبي رسول الله ﷺ فيكف يده . ولولا ذلك لفرغنا منها بايل ،
أى لقتلناها .

قال : فلما ضربناه بأسيافنا تحامل عليه عبد الله بن أنيس بسيفه
في بطنه حتى أنفذه وهو يقول : (قطنى ، قطنى) أى : حسبى حسبى ،
قال فخرجنا ، وكان عبد الله بن عتيك رجلاً سىء الصبر ، قال : فوق
من الدرجة فوثبت يده وثباً شديداً - ويقال - رجله فيما قال ابن هشام -
وحملناه حتى نأى منهراً^(٤) من عيونهم فندخل فيه .

قال : فأوقدوا النيران واشتدوا في كل وجه يطابوننا . قال : حتى
إذا يئسوا رجعوا إلى صاحبهم فاكتنفوه وهو يقضى بينهم .

قال : فقلنا : كيف لنا بأن نعلم بأن عدو الله قد مات ؟ .

قال : فقال رجل منا : أنا أذهب فأنظر لكم . فانطلق حتى دخل
في الناس . قال فوجدت امرأته ورجال يهود حواه وفي يدها المصباح
تنظر في وجهه وتحديثهم وتقول : أما والله لقد سمعت صوت ابن عتيك ،
ثم أكذبت نغمي وقلت : أننى ابن عتيك بهذه البلاد ؟ .

(١) نوهت بنا : رفعت صوتها تشهر بنا .

(٢) القبطية : بضم القاف وكسرها نوع من الثياب البيض تصنع بمصر في تلك الأيام .

(٣) يعنى وصية الرسول صلى الله عليه وسلم التى أوصى بها الفدائيين ونهاهم عن
قتل النساء والأطفال .

(٤) المنهر : مدخل الماء من خارج الحصن إلى داخله .

ثم أقبلت عليه تنظر في وجهه ، ثم قالت : فاظ^(١) وإله يهود ،
فما سمعت من كلمة كانت ألدَّ إلى نفسي ، ثم احتملنا صاحبنا فقدمنا
على رسول الله ﷺ فأخبرناه بقتل عدو الله ، واختلفنا عنده في قتله ،
كلنا يدعيه ، فقال رسول الله ﷺ : هاتوا أسيافكم ، قال : فجئناه
بها ، فنظر إليها فقال لسيت عبد الله بن أنيس : هذا قتله ، أرى فيه
أثر الطعام .

وفي رواية ابن سعد في الطبقات الكبرى : أن النبي ﷺ لما رأى
الفدائيين عائدتين إلى المدينة قال : أفلحت الوجوه ! فقالوا : أفلح
وجهك يا رسول الله .

رواية البخارى :

أما رواية الإمام البخارى والتي هي أكثر تفصيلاً وتناسقاً فهي
كما يلي :

فقد ذكر في صحيحة في باب قتل أبي رافع^(٢) أن الفدائيين لما
وصلوا إلى خيبر أمرهم قائدهم عبد الله بن عتيك بالبقاء حيث هم كي
ينطلق للقيام بالتحري قاتلاً :

اجلسوا مكانكم ، فإنى منطلق لأنظر (أى أتحرى) قال ابن عتيك :
فتلطفت أن أدخل الحصن ، قال : ففقدوا حماراً لهم فخرجوا بقبس
يطلبونه .. قال فخشيت أن أعرف ، قال : فغطيت رأسي ورجلي كأتى
أقضى حاجة .. ثم نادى صاحب الباب : من أراد أن يدخل فليدخل قبل

(١) فاظ : أى مات .

(٢) صحيح البخارى ج ٥ ص ٢١٠ - ٢١٢ .

أن أغلقه (وفي رواية فهتف به أي بابن عتيك - يا عبد الله) ناداه بذلك كما ينادى الشخص شخصاً لا يعرفه . وهو يظنه من أهل الحصن إن تريد أن تدخل فادخل . فإني أريد أن أغلق الباب .

قال : فدخلت .. فلما دخل الناس أغلق الباب ثم علّق الأغاليق^(١) على وتد . أما أنا فاختبأت في مربوط حمار عند باب الحصن .. وكان أبو رافع يُسمر عنده وكان في علالي له فتعشوا عند أبي رافع وتحدثوا حتى ذهب ساعة من الليل ، ثم رجعوا إلى بيوتهم ، فلما هدأت الأصوات ولا أسمع حركة قمت إلى الأقاليد^(٢) فأخذتها ففتحت الباب .. قال : قلت : إن نذر^(٣) بى القوم انطلقت على مهل .

قال : ثم عمدت إلى أبواب بيوتهم فغلقتها عليهم من ظاهرها وجعلت كلما فتحت باباً أغلقت على من داخل .. قلت : إن القوم نذروا بى لم يخلصوا إلى حتى أقتله^(٤) . فانتهيت إليه فإذا هو في بيت مظلم وسط عياله لا أدرى أين هو من البيت فقلت : يا أبا رافع . قال : من هذا ؟ .

قال : فأهويت نحو الصوت فأضربه ضربة بالسيف وأنا دهش^(٥) فما أغنيت شيئاً (أى لم تصنع به الضربة شيئاً) . وصاح . فخرجت من البيت غير بعيد^(٦) .

(١) الأغاليق : المفاتيح .

(٢) الأقاليد : المفاتيح أيضاً ، وهي لغة عامة مشهورة في حضرموت :

(٣) نذر : يفتح أوله وكسر ثانيه - علم - ..

(٤) انظر كيف لم يصبر حياته بقدر اهتمامه بتنفيذ أمر نبيه صلى الله عليه وسلم :

(٥) دهش : (يفتح أوله وكسر ثانيه) متحير :

(٦) قال ابن برهان الدين في كتاب (السيرة الحلبية) ج ٢ ص ٢٨٦ - وهو ينقل

رواية البخارى هذه - إن امرأة أبى رافع قالت له : هذا صوت عبد الله بن عتيك -

ثم جئت كائن أغيشه . فقلت : (أى بالعبرية) : ما لك ؟ وغيّرت صوتي .

فقال : لأملك الرييل . دخل على رجل فضربنى بالسيف . قال : فعمدت له أيضاً فأضربه أخرى فلم تغن شيئاً . فصاح وقام أهله .. ثم جئت وغيّرت صوتي كهيئة المغيث . فإذا هو مستلق على ظهره فأضع السيف في بطنه . ثم انكفى عليه حتى سمعت صوت العظم (بعد أن أخذ السيف في ظهره) فعرفت أنني قتلته .

قال : فجعلت أفتح الأبواب باباً باباً ثم خرجت دهشاً حتى أتيت السلم أريد أن أنزل . فأسقط منه فاندخلت رجلى فعمصبتها ثم أتيت أصحابي أحجل^(١) فقلت : انطلقوا فبشّروا رسول الله ﷺ فإنى لا أبرح حتى أسمع الناعية .

فلما صاح الديك قام الناعى على السور فقال : أنعى أبا رافع تاجر أهل الحجاز^(٢) . فأدركت أصحابي قبل أن يأتوا النبي ﷺ فبشرته وحلّته . فتنازل لي : ابسط رجلك . فبسطت رجلى فمسحها فكأنها لم أشتكها قط^(٣) . وقد علق الإمام ابن كثير في البداية والنهاية على

= فقال لها زوجها : ثكلتك أمك وأين عبد الله بن عتيك ؟ وهذا يوافق (من حيث الأصل) ما جاء في سيرة ابن هشام وباقي الأمهات . من أن زوجة أبى رافع قد عرفت صوت قائد الفدائيين لأنها نشأت مع زوجها في المدينة . فليس مستغرباً أن تعرف صوت ابن عتيك بالرغم من أنه كان يتحدث (ساعة مخاطبة أبى رافع) باللغة العبرانية (لغة اليهود الدينية) .

(١) حجل : مشى على رجل واحدة .

(٢) منذ القدم تعد خبير ضمن أقاليم الحجاز .

(٣) نقلنا هذا السياق من صحيح البخارى (اختياراً) من روايتين متشابهتين : الأولى رواها البخارى عن يوسف بن موسى ، والثانية عن أحمد بن عثمان .. صحيح البخارى ج ٥ ص ٢١٠ - ٢١٢ طبعة إدارة الطباعة المنيرية بمصر .

روايته البخاري هذه بقوله : (تفرد به البخاري بهذه السياقات من بين أصحاب الكتب الستة) . ثم قال : (أي البخاري) قال الزهري : قال أبي بن كعب : فقدموا على رسول الله ﷺ وهو على المنبر فقال : أفلحت الوجوه . قال : (أي ابن عتيك) : أفلح وجهك يا رسول الله ، قال : أفتكتموه ؟ قالوا : نعم ، قال : ناواني السيف : فسله فقال : أجل ، هذا طعامه في ذباب السيف^(١) .

ليس هناك تناقضاً :

قد يبدو (لأول وهلة) للقارئ ، أن هناك تناقضاً بين رواية البخاري وبين رواية ابن إسحاق وبقية أصحاب الكتب الستة حول سياق قصة الفدائيين الخمسة .

غير أن الناظر بتأمل وتفحص يجد أن لا تناقض بين الروایتين . بل يجدانهما قد اتفقتا حول عناصر القصة الأساسية وأن ما يمكن اعتباره تبايناً بين الروایتين هو تصريح البخاري في روايته بأن قاتل (أبي رافع) هو قائد الفدائيين عبد الله بن عتيك . وقول ابن إسحاق وبقية أصحاب الكتب الستة : أن قاتله هو عبد الله بن أنيس ، لا عبد الله ابن عتيك .

وهذا إشكال يمكن حله بالقول أنه : يمكن أنه حصل التباس من الراوي ، فأمل أن قاتل الطاغية هو عبد الله بن أنيس (كما هو عند ابن إسحاق) بدلاً من اسم عبد الله بن عتيك (كما هو عند البخاري) . لا سيما وأن هناك تشابهاً كبيراً بين الاسمين .

(١) البداية والنهاية ج ٤ ص ١٣٩ .

نقول هذا لأننا نرجح رواية الإمام البخارى لاسيما وأنها جاءت في صحيحه الذى هو أصح كتاب بعد كتاب الله العزيز . وأن أسانيد بقرية الروايات لا تصل إلى سند رواية البخارى من حيث القوة .

أما ما جاء في صحيح البخارى من أن ابن عتيك قال لبقرية رجاله : أبقوا مكانكم حتى أنظر ، فليس فيه ما ينفي اشتراكهم معه في العملية ، إذ يحتمل أنه بعد أن نظر وقام بالاستكشاف رجع وأخذهم معه كقائد مسؤول ، وأنه كان يتحدث بأسان القائد الذى ينسب إليه فعل كل شيء حتى وإن لم يكن هو الذى فعل كل شيء .. كما أن عدم ذكر دور بقرية الفدائيين في رواية البخارى لا ينفي اشتراكهم . إذ يحتمل أن يكونوا ظلوا كالحرس يحمون ظهر قائدهم حتى قام بالقضاء على أبى رافع .. أما قول ابن عتيك (في رواية البخارى) ثم أتيت أصحابى أحجل الخ : فلا ينفي أيضاً اشتراكهم مع قائدهم في العملية إذ لا يستبعد أن يكونوا قد سبقوه فخرجوا قبله وتأخر هو بسبب ما حدث له من كسر في رجله ، ولأن القائد عند الانسحاب عادة يكون آخر من ينسحب . بهذا يتضح أنه لا تناقض ولا تباين يذكر بين الروايتين . كما قد يتسرب إلى بعض الأذهان .

المطاردة :

وبعد أن نجح الفدائيون في القضاء على (سلام بن أبى الحقيق) وعرب يهود خيبر حقيقة الخبر تأكد لهم أن فدائيين من المسلمين هم الذين قضاوا عليه . لاسيما بعد تصريح زوجته أنها سمعت صوت عبد الله ابن عتيك .

وقد وجد اليهود في مطاردة الفدائيين بغية قتلهم أو اعتقالهم فانتشر منهم ثلاثة آلاف يفتشون عن الفدائيين قبل طلوع الفجر ولكن دون جدوى ، فبالرغم من أن اليهود كانوا سريعين جداً في القيام بعمليات التفتيش ، وبالرغم من أن قوات اليهود كانت تقوم بهذا التفتيش ، والفدائيين لما يزالوا داخل خيبر ، إلا أن هذه القوات عجزت عن أن تعثر على واحد منهم .

قال ابن سعد - يصف مطاردة اليهود للفدائيين الخمسة : وصاحت امرأته فتصايح أهل الدار واختبأ القوم في بعض مناهر خيبر.. وخرج الحارث أبو زينب ^(١) في ثلاثة آلاف في آثارهم يطلبونهم بالنيران (أى بالمشاعل في ظلام الليل) فلم يروهم ، فرجعوا ومكث القوم (أى الفدائيون) في مكانهم يومين حتى سكن الطلب ثم خرجوا مقبلين إلى المدينة ^(٢) .

- ١٩ -

مقتل ملك اليهود الثاني في خيبر .. أسيد بن زارم شوال سنة ست للهجرة

وبعد أن لقي ملك خيبر الثاني (أبو رافع) مصرعة على أيدي الفدائيين في شهر رمضان من السنة السادسة للهجرة .. قامت يهود بتنصيب (أسيد بن زارم) ملكاً على خيبر خلفاً لأبى رافع .

(١) الحارث أبو زينب هذا فارس يهودى شجاع مشهور ، كان أحد الفرسان الذين قتلوا مبارزة أمام حصن مرحب . انظر كتابنا السادس (غزوة خيبر) .
(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد ج ٢ ص ٩١ .

فجدُّ أسير ، كسلفه أبى رافع فى مواصلة السعى لشن حملة أحزاب
جديدة على المسلمين فى المدينة .

فلدى تنصيبه جمع سادات اليهود فى خيبر وأبلغهم بأن لديه خطة
لغزو المسلمين ، لم يسبقه إليها أحد من ملوك خيبر .
فقد قال لزعماء اليهود فى خيبر : إني صانع بمحمد ما لم يصنعه
أصحابى .

فقالوا له : وما عسيت أن تصنع ؟
قال : أسير فى غطفان فأجمعهم بنفسى لحزبه .
فوافقوه قائلين : نعم ما رأيت ^(١) .

وفعلًا ، غادر (أسير بن زارم) خيبر لتنفيذ خطته العدوانية ضد
المسلمين ، فذهب إلى مناطق القبائل النجدية (غطفان وغيرها من
القبائل المحيطة بالمدينة) وصار يتنقل بين مضارب البدو . ومخيمات
العشائر الوثنية يحرضها على حرب رسول الله ﷺ ويجمعها لغزو المدينة .
وكان كسلفه (حبي بن أخطب وسلام بن أبى الحقيق) يستخدم
المال لرشوة زعماء العشائر الوثنية ليحشدوا له أكبر عدد ممكن من الرجال
لحرب النبي ﷺ .. تمامًا كما فعل حبي بن أخطب وباقي زعماء خيبر
عندما سعوا بين أعراب نجد وعشائر الحجاز فجمعوا تلك الجيوش
الحرارة التي جاءوا يقودونها فى شهر شوال من السنة الرابعة للهجرة
فأندحروا ذلك الاندحار الشنيع كما هو مفصل فى كتابنا (غزوة الأحزاب)
وهو الكتاب الثالث من سلسلة (معارك الإسلام الفاصلة) .

(١) السيرة الحلبية ج ٢ ص ٣٠٦ ومغازى الواقدي ج ٢ ص ٥٦٦ .

الاستخبارات النبوية في خيبر :

ولم تكن المدينة غافلة عن التحركات المشبوهة التي يقوم بها اليهود في خيبر ضد المسلمين فقد جعلتهم أعمال الخيانة التي قام بها اليهود في غزوة الأحزاب على حذر دائم وتنبيه مستمر لكل حركة أو مسكنة تقوم بها الزعامة اليهودية في منطقة خيبر .

ولذلك فقد تبأغ النبي ﷺ من عيونه على اليهود نبأ المشروع العلواني الذي أخذ أسير بن زارم (مالك خيبر الجديد) في الإعداد لتنفيذه ضد المسلمين .

وكان هذا كافياً لقيام النبي ﷺ بقتل هذا اليهودي المتآمر الخليلي .. إلا أن النبي القائد ﷺ أحب التأكد من هذه الأنباء قبل الإفدام على أى عمل كما هي عادته ﷺ في تحرى الأمور وعدم التسرع في تصديق كل ما يصل إلى أذنه من أخبار .

عبد الله بن رواحة في خيبر :

فاستدعى ثلاثة من أصحابه على رأسهم عبد الله بن رواحة^(١) أمره ﷺ بأن يذهب مع صاحبيه إلى خيبر التحرى عن الذى بلغه من اعتزام (أسير بن زارم) تحشيد الأعراب وقيادتهم لغزو النبي ﷺ ، ومحاربتهم في المدينة .

فصدع عبد الله بن رواحة بالأمر وانطلق مع صاحبيه حتى دخلوا خيبر متنكرين ، وبعد التحرى والبحث وجدوا أن الخبر كان صحيحاً كما بلغ النبي ﷺ .

(١) انظر ترجمته في كتابنا (غزوة بدر الكبرى) .

وهنا رأى النبي ﷺ أنه لابد من القيام بعمل حاسم للدرء خطر هذا اليهودى الشرير ، لئلا تتعرض المدينة لغزوة أحزاب أخرى قد يصعب على المسلمين النجاة من أهوالها .

لذلك استدعى ثلاثين من أصحابه وأعطى قيادتهم لعبد الله بن رواحة ، وأمره بأن يتوجه برجاله إلى خيبر ، وأن يتصل أولاً (بأسير ابن زارم) ويحاول بالطرق السامية إقناعه بالتخلي عن فكرة الحشد ومحاربة المسلمين وأن يجنح للسلم والتفاوض مع النبي ﷺ .

ففي أوائل شهر شوال من تلك السنة تحرك عبد الله بن رواحة في ثلاثين راكباً نحو خيبر وحتى إذا ما وصلوا مشاؤفها بعث الأمير عبد الله ابن رواحة إلى ملكها (أسير) بضم أوله وفتح ثانيه : بأنه يرغب في مفاوضته ويطلب منه الأمان والسماح له ولرجالہ بدخول خيبر قائلاً : (نحن آمنون حتى نعرض عليك ما جئنا له ؟) فوافق (أسير) على طلبهم قائلاً : نعم ، ولى منكم مثل ذلك ، فقالوا : نعم ^(١) .

وبعد أن وثق كل من الفريقين بأمان الآخر ، دخل عبد الله ابن رواحة برجاله مدينة خيبر ولدى اجتماعه بملكها (أسير بن زارم) أبانغه بأنه يحمل إليه رسالة شفوية من النبي ﷺ .

وكانت الرسالة تتضمن دعوة ملك اليهود (أسير) للذهاب إلى المدينة ليقابل النبي ﷺ بنفسه لينتهي حالة الحرب القائمة بين الفريقين على أن يبقية النبي ﷺ أميراً على خيبر .. حيث قال له ابن رواحة : يا أسير إن رسول الله ﷺ بعثنا إليك لتخرج إليه فیسعملك على خيبر ويحسن إليك ^(٢) .

(١) طبقات ابن سعد الكبرى ج ٢ ص ٩٢ .

(٢) أنظر سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٦١٨ والحلبية ج ٢ ص ٣٠٦ .

خروج ملك خيبر إلى المدينة :

ولدى عرض هذه الدعوة على ملك خيبر طلب من المبعوث النبوي إعطاءه مهلة للتشاور مع بقية زعماء خيبر .

ولدى اجتماع (أسير) ببقية الزعماء اليهود أخبرهم بفحوى الدعوة النبوية له إلى المدينة ، وطلب استشارتهم ، فأشاروا عليه بأن لا يعجب هذه الدعوة وأن لا يذهب إلى المدينة قائلين : ما كان محمد ليستعمل رجلاً من بنى إسرائيل .

ولكن (أسيراً) خالفهم في رأيهم وقرر الذهاب إلى المدينة لمقابلة النبي ﷺ كما دعاه قائللاً : بلى لقد ملّ (محمد) الحرب .

ولما كان أسير بن زارم ملكاً ، فلم يعترض باقى زعماء خيبر على قراره ، فخرج فى ثلاثين من خلصاء أصحابه بصحبة عبد الله بن رواحة وقومه .

وقد أردف كل رجل من أصحاب عبد الله بن رواحة رجلاً من أصحاب (أسير بن زارم) وكان سيد خيبر (أسير) رديف عبد الله بن أنيس^(١) وكان أسير بن زارم رجلاً شجاعاً^(٢) .

كيف قتل ملك خيبر :

لقد كان عبد الله بن رواحة وأصحابه أمناء فى أداء رسالة النبي ﷺ إلى ملك خيبر (أسير بن زارم) وصادقين فيما أعطوا من عهد

(١) أنظر ترجمة عبد الله بن أنيس فى كتابنا (غزوة أحد) .

(٢) مغازى الواقدي ج ٢ ص ٥٦٦ .

بالأمان للملك خيبر وأصحابه ، ولم تراودهم أية فكرة عن قتل هؤلاء اليهود أثناء الطريق ، لأن الغدر جريمة كبرى حرّمها الإسلام وخاصة بمن أعطى عهداً وأماناً .

حاولوا الغدر فقتلوا :

غير أن طبيعة الغدر المتأصلة في اليهود جعلت عبد الله بن رواحة وأصحابه يكونون على حذر دائم من غدرهم .

ولهذا جعل كل رجل من أصحاب ابن رواحة رجلاً من أصحاب ابن (زارم) رديفاً خلفه .

وبينما كانوا سائرين في اتجاه المدينة حاول اليهود الغدر بالمسلمين ، فقد أهوى أسير بن زارم بيده إلى سيف عبد الله بن أنيس ليقتله ، إلا أنه كان أسرع منه إذ فطن لذلك ، فانتزع السيف من يده وقتله ، ثم دارت معركة بين بقية الركب تمكن فيها المسلمون من القضاء على ابن زارم وجماعته ما عدا رجلاً واحداً تمكن من الفرار .

الفصل الثاني

- رسوخ جنود الإسلام في جزيرة العرب .
- قوة المسلمين وقدرتها على الصمود والردع .
- النبي يستنفر أصحابه لزيارة الكعبة بعد حرمان دام ست سنوات .
- استجابة المؤمنين للنبي .. وتخاذل المنافقين والأعراب عنه .
- الخطر المحدق بالرحلة .
- النبي يبلغ قريشاً (رسمياً) أن خروجه ليس للحرب وإنما للعمرة .
- قريش تغضب وتقرر صد المسلمين عن البيت بقوة السلاح .
- ثمانية آلاف مقاتل تخرج من مكة لاعتراض المسلمين ومنعهم من دخول الحرم .
- النبي صلى الله عليه وسلم يعلن أسفه لاتخاذ قريش قرارها الغاشم .
- خالد بن الوليد يسد الطريق على المسلمين بفرسانه .
- النبي يغير اتجاه سيره نحو الحديبية لئلا يصطدم بفرسان خالد .
- النبي بعسكر في الحديبية (خارج الحرم) في انتظار فرصة يتحقق فيها السلام .
- إعلان الرسول صلى الله عليه وسلم استعداده لقبول أية خطة تعرضها قريش فيها صون للحرم عن سفك الدم .
- قريش ترفض ثلاثة عروض عرضها النبي وهو في الحديبية .
- أربعة وسطاء يفشلون في حل الأزمة المعقدة .
- الانشقاق الخطير في معسكر قريش .

* سيد الأحابيش ، حليف قريش الأكبر ينتقد موقفها ويهدد بالغاء الحلف إن لم تسمح للمسلمين بزيارة البيت .

* عروة بن مسعود الثقفي يترك معسكر حلفائه القرشيين احتجاجاً على صدمهم المسلمين .

لقد ظل النبي ﷺ يدعو قومه في مكة (بالطرق السلمية) طيلة ثلاث عشرة سنة ، لقى فيها وأصحابه من قريش شتى أنواع المضايقة والإرهاب والتنكيل إلى درجة بلغ فيها الطغيان بقريش إلى تعذيب المستضعفين تعذيباً وحشياً ، فقد البعض منهم أرواحهم تحت وطأته الشديدة ، لا شيء إلا أنهم اختاروا على دين الوثنية دين التوحيد فاتبعوه واتبعوا حامل لواء دعوته .

سبل لقد لجأت قريش في بغيتها وعدوانها حتى بلغ بها العناد والطغيان إلى أن دبّرت مؤامرة دنيئة تستهدف حياة النبي الأعظم ﷺ ، وذلك في أواخر السنة الثالثة عشرة من بدء حمل النبي ﷺ لواء الدعوة إلى التوحيد ، فاتفق ساداتها ونواب عشائرها (بالإجماع) في برلمانهم الوثني بمكة (دار الندوة) على قتل النبي ﷺ إعتقاداً منهم أن دعوة التوحيد التي رسخت جذورها في نفوس المؤمنين بها داخل مكة وخارجها ستموت بموته .

إلا أن الله سبحانه وتعالى نجّى رسوله من شرّ هذه المؤامرة الخطيرة فتمكن (هو وصاحبه الصديق الأكبر) من مغادرة مكة في الليلة التي اتفق فيها المشركون على تنفيذ المؤامرة (١) .

(١) أنظر تفاصيل هذه المؤامرة وقصة الهجرة الشيقة في كتابنا (غزوة بدر الكبرى) الطبعة الرابعة .

كما غادر مكة (قبله وبعده) الأغلبية الساحقة من الأصحاب الذين آمنوا بدعوته واجتمع شمل الجميع هناك في دار الهجرة (المدينة المنورة). وما كانت قريش ترغب في أن يغادر النبي ﷺ مكة إلى المدينة ، بل إنها لتخشى ذلك أشد الخشية ، لذلك قررت في برلمانها قتله ﷺ . لأن وصوله إلى المدينة سالماً معناه بناء أمة جديدة هناك قد يقودها هذا الذي تمكن من الإفلات من سيوف الشرك للإطاحة بالكيان الوثني داخل مكة مقر كرسى كهنوت الوثنية الرئيسي .

ولكن ما حياة قريش ، فقد وقع الذي تخشاه ، حيث وصل النبي ﷺ إلى المدينة سالماً فاستقبل أعظم استقبال عرفته المدينة في تاريخها .

حروب فاشلة :

لم تتم قريش ولم تستكن بعد هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة ، لا سيما بعد أن أصبحت المدينة الحاضرة الأولى لدولة إسلامية انضوى تحت أوائها الأغلبية الساحقة من سكان يثرب . لقد ظلت الرغبة الشريرة المتأججة في نفوس مشركي مكة تضغط عليهم بشكل عنيف (هو أقرب إلى الجنون) ليسيروا في طريق بغيهم وعدوانهم على المسلمين وظلمهم لهم . وأول قرار غاشم ظالم اتخذه برلمان مكة (دار الندوة) هو ذلك القرار الذي أعلنوا فيه أنهم يعتبرون المسلمين أعداء محاربين يجب قتلهم أينما وجدوا .

كما اتخذ المشركون قراراً غاشماً آخر يقضى بمنع المسلمين (دون سائر العرب) من دخول الحرم .

ونتيجة تنفيذ هذا القرار ، ظل المسلمون في المدينة (طيلة ست سنوات) محرومين من دخول الحرم ممنوعين من الطواف بالبيت الذي يتحرقون شوقاً إلى زيارته .

ولم تكتف قريش بذلك ، بل رغبة منها في هدم الإسلام ومحو آثاره من الوجود سلكت كل سبيل تقدر على سلوكه لقتل النبي ﷺ ، وهو في المدينة .. فدبرت عدة مؤامرات لاغتياله ، ولكن هذه المؤامرات كلها فشلت كما هو مفصل في غير هذا المكان من هذا الكتاب ومن كتبنا الأربعة السابقة له ضمن سلسلة (معارك الإسلام الفاصلة) .

الحرب الشاملة :

بل لقد أُلح الحقد الوثني المتأجج في نفوس مشركي مكة .. ألح هذا الحقد العارم عليها المقيام بحروب شاملة وغزوات منظمة لخضد شوكة المسلمين وقطع تيار دعوة التوحيد إلى الأبد .

فقامت بعدة حملات عسكرية قوية ضد المسلمين ، وصلت ببعضها إلى أسوار المدينة (حاضرة الإسلام الأولى) التي كادت تسقط (فعلاً) في أيدي المشركين .

ولعل أعظم هذه الحملات العسكرية العدوانية وأخطرها هي الحملات المشهورة الثلاث :

- ١- حملة بدر الكبرى في السنة الثانية من الهجرة .
- ٢- حملة أحد .. في السنة الثالثة من الهجرة .
- ٣- حملة الأحزاب .. في السنة الرابعة من الهجرة .

غير أن قريشاً (بالرغم من تفوقها الساحق في كل شيء مادي) فشلت في كل حملاتها العسكرية الكبرى الثلاث .

ففي الأولى (وهي حملة بدر الكبرى) أنزل المعسكر الإسلامي (ولأول مرة في التاريخ) أشنع هزيمة تمرغت فيها سمعة قريش العسكرية في الوحل حينما جاءت (باغية ظالمة معتدية) تقصد خضد شوكة المسلمين.. فتمتل في هذه المعركة سبعون من ساداتها وقاداتها ، ووقع في أسر المسلمين سبعون مثلام وفرّ الباقيون منهزمين شتنتهم الهزيمة في وهاد ووديان تهامة كما تشتت العاصفة الورق اليابس .

أما الحملة العسكرية الثانية وهي (غزوة أحد) التي نقلت بها قريش المعركة إلى ضواحي حاضرة الإسلام (المدينة) ، فقد فشل القائمون بها في تحقيق شيء من أهدافهم الرئيسية التي من أجل تحقيقها شتوا هذا العدوان ، بالرغم من الإعداد الكامل والتحضير المنظم الذي سبق هذه الحملة التاريخية .

فقد عادت قريش من هذه المعركة وكل مكسبها سبعون قتيلاً من المسلمين استشهدوا في هذه المعركة مقابل ستة وعشرين قتلوا من الجانب القرشي .

أما الحملة الثالثة وهي غزوة الأحزاب (والتي تعتبر أعظم غزو يتعرض له المسلمون في تاريخهم أثناء العهد النبوي) ، فقد كانت آخر سهم في كنانة آمال قريش ، يتحطم على صخرة المقاومة الإسلامية الصلبة .

إذ كانت هذه الحملة العظيمة آخر حملة عسكرية تشنها قريش على المسلمين في تاريخها ، فقد اندحرت وأحلافها النجديون في هذه

الحملة اندحاراً مهيناً فاضحاً ، بعد حصار دام على المدينة شهراً كاملاً .
إذ عادت قريش وأحلافها من هذه الغزوة دون أن يحققوا أى شئ من
الأهداف التى حشدوا لها تلك الحشود الهائلة ، اللهم إلا إيقاع يهود
بنى قريظة وتعريضهم للإبادة على أيدي المسلمين بعد أن أغواهم قادة
الأحزاب بالغدر بالمسلمين ونقض العهد الذى بينهم^(١) .

رسوخ جلور الإسلام :

لقد كانت قريش تهدف من وراء تجريد تلك الحملات العسكرية
الكبرى (وخاصة حملة الأحزاب) محو كيان المسلمين واقتلاع جذور
الإسلام نهائياً .

ولكن العكس هو الذى حدث (وخاصة بعد اندحار قريش وأحلافها
فى غزوة الأحزاب) .

فبعد هذا الاندحار الشنيع الذى انكسر به العمود الفقرى الآمال
القرشية العريضة ، ازدادت قواعد الدولة الإسلامية صلابة وقوة ،
وأخذ الإسلام يضرب بجذوره وينشر ظلاله فى الجزيرة بسرعة هائلة
وبشكل لم يسبق له مثيل .

وأصبح المسلمون (بعد فشل الأحزاب فى غزوهم وبعد إنزال الضربة
الصاعقة بخونة يهود بنى قريظة) قوة ضاربة يخشاها كل أعداء الإسلام
ولا تخشى أحداً ، وخاصة العناصر العربية الوثنية .

(١) أنظر أوسع التفاصيل عن هذه الحملات العسكرية التاريخية الثلاث فى كتبنا
(غزوة بدر الكبرى) و (غزوة أحد) و (غزوة الأحزاب) و (غزوة بنى قريظة) .

يهود خيبر فقط :

والقوة الوحيدة التي ظل المسلمون يحسبون لها حساباً هي قوة اليهود الموجودين في منطقة خيبر ، الواقعة إلى الشمال الشرق من المدينة ، وعلى بعد حوالي ثمانين ميلاً منها .

فقد كان في خيبر حوالي عشرة آلاف مقاتل من اليهود يتربصون بالمسلمين الدوائر ويحاولون بكل الوسائل (وفي جهد مضني الإطاحة بهم) إلا أن المسلمين (قبل الحديبية) ألقوا عليهم دروساً أشعرتهم بأن المسلمين أصبحوا قوة لا تقهر ، وخاصة بعد أن تمكن الفدائيون من هؤلاء المسلمين من قتل مالكيين من ملوك خيبر الواحد بعد الآخر ، داخل منطقة خيبر نفسها ، وهما : (أبو رافع سلام بن أبي الحقيق) ، (وأسير ابن زارم) . وقد تقدم تفصيل الطريقة التي بها تم القضاء على هذين المالكيين الذين يتمكن الفدائيين المسلمين من القضاء عليهما انهارت معنويات اليهود وانخفضت نسبة اعتزازهم بأنفسهم واعتدادهم بقوتهم التي هي بالفعل قوة ضاربة إذا ما قورنت بقوة المسلمين من ناحية العدد ، حيث أن قوة المسلمين في المدينة لا تزيد على ألفي مقاتل على أكثر تقدير .. بينما قوة اليهود في خيبر هي لا تقل عن عشرة آلاف مقاتل على أقل تقدير .

ومع ذلك فقد خالط الخوف نفوسهم واستولى الرعب على قلوبهم بعد مصرع ملكيهم على أيدي الفدائيين داخل خيبر ، وتلاشت من أذهانهم فكرة غزو المدينة التي كانت تراود أحلامهم .. وأصبحوا فقط محضوراً همهم في الدفاع عن أنفسهم داخل حصونهم ومعاقلم التي لم يعد لديهم أدنى شك في أن المسلمين سيشتنون الغارة لاحتلالها وإنهاء الوجود اليهودي عند موأاة الظروف وتنبؤ القرص .

الخروج للعمرة :

ويظهر أن المسلمين أدركوا ما عليه اليهود من خوف ورعب منهم ، وأنهم أصبحوا في حالة من الانهيار المعنوي ، بحيث يستحيل عليهم التحرك من خيبر لغزو المدينة حتى ولو غادرها أكثر المحاربين المسلمين إلى أية جهة أرادوا .

ولذلك وبعد أن أصبح المسلمون في ذلك المركز العسكري الممتاز وأصبحوا قوة فرضت هيبتها على كل منطقة يشرب وكل المناطق المجاورة لها بعد الانتصارات الساحقة التي سجلتها على قوات الأحزاب الضاربة ، وعلى خونة يهود بني قريظة بتلك التصفية الدموية العادلة الحاسمة وبعد أن بثت الرعب وأشاعت الخوف بين عناصر يهود خيبر .. قرروا (على ما في ذلك من تحدٍّ لمعسكر الشرك الحائق في مكة) أن يقوموا بزيارة البيت الحرام ... مطلب ظلوا عاجزين عن تحقيقه طيلة خمس سنوات كاملة لبطر وتعنُّت المشركين في مكة الذين كانت لهم الصولة والدولة طيلة هذه المدة .

لقد كان العرف المتبع والقانون السائد - غير المكتوب - بين العرب منذ آلاف السنين أن زيارة البيت العتيق والطواف به حق مشاع لجميع العرب مهما تباينت آراؤهم واختلفت مذاهبهم في العبادة .. لا يجوز لقريش سادنة البيت والمسؤولة عن الأمن في الحرم أن تحول بين أي إنسان وبين دخول الحرم لزيارة البيت وباقى المشاعر التي درج العرب على زيارتها منذ عهد الخليل إبراهيم عليه السلام .

ولكن قريشاً (وهي الحاكمة بأمرها في مكة) بلغ بها البغى والشطط إلى منع المسلمين (خاصة) من زيارة البيت وباقى المشاعر ، وهدر دمائهم وإباحة سفكها حتى ولو وجدوا مُهلِّلين ملبَّين داخل الحرم .

لقد صبر المسلمون وامتنعوا عن الذهاب إلى مكة طيلة هذه الخمس السنوات ، والسبب في ذلك أنهم كانوا (من الناحية العسكرية) في مركز لا يمكنهم من مباشرة حقهم الشرعي من الطواف بالبيت واقتحام مكة عنوة لمباشرة هذا الحق المشروع إذا ما حاولت قريش منعهم من مباشرته بالقوة .

أما وقد أصبحوا قوة لها وزنها قادرة على مباشرة هذا الحق ولو عن طريق اقتحام مكة عنوة ، فلا بد لهم من التوجه إلى مكة لأداء نسك العمرة الذي حرّموا منه (بغياً وعدواناً) طيلة خمس سنوات كاملة .

لذلك أعلن النبي ﷺ في الحاضرة والبادية أنه قرر التوجه إلى مكة ، وأعلن صراحة أنه لا يريد دخول مكة غازياً وإنما معتمراً مسالماً .. وأرسل إلى قريش من يبلغها ذلك لئلا تظن أنه جاء محارباً .

الاستعداد للطوارئ :

ولكنه ﷺ مع نواياه السلمية وتجرّده الكامل في هذه الرحلة للنسك أدخل في حسابه أن قريشاً قد تحاربه وتصدّه عن البيت بقوة السلاح ، فقرر أن يحتاط لهذا الاحتمال الذي لا يستبعد حدوثه والذي أقدمت عليه قريش الشرك بالفعل .

فقد استنفر المسلمين حاضرة وبادية ليصاحبوه في هذه الرحلة التي هي دونما شك رحلة محفوفة بالأخطار .. لأنه لم يكن بينه وبين قريش (عدوه الرئيسي) أي عهد أو صلح ، بل كانت الحالة بين الفريقين حالة حرب مُعلنة .

تشبيط المنافقين :

وبالرغم من كثرة المنتسبين إلى الإسلام في الحاضرة والبادية في تلك الفترة ، فإنه لم يستجب لدعوة الإستنفار هذه إلا الخلفاء المؤمنون الصادقون من أصحابه عليهم السلام .

أما المنافقون من أهل المدينة ، وضعاف الإيمان من الأعراب الذين أسلموا ولما يدخل الإيمان في قلوبهم ، فقد تخاذلوا وقرروا عدم مرافقة النبي صلى الله عليه وآله في هذه الرحلة التاريخية . لأنه رسخ في نفوسهم المريضة أن مشركي مكة سيحولون دون دخول النبي صلى الله عليه وآله ومن معه مكة بالقوة ومعنى ذلك أن المسلمين ونبيهم سيضطرون لخوض حرب ضروس بعيدين عن بلادهم . فهي إذن رحلة محفوفة بالأخطار الجسام ، والمنافقون ليس لديهم أي رصيد من الإيمان يجعلهم يستهينون بهذه الأخطار في سبيل مرضاة الله .

لذلك تشاقلوا وتخلفوا عن ركب الإيمان متعللين بشتى الأعذار الكاذبة من ذلك أن انشغالهم بأهليهم وأموالهم ، لا يسمح لهم بمصاحبة النبي صلى الله عليه وآله في هذه الرحلة .

بينما الباعث الحقيقي لهذه الانهزامية والتشاقل هو ما رسخ في نفوسهم الضعيفة ، من أن المسلمين سيخوضون حرباً ضروساً مع قريش ، وأنهم قد لا يعودون سالمين إلى المدينة ، هكذا ظنوا . بل هكذا كانوا يتهايمسون فيما بينهم ، قائلين : (أنذهب إلى قوم قد غزوه في عقر داره بالمدينة وقتلوا أصحابه^(١) ، ولكنهم تظاهروا بأنهم مشغولون بأهليهم وأموالهم واعتذروا بذلك .

(١) السيرة الحلبية ج ٢ ص ١٣٢ .

القرآن يفضحهم :

غير أن ضعاف النفوس هؤلاء ، قد فضحهم القرآن الكريم فيما بعد وكشف لنبيه ولكل الناس حقيقة أمرهم فقال تعالى : ﴿ سيقول لك المخلفون من الأعراب شغلنا أموالنا وأهلونا ، فاستغفر لنا ﴾ (أى عندما تطوف بالبيت - يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم ، قل فمن يملك لكم من الله شيئاً إن أراد بكم ضرراً ، أو أراد بكم نفعاً بل كان الله بما تعملون خبيراً) ^(١) .

وقال تعالى كاشفاً ما يعتقد هؤلاء المنافقون من أن المسلمين سيبادون في رحلتهم هذه عن بكرة أبيهم على أيدي قريش : ﴿ بل ظننتم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهليهم أبداً ، وزين ذلك في قلوبكم وظننتم ظن السوء وكنتم قوماً بوراً ﴾ ^(٢) .

الصفوة المختارة :

غير أن هذه الإنزامية التي قعدت بالمنافقين وجعلتهم يشبطون عزائم ضعاف النفوس ليمنعوا عن مرافقة النبي الأعظم ﷺ في هذه الرحلة السلمية التاريخية .. هذه الإنزامية لم يكن لها أى أثر على عزائم الصفوة المختارة من أصحاب محمد ﷺ الذين لم يكادوا يسمعون صوت الاستنفار الذى وجهه النبي ﷺ للانضمام إلى ركبته المبارك للتوجه إلى مكة حتى تسابقوا فرحين مستبشرين ملبيين نداء نبيهم العظيم ، مستهينين بما يهوله المنافقون من أخطار جسام قد تحف

(١) سورة الفتح ١١ .

(٢) سورة الفتح ١٢ .

(من جانب قريش) بهذه الرحلة التي تحمل كل معاني التحدي لقريش وكبرياتها الوثني .

لأن هذه الصفوة المختارة واثقة كل الثقة من أن سعادتها في الدنيا وفلاحها في الآخرة إنما هو في طاعة أوامر نبيها الذي لا يمكن أن يدعوها إلا إلى خير .

فقد التف حول النبي ﷺ ألف وأربعمائة من المهاجرين والأنصار تهيئوا معه للخروج إلى مكة .

وبعد أن تجهزوا للسفر خرج بهم ﷺ من المدينة في اتجاه مكة وكان بينهم مائتا فارس . وعندما وصل ذا الحليفة^(١) (في ضواحي المدينة) أحرم بالعمرة وأعلن ذلك ليعلم الناس جميعاً أنه لم يخرج للحرب وإنما خرج لزيارة البيت وأداء مناسك العمرة .. وقد أحرم معه عامة أصحابه رضي الله عنهم .

أمير على المدينة :

وكما هي عادته (عندما يعتزم الغياب عن المدينة في غزو أو غيره) أصدر مرسوماً عين بموجبه نميلة بن عبد الله الليثي^(٢) محافظاً على المدينة

(١) ذو الحليفة (بضم الحاء) إحدى ضواحي المدينة ، تقع على بعد حوالي عشرة أميال منها ، وتسمى ذو الحليفة اليوم : بأبيار على .

(٢) هو نميلة بن عبد الله بن ققيم الليثي ، من قبيلة كلب اليمنية الواقعة ديارها في شمال شرق الجزيرة .. صحابي شجاع ، شهد نميلة فتح مكة ، وكان ضمن فرقة خالد بن الوليد عند دخول مكة ، ونميلة هو الذي قتل مقيس ابن صابة الذي كان ضمن من أهدر النبي صلى الله عليه وسلم دمهم فأمر بقتلهم حتى ولو تعلقوا بأستار الكعبة استعمل النبي صلى الله عليه وسلم نميلة والياً على خيبر بعد فتحها .

يصرّف أمورها نيابة عنه حتى عودته ، كما عين ابن أم مكتوم^(١) على الصلاة يؤم المسلمين نيابة عنه حتى يعود .

حمل السلاح :

وفي ذى الحليفة أشار عمر بن الخطاب وسعد بن عباد على رسول الله ﷺ أن يسلّح أصحابه التسليح الكامل ، استعداداً للطوارئ ، لأنه لا يستبعد أن تشن قريش الحرب على المسلمين .. وما يمنعها من ذلك - إذا ما قدرت عليه ؟ - أليست في حالة حرب معهم ؟ .

فقد قال ابن الخطاب : تدخل على قوم هم لك حرب ، بغير سلاح ولا كراع ؟ فعمل النبي ﷺ بنصيحة عمر ، فبعث إلى المدينة فلم يدع فيها كراعاً ولا سلاحاً إلا حماه .

علامات النسك لا الحرب :

وساق معه ﷺ سبعين بدنة^(٢) هدياً أشعرها^(٣) وقلدها ليعلم الناس أنها هدى فيكفوا .

(١) انظر ترجمة ابن أم مكتوم في كتابنا (غزوة أحد) .

(٢) البدنة - يفتح أوله وثانيه - : من الإبل والبقر كالأضحية تهدي إلى مكة . قاله في القاموس المحيط .

(٣) أشعرها : أى أعلمها . قال في النهاية في غريب الحديث : إشهار البدن هو أن يشق أحد جنبي ستام البدنة حتى يسيل دمها . ويجعل ذلك علامة تعرف بها أنها هدى .

شارى بدن رسول الله :

وعندما قرر النبي ﷺ القيام بالعمرة طلب من بسر بن سفيان الكعبي ثم الخزاعي (١) أن يشتري له بدنًا لتكون هدية إلى الكعبة في عمرته حيث قال لبسر (الذي كان قدم مسلماً عليه) : يا بسر لا تبرح حتى تخرج معنا ، فإننا إن شاء الله معتمرون ، فأقام بسر في المدينة .. ثم أمره النبي ﷺ أن يبتاع له بدنًا . فذهب إلى البادية وأخذ يبتاع البدن ويبعث بها إلى ذى الجدر لترعى هناك ، وكانت ذى الجدر من مسارج المدينة التي ترعاها اللقاح .

وعندما أكمل بسر بن سفيان شراء البدن التي بلغت سبعين بدنة حضر بها إلى المدينة ، وذلك بعد أن تهيأ النبي ﷺ وأصحابه للخروج منها معتمرين .

ناجية بن جندب على الهدى :

وعندما تهيأ النبي ﷺ للخروج من المدينة استعمل على هدية ناجية بن جندب الأسلمي وأمره أن يقدمها إلى ذى الخليفة .

وخرج النبي ﷺ وأصحابه من المدينة وهم لا يشكون في الفتح للرؤيا التي رأى النبي ﷺ .

(١) هو بسر (بضم أوله وسكون ثانيه) ابن سفيان بن عمرو بن عويمر الخزاعي ، من سادات خزاعة وزعمائها يضاهي بديل بن ورقاء في زعامته ، قال ابن عبد البر أسلم سنة ست . وبسر هذا هو الذي لقي النبي صلى الله عليه وسلم بذى طوى بالقرب من مكة (على ما ذكره ابن إسحاق) وقال له : يا رسول الله هذه قریش قد سمعت بمسيرك فخرجوا معهم العوذ المطافيل قد لبسوا جلود النمر ، وقد نزلوا بذى طوى ، يعاهدون الله أن لا تدخلها عليهم أبداً ، وهذا خالد بن الوليد في خيلهم قد قدموها إلى كراع الغميم .

هدى الموسرين من الصحابة :

وساق الموسرون من الصحابة (أبو بكر وعبد الرحمن بن عوف وعثمان ابن عفان وطلحة بن عبيد الله وسعد بن عباد) معهم هدياً خاصاً بهم .

تاريخ الخروج للعمرة :

وكان خروج النبي ﷺ من المدينة يوم الإثنين لئلا ذى القعدة سنة سبع من الهجرة ، وكان ﷺ قد اغتسل في بيته بالمدينة ولبس ثوبين من نسج صحار وركب راحلته القضاة من عند بابه ، وما زال يسير بالمسلمين حتى وصل بهم (ذى الحليفة) وهناك توقف وصلى بهم الظهر ، ثم دعا بالبُذْن فجُلَّت ثم أشعر بنفسه منها عدة ومن موجهاً إلى القبلة ، وكان بين البُذْن جمل أبي جهل بن هشام ، وكان من الجمال المهرية الأصيلة المشهورة ، غنمه النبي ﷺ ببدر ، فساقه مع الهدى إغاظة للمشركين .

الإحرام بالعمرة :

ومن ذى الحليفة أحرم النبي ﷺ بالعمرة ، حيث دعا براحلته فركبها من باب المسجد ، فلما انبعثت به مستقبلة القبلة أحرم ولبي بأربع كلمات : لبيك اللهم لبيك لبيك لا شريك لك لبيك إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك . وأحرم عامة المسلمين بإحرامه ، ومنهم من لم يحرم إلا من الجحفة - بالقرب من رابغ .

النساء المعتمرات :

وخرج مع النبي ﷺ في هذه العمرة أربع نساء ، واحدة من نسائه وهي أم سلمة^(١) وثلاث أنصاريات وهن : أم عمارة وأم منيع وأم عامر .

والمنافقون أيضاً :

كما صاحبه في هذه الرحلة التاريخية أيضاً اثنان من كبار المنافقين وهما عبد الله بن أبي بن سلول^(٢) والجعد بن قيس^(٣) ، وذلك بالرغم من أن أكثرية المنافقين لم يخرجوا ، ولا شك أن ابن أبي الجعد بن قيس لم يخرجوا بدافع الإيمان ، وإنما لدوافع قد يكون منها محاولة إثارة الفتنة والتشكيك بين المسلمين في هذه الرحلة إن أمكنهم ذلك ، كما حدث وأن خرجوا في غزوة بني المصطلق ، وأثاروا نيران تلك الفتنة اللامبة التي كادت تشعل نيران حرب أهلية لا تبقى ولا تذر^(٤) .

(١) انظر ترجمة أم سلمة في كتابنا (غزوة الأحزاب) .

(٢) انظر ترجمة عبد الله بن أبي في كتابنا (غزوة بدر الكبرى ط ٤) :

(٣) هو الجعد بن قيس بن صخر بن خنساء الأنصاري : اختلفت في أمره كان الجعد ابن قيس سيد بني سلمة (الخرج) قال في الإصابة : ويقال : إن الجعد بن قيس هذا منافقاً ، روى أبو نعيم وابن مردويه عن ابن عباس أنه نزل فيه قوله تعالى : (ومنهم من يقول ائذن لي ولا تفتني) ومن حديث جابر بسند فيه مبهم أن الجعد بن قيس تخلف يوم الحديبية عن البيعة ، أخرجه ابن عساكر من طريق الأعمش ، وقال ابن عبد البر في الاستيعاب : إن الجعد بن قيس تاب وحسنت توبته ومات في خلافة عثمان .. للجعد أخبار ستأتي عليها إن شاء الله في هذا الكتاب في موضعها .

(٤) انظر تفاصيل هذه الفتنة في كتابنا (غزوة الأحزاب) الفصل الأول ، (غزوة

بني المصطلق) .

ملاحم للاستكشاف ورجل الاستخبارات :

ومع أن النبي ﷺ أعلن بكل صراحة ووضوح أنه لا يريد الحرب ، فقد أدخل في حسابه احتمال أن تقوم قريش بالعدوان عليه وعلى أصحابه في أي مكان لأنه في حالة حرب معها ، ولأنها أمة مشركة لا يمكن أن يأمن المسلمون جانبها حتى وإن كانوا على حالة من النسك هي عنوان المسألة ، لا يجوز (في عرف جميع العرب مسلمين ووثنيين) التعرض لمن هو عليها حتى ولو كان في ظروف حربية .

فقد أمر (أولاً) بسر بن سفيان الكعبي ثم الخزاعي بأن يقوم بمهمة الاستخبارات بين قريش للمسلمين ، فيجمع المعلومات عنهم وعن نواياهم ، وماذا يمكن أن يقولوه أو يفعلوه إذا ما بلغهم أن النبي قد خرج بأصحابه قاصداً مكة للعمرة .

فقال قال النبي ﷺ لسر بن سفيان : إن قريشاً قد بلغها أنني أريد العمرة فخبّر لي خبرهم ، ثم ألقني بما يكون منهم ، فتقدم بسر أمامه ، ودخل مكة وظل بها يرصد قريشاً ويجمع المعلومات ، ولم يخرج إلا عندما وصل النبي عسفان حيث لاقاه هناك .

كذلك كوّن النبي ﷺ - وهو بذي الحليفة - فصيلة من الفرسان لتكون طليعة أمامه ولتقوم بأعمال الاستكشاف حتى مكة ، وذلك تحسباً للطوارئ ، وبالرغم من أنه سيمر بقبائل إما مسلمة ، أو موادعة^(١) .

وقد كانت هذه الفصيلة مكوّنة من عشرين فارساً فيهم رجال من

(١) الموادعة بلغة هذا العصر هي معاهدة عدم الاعتداء .

المهاجرين والأنصار ، منهم المقداد بن الأسود^(١) وأبو عياش الزرق^(٢) والحباب بن المنذر^(٣) وعامر بن ربيعة ومحمد بن مسلمة الأنصاري وسعد بن زيد وعباد بن بشر ، وكان أمير الفصيلة عباد بن بشر الأنصاري .

طريق الرسول إلى مكة :

ووصف الواقدي تحركات الرسول ﷺ في هذه الرحلة التاريخية ، وأشياء حدثت له وهو في طريقه ، وأحاديث قالها لأصحابه ولغيرهم كانت بمثابة أصول تشريعية وآداب إسلامية ، كما حدّد الطرق الرئيسية التي سلكها الرسول ﷺ إلى مكة فقال : (وخرج معه المسلمون ست عشرة مائة ، ويقال ألف وأربعمائة ، ويقال ألف وخمسمائة وخمسة وعشرون رجلاً)^(٤) .

وخرج معه من أسلم^(٥) وحدها مائة رجل ، وخرج معه أربع نسوة ، فجعل رسول الله ﷺ يمر بالأعراب فيما بين مكة والمدينة ، وكان يُقْلَم الخيل ثم يقدم ناجية بن جندب^(٦) مع الهدى ، وكان معه فتيان

(١) انظر ترجمة المقداد في كتابنا (غزوة بدر الكبرى ط ٤) .

(٢) انظر ترجمة أبي عياش في هذا الكتاب .

(٣) انظر ترجمة الحباب بن المنذر في كتابنا (غزوة بدر الكبرى ط ٤) .

(٤) أصح الأقوال أنهم ألف وأربعمائة .

(٥) أسلم : اسم لعدة قبائل قحطانية ، ويظهر أن هذه القبيلة هم بنو أسلم بن أقصى ، بطن من خزاعة ، تقع منازلهم على الطريق ما بين المدينة ومكة .

(٦) هو ناجية بن جندب بن عمير بن يعمر الأسلمي وكان اسمه ذكوان فسماه النبي صلى الله عليه وسلم ناجية حين نجا من قريش ، كان ناجية هو الذي سار بالنبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه في طريق لاتمر بقريش حين قرر عدم مصادمتها بعد أن علم أن =

من أسلم ، وخرج رسول الله ﷺ حين أصبح يوم الثلاثاء ملل^(١) ، فراح من ملل وتعدى بالسيالة^(٢) ثم أصبح بالروحاء^(٣) فلقي بها اصراً من بنى نهد معهم نعم وشاء ، فدعاهم إلى الإسلام ، فلم يستجيبوا له وانقطعوا من الإسلام ، فأرسلوا إلى رسول الله ﷺ يلبن مع رجل منهم فأبى رسول الله ﷺ أن يقبل منهم وقال : لا أقبل هدية مشرك ، فأمر رسول الله ﷺ أن يُبتاع منهم فابتاعوه من الأعراب فسر القوم وجاءوا بثلاثة أضب (جمع ضب) أحياء يعرضونها ، فاشتراها قوم أحلة من العسكر ، فأكلوا وعرضوا على المحرمين فأبوا حتى سألوا رسول الله ﷺ عن ذلك ، فقال : كلوا فكل صيد ليس لكم حلالاً في الإحرام تأكلونه إلا ما صدتم أو صيد لكم ، قالوا : يا رسول الله فوالله ما صدنا ولا صادته إلا هؤلاء الأعراب أهدوا لنا وما يدرون أن يلقونا ، إنما هم قوم سيّارة يصبحون اليوم بأرض وهم الغد بأرض أخرى يتبعون الغيث وهم يريدون سحابة وقعت من الخريف بفرش ملل . فدعا رسول الله ﷺ برجل منهم فسأله : أين تريدون ؟ فقال : يا محمد ، ذكرت لنا سحابة وقعت بفرش ملل منذ شهر ، فأرسلنا رجلاً منا يرتاد

= خالد بن الوليد معسكراً على الطريق الرئيسي لمقاتلته ، فخرج به جندب حتى جاء الحديبية توفي ناجية بالمدينة في خلافة معاوية .

(١) قال ياقوت : ملل (بفتح أوله وثانية) منزل على طريق المدينة إلى مكة على ثمانية وعشرين ميلاً من المدينة .

(٢) السيالة (بفتح أوله وتخفيف ثانية) أول مرحلة لأهل المدينة إذا أرادوا مكة ، قال ابن الكلبي : مر بها تبع اليمن بعد رجوعه من قتال أهل المدينة وواديها يسيل فيها السيالة .

(٣) الروحاء سهل فسيح واسع ، يقع على بعد أربعين ميلاً من المدينة ويقال أنها سميت بهذا الاسم لأن تبع اليمن استراح بها وهو عائد من قتال أهل المدينة يريد مكة .

البلاد ، فرجع إلينا فخبّرنا أَنَّ الشاة قد شبعَت ، وَأَنَّ البعير يمشى ثقيلًا
مما جمع من الحوض ، وَأَنَّ الغُدر كثيرة مرويَّة فأردنا أَن نلحق به .

وقال أبو قتادة : خرجنا مع رسول الله ﷺ في عمرة الحديبية
ومنا المحلّ ومنا المحرم ، حتى إذا كنا بالأبواء وأنا مُحلّ فرأيت حماراً
وحشياً فأسرجت فرسى فركبت ، فقلت لبعضهم : ناولني سوطي ، فأبى
أَن يناولني فقلت : ناولني رمحي ، فأبى ، فنزلت فأخذت سوطي
ورمحي ثم ركبت فرسى فحملت على الحمار فقتلته فجئت به أصحابي
المحرمين والمحليين ، فشك المحرمون في أكله حتى أدرَكنا رسول الله ﷺ
وقد كان تقدّمنا بقليل فأدرَكناه فسألناه عنه فقال : أمعكم منه شيء ؟
قال : فأعطينته الذراع فأكلها حتى أتى على آخرها وهو محرم فقيل
لأبي قتادة : وما خلفكم عن رسول الله ﷺ ؟ قال : طبخنا الحمار
فلما نضج لحقناه وأدرَكناه . وقد أخرج البخاري في صحيحه حديث
أبي قتادة بلفظ آخر والمعنى واحد .

كيف تلقت قريش النبا ؟

لقد شاع بين العرب نبأ خروج النبي ﷺ وأصحابه معتمرين
ولم يكن في هذا الخروج ما يدعو إلى الدهشة أو الاستغراب بين العرب
الوثنيين عموماً .

لأن زيارة البيت (وخاصة في الأشهر الحرم) حق لكل إنسان مهما
كان دينه أو لونه أو جنسه .. ذلك قانون غير مكتوب مجمع على العمل
به بين جميع قبائل العرب .

غير أن قريشاً تجاهلت هذا القانون الذي كان يجب أن تكون أول من يلتزم به ويحرص على تنفيذه ، لأنها حتى ذلك العام كانت السادن للكعبة والمسؤول بين العرب عن جميع المشاعر التي يعظمها العرب في نسكهم ، ومطلوب منها إعطاء كل التسهيلات لمن جاء راغباً في زيارة البيت حتى ولو كان في حالة نزاع مسلح معها ، مادام أنه لم يأت محارباً ، لأن لمنطقة الحرم قدسية عند العرب تجعل من المحرم تحريماً قاطعاً سفك أي دم وإنشأ أي حرب داخل حدوده ، ذلك هو القانون والعرف السائد بين عرب الجزيرة منذ آلاف السنين .

ولكن قريشاً قد تملكها الغرور - بعد أن استبد بها الغضب ونزأ بها الحق - فرمت هذا العرف عرض الحائط حينما قررت (في إصرار) منع النبي ﷺ وأصحابه من دخول مكة بالرغم من تبليغها أنهم لم يأتوا للحرب وإنما جاؤوا محرمين لزيارة البيت فحسب .

لقد اعتبرت قريش خروج النبي ﷺ نحو مكة (وفي هذا العدد الكبير من أصحابه) بادرة خطيرة ، أحس سادات مكة أن فيها مساساً بكرامتهم وخدشاً لكبريائهم الوثني ، وأنه - بالنسبة للعرب أجمعين - بمثابة الدليل العملي على ضعف قريش السياسي وانخفاض هيبتها العسكرية ، وتضعف دورها القيادي بين العرب .

كما اعتبرت قريش هذا التصرف من النبي ﷺ رداً (في صورة التحدي) على ما قامت به من أعمال إرهابية ضده وضد القلة من أصحابه عندما كانوا في مكة ، مما اضطروهم إلى مغادرتها هرباً مرغمين .

ولم يستطع النبي ﷺ (منذ خرج مكة خائفاً يتربص به) أن أهدرت قريش دمه وقررت الفتك به (ولا أحد من أصحابه الاقتراب من مكة فضلاً عن دخولها) .

ولكن ها هو (وبعد مرور خمس سنوات على نجاته من سيف قريش) يتحرك نحو مكة ، (ليس وحيداً ولا خائفاً ولا مستخفياً هذه المرة كما كان حاله عند مغادرته لها قبل خمس سنوات) وإنما على رأس ألف وأربعمائة من أصحابه ، كلهم يفديه بروحه .
إنه (إذن) التحدى السافر لقريش في أبرز صوره .

هكذا قرَّ في نفوس القرشيين ، فعمّت مكة - لهذا النبأ - موجة من الغضب والاستياء والقلق والارتباك .

قريش في برلمانها :

ولدى تأكد قريش من نبأ خروج النبي وأصحابه نحو مكة سارع زعماءها إلى عقد اجتماع هام في دار الندوة للتشاور فيما بينهم والاتفاق على خطة لمواجهة هذا التطور الخطير .

لجنة المتابعة والتنفيذ :

وبعد هذا القرار الذى اتخذته قريش في برلمانها (دار الندوة) بالإجماع انتخبت من يمكن تسميتهم بلجنة المتابعة .. مهمة هذه اللجنة متابعة هذا القرار الخطير ، والعمل (بالطرق التى تراها اللجنة) على تنفيذه .

وكان أعضاء هذه اللجنة المنتخبون ثلاثة من سادات مكة ، وهم

١ - عكرمة بن أبى جهل المخزومى ^(١) .

(١) انظر ترجمة عكرمة في كتابنا (غزوة بدر الكبرى) .

٢- صفوان بن أمية الجمحي^(١) .

٣- سهيل بن عمرو العامري^(٢) .

وقد أعطيت هذه اللجنة (من جميع نواب الندوة) التفويض الكامل المطلق في اتخاذ ما تراه من تدابير وتصرفات تضع قراراً ضد المسلمين عن البيت موضع التنفيذ .

قال الواقدي : (ولما بلغ المشركون خروج رسول الله ﷺ إلى مكة راعهم ذلك ، وأجمعوا له ، وشاوروا فيه ذوج الرأي منهم ، فقالوا : يريد (أى النبي ﷺ) أن يدخل علينا في جنوده معتمراً ، فتسمع به العرب ، وقد دخل علينا عنوة^(٣) وبيننا وبينه من الحرب ما بيننا ، والله لا يمكن هذا أبداً ومناً عين تطرف ، فارتأوا رأيكم ، فأجمعوا أمرهم وجعلوه إلى نفر من ذويههم (صفوان بن أمية .. وسهيل بن عمرو . وعكرمة ابن أبى جهل)^(٤) .

قریش تستعد لمنع المسلمين بالقوة :

وقد وضعت لجنة المتابعة الثلاثية (بالتشاور مع سادات مكة الآخرين) خطة كاملة لمواجهة المسلمين وصدّهم عن البيت بقوة السلاح ، إن هم أصرّوا على دخول مكة معتمرين .

(١) انظر ترجمة صفوان في كتابنا (غزوة بدر الكبرى) .

(٢) انظر ترجمة سهيل بن عمرو في كتابنا (غزوة بدر الكبرى) .

(٣) عنوة (بفتح العين وسكون النون) : أى بالقوة .

(٤) مغازى الواقدي ج ٢ ص ٥٧٩ .

ويمكن تلخيص خطة قريش التي بموجبها قرّرت صد المسلمين فيما يلي :

١- إعلان حالة الاستنفار بين جميع القرشيين ممن يقدرّون على حمل السلاح وتعبئتهم لمقاتلة المسلمين .

٢- طلب مساعدة الحلفاء (الأحابيش^(١)) وثقيف وغيرهم (- بالوقوف إلى جانب قريش عسكرياً لمواجهة المسلمين .

٣- اعتماد ميزانية حرب خاصة لتموين جنود الحلفاء الذين يقررون الانضمام إلى قريش في هذا النزاع الذي قررت قريش أن يكون نزاعاً مسلحاً .

٤- وإخراج فكرة صد المسلمين بقوة السلاح من الحيز النظري إلى الحيز العملي قررت لجنة الحرب العليا بانتشار مع سادات مكة أن يخرج كلّ حملة السلاح من قريش وحلفائها إلى خارج مكة ليكونوا على أهبة الاستعداد لمنع المسلمين من دخول الحرم ، على أن يكون ذلك قبل وصول المسلمين إلى حدود الحرم .

٥- أن يصاحب المشركين عند خروجهم لصدّ النبي ﷺ نساؤهم وأطفالهم ، ليلمس المسلمون الدليل العملي على تصميم قريش على صدّهم وأنهم غير مستعدين للتراجع عن هذا القرار الخطير ، وليكون وجود النساء والأطفال في معسكرات قريش وحلفائها بمثابة قطع خط الرجعة على الذين لا يرون من القرشيين التعرض للنبي ﷺ لصدّه عن البيت .

٦- تكوين قوات كثيفة من الفرسان وإعطاء قيادتها لفارس قريش خالد بن الوليد ، على أن تعسكر هذه القوات من الفرسان على الطريق

(١) الأحابيش : مجموعة من القبائل غير القرشية حالفت قريشاً حتى صارت وكأنها جزء منها .

الرئيسى بين مكة والمدينة وبالقرب من الحرم لاعتراض المسلمين وإفهامهم (عملياً) بأن قريشاً قد قررت (وبدون تراجع) منعهم من دخول الحرم .

٧- إقامة جهاز دقيق من الاستخبارات العسكرية ، تكون مهمة رجاله الضرب فى الأرض إلى أبعد مكان ممكن على الطريق الذى سيمر به الكنى وأصحابه ، وإبلاغ قريش فى معسكرها الرئيسى (أولاً بأول) عن كل ما تحتاجه من معلومات عن تحركات المسلمين ومدى قوتهم وحقيقة أمرهم من جميع الوجوه .

تنفيذ خطة الصد :

وقد نفذت قريش كامل بنود هذه الخطة تنفيذاً تاماً .. ففصيا يختص بالاستنفار العام فى مكة ، فقد خرج منها لمواجهة المسلمين كل قادر على حمل السلاح .

وفىما يتعلق بمساعدة الحلفاء ، فقد نجحت قريش فى إقناع الأحابيش بالانضمام إليها بعد أن شوّهت لسيدهم الحليس بن زبّان حقيقة موقف المسلمين السلمى وصورتهم له بأنهم جاؤوا محاربين معتدين كما نجحت أيضاً فى إقناع حلفائها (ثقيف) فانضموا و جاؤوا إليها من الطائف بقيادة سيدهم (عروة بن مسعود) ، فاستطاعت بذلك قريش أن تحشد من أبنائها ومن حلفائها قوة ضخمة ضاربة بلغت حوالى ثمانية آلاف مقاتل ، كلها وقفت على أهبة الاستعداد لمحاربة المسلمين لحساب الزعامة القرشية .

المعسكر الرئيسى لقريش :

وقد عسكرت قريش بهذه القوات الضاربة المشتركة (بصفة رئيسية) في منطقة بلدح ^(١) الواقعة غربى مكة ، كما أن قريشاً أخرجت بالفعل النساء والأطفال ليكونوا موجودين في المعسكر الرئيسى في بلدح .

وفيما يختص بقوات الفرسان التى قررت قريش تكليفها باعتراض النبي وأصحابه ، فقد تحرك خالد بن الوليد بمئتى فارس ورابط بهم في كراع الغميم على الطريق الرئيسى الذى من المفروض أن يمر به النبي وأصحابه وهم في طريقهم من المدينة إلى مكة .. وكانت لدى القائد خالد أوامر صارمة مشددة بأن يمنع المسلمين بالقوة من اجتياز الطريق كما هو قرار سادة قريش .

أما فيما يتعلق بجهاز الاستخبارات ، فقد أقامته قريش على أدق ما يكون ، فقد انتخبت عشرة رجال أعطت قيادهم للحكم بن عبد مناف فتولّى تنظيمهم ، فوزعهم في رؤوس الجبال المطلة على الطريق الرئيسى الذى سيمر به النبي ﷺ وأصحابه ، فكان الأول ينقل إلى الثانى ما يرى ويسمع من المسلمين ، والثانى إلى الثالث حتى يصل إلى العاشر فينقله بدوره إلى قيادة قريش العليا في وادى (بلدح) .

هكذا وبواسطة تنظيم هذا الجهاز من الاستخبارات تلقت قيادة قريش في بلدح كل شىء عن تحركات المسلمين أولاً بأول ، فعرفوا كل ما يريدون معرفته عن مدى قوة المسلمين ، وما يقولونه ويفعلونه قبل أن يصلوا إلى حدود الحرم .

(١) بلدح (بفتح أوله وسكون ثانية) قال في مراصد الاطلاع : واد قبل مكة من جهة الغرب .

قال الواقدي (الغزاة ج ٢ ص ٥٧٩) : (وقدموا خالد بن الوليد في الخيل ووضعوا العيون على الجبال حتى انتهوا إلى جبل يقال له : وزر ، وزع .. كانت عيونهم عشرة رجال قام عليهم الحكم بن عبد مناف يوحى بعضهم إلى بعض الصوت الخفى . فعل محمد كذا وكذا حتى ينتهى ذلك إلى قريش) ..

إطعام المرتزقة :

وفيما يختص بتموين المرتزقة الموجودين مع قريش في معسكرهم ، والمسمين بالحلفاء من غير القرشيين ، فقد تولى أربعة من زعماء قريش إطعامهم ، وهؤلاء الزعماء الذين تولوا تموين المرتزقة بالنيابة عن قريش هم سهيل بن عمرو وعكرمة بن أبي جهل وصفوان بن أمية وحويطب ابن عبد العزى ، وكلهم ما عدى الأخير أعضاء في لجنة الحرب التي كلفتها قريش في دار الندوة بمتابعة وتنفيذ قرارات البرلمان القرشي المتعلقة بصد المسلمين عن البيت ومنعهم من دخول مكة مهما كانت النتائج .

الاستخبارات النبوية في مكة :

كان النبي ﷺ عند خروجه من المدينة (وفي ذى الحليفة بالذات) كلف بسر بن سفيان الكعبي الخزاعي بأن يقوم بمهمة الاستخبارات في مكة ، وأمره بأن يتوجه إليها لينقل إليه كل أخبار القرشيين ، ما يقولونه وما يفعلونه كرد فعل لتلقيهم نبأ خروج المسلمين معتمرين

وقد صدع بسر بن سفيان بأمر نبيه ﷺ ، فتوجه إلى مكة ، وما هي إلا أيام قلائل حتى كان فيها ، وظل بسر في مكة يرصد (بطريقه الخاص) حركات القرشيين ويدون في ذاكرته كل ما يراه أو يسمعه مما تقوله وتفعله قريش ، وظل في مكة عدة أيام عرف فيها كل ما يجب أن يعرفه رجل مكلف بمثل هذه المهمة الخطيرة التي كلف بها .

وقد بلغ رجل الاستخبارات النبوية في إنجاح مهمته إلى حد المخاطرة بروحه ، حيث صاحب الجيوش المشتركة (من القرشيين والأحلاف) في تحركاتها حتى استقرت في معسكرها الرئيسي في وادي (بلدح) ، ولم يتركها إلا بعد أن رآها تقيم الأبنية وتضرب الخيام في هذا الوادي مصممة على صد المسلمين عن البيت بالقوة .

فقد توجه (بسر) بعد ذلك ليلتقي بالرسول ﷺ في (ذات الأشطا) من وراء عسفان على مسافة غير بعيدة من حدود الحرم . وهناك أخبر النبي ﷺ بكل شيء عن قريش .. فعندما رآه النبي ﷺ قال : يا بسر ما وراءك ؟ .

قال : يا رسول الله تركت قومك كعب بن لؤى وعامر بن لؤى ، قد سمعوا بمسيرك ففزعوا وهابوا أن تدخل عليهم عنوة وقد استنفروا الأحابيش ومن أطاعهم ، معهم العوذ المطافيل ، قد لبسوا لك جلود النمر ليصدوك عن المسجد الحرام ، وقد خرجوا إلى (بادح) وضربوا الأبنية ، وترك عُمادهم (أي قادتهم) يطعمون الجزر أحابيشهم ومن ضوى (أي انضم إليهم) في دورهم ، وقدموا الخيل عليها خالد بن الوليد .. مائتي فرس .. وهذه خيلهم بالغميم وقد وضعوا العيون على الجبال ، ووضعوا الأرصاد^(١) .

(١) مغازي الواقدي ج ٢ ص ٥٨٠ .

الذي يستشير أصحابه :

وكما هي عادة النبي ﷺ ، رتمشياً مع روح الشورى التي جاء بها الإسلام والمتمثلة في قوله تعالى : ﴿ وشاورهم في الأمر ﴾ ، جمع الرسول ﷺ أصحابه حيث يعسكر في وادي عسفان وأطلعهم على حقيقة الموقف ، مشيراً إلى التطورات الخطيرة التي حدثت نتيجة تعنت قريش وإصرارها على صد المسلمين عن المسجد الحرام بالقوة ، ذلك الإصرار ، الذي تمثل بأجلى مظاهره في خروج حوالى ثمانية آلاف مقاتل إلى وادي (بلادح) تصحبهم نساؤهم وأطفالهم ، وفي مرابطة مائتى فارس على مقربة من المسلمين في كزاع الغميم .

فقد قال النبي ﷺ : هذا خالد بن الوليد على خيل المشركين بالغميم ، ثم وقف ﷺ خطيباً في المسلمين فأثنى على الله بما هو أهله ، ثم قال (مستشيراً أصحابه) : «أما بعد فكيف ترون يا معشر المسلمين في هؤلاء الذين استنفروا إلى من أطاعهم ليصدونا عن المسجد الحرام ؟ أترون أن نمضي لوجهنا إلى البيت فمن صدنا قاتلناه ، أم ترون أن نخلف هؤلاء الذين استنفروا لنا ، إلى أهليهم ، فإن اتبعونا اتبعنا منهم عنق يقطعها الله ، وإن قعدوا قعدوا محزونين موتورين ؟ » .

فقام أبو بكر الصديق فقال : الله ورسوله أعلم ، نرى يا رسول الله الله أن نمضي لوجهنا ، فمن صدنا عن البيت قاتلناه ، فقال رسول الله ﷺ : « فإن خيل قريش فيها خالد بن الوليد بالغميم » .

فقال أبو هريرة : فلم أر أحداً كان أكثر مشاورة لأصحابه من رسول الله ﷺ ، وكانت مشاورته أصحابه في الحرب فقط

المقداد بن عمرو يتكلم :

وقام المقداد بن عمرو الكندي ^(١) فقال : يا رسول الله ، لا نقول كما قالت بنو إسرائيل لموسى : ﴿ اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون ﴾ ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون ، والله يا رسول الله لو سرت إلى برك الغماد لسرنا معك ما بقى منا رجل .

وتكلم سيد الأوس (أسيد بن الحُصير) وقال قريباً من قول أبي بكر الصديق .

وبعد هذا التشاور تبين أن جميع المسلمين موافقون على المضي نحو غايتهم وهي زيارة البيت العتيق ، وأنهم مستعدون للضدام إذا ما ألجأهم قريش إلى ذلك بإصرارها على منعهم من دخول الحرم .

مشادة بين الصديق وأبي ورقاء :

وإلى وادي عسفان لحضر حليف المسلمين سيد خزاعة (بُئيل بن ورقاء) وعلى مسمع من الناس قال : يا محمد لقد اغترت بقتال قومك جلايب العرب ^(٢) ، والله ما أرى معك أحداً له وجه ، مع أني أراكم قوماً لا سلاح معكم ، فجرت (لهذا القول) بينه وبين أبي بكر الصديق مشادة كلامية أغلظ له فيها القول أبو بكر الصديق ، وأسمعه ما يكره طناً منه أنه مخير لقريش

غير أن بذلاً أعلن بأن لا باعث لمقاله إلا الإخلاص لحليفه النبي وأصحابه حيث قال مجيباً على مقالة أبي بكر الصديق : أما والله لولا

(١) أنظر ترجمة المقداد في كتابنا (غزوة بدر الكبرى) .

(٢) الجلايب : جمع جلاب ، وهو الإزاء والرداء .

يَدُّ لَكَ عِنْدِي لِأَجْبَتِكَ فَوَ اللَّهِ مَا أَنْتُمْ أَنَا وَلَا قَوْمِي ، أَلَا أَتُكُونُ أَحَبُّ إِلَيَّ أَنْ يَظْهَرَ مُحَمَّدٌ ، إِنِّي رَأَيْتُ قَرِيشًا مُقَاتِلَتَكَ عَنْ ذُرَارِيهَا وَأَمْوَالِهَا ، قَدْ خَرَجُوا إِلَى بَادِحٍ ، فَضَرَبُوا الْأَبْيَنَةَ ، مَعَهُمُ الْعَوْذُ الْمَطَافِيلُ ^(١) ، وَرَادَفُوا عَلَى الطَّعَامِ يَطْعَمُونَ الْجُزْرَ مِنْ جِئَانِهِمْ ، يَنْتَقُونَ بِهِمْ عَلَى حَرْبِهِمْ ، قَبْرُ رَأْيِكَ .

وعندما تبليغ النبي ﷺ نبأ شطط قريش وتصلفها وطغيانها - وإصرارها (هكذا) على منعه من زيارة البيت (بغياً وعدواناً) قال مبدئاً أسفه الشديد لهذا التصرف الجاهلي الأحق :

(يا ويح قريش لقد أكلتهم الحرب ماذا عليهم لو خلوا بيني وبين سائر العرب ، فإن هم أصابوني كان الذي أرادوا ، وإن أظهرني الله عليهم دخلوا في الإسلام وافرين ، وإن لم يفعلوا قاتلوا بهم قوة ، ثم أعلن ﷺ تصميمه على المضي في نشر رسالته مهما كانت فعالية القوة التي تحاول الوقوف في وجهها لصد ثياريها قائلاً :

فَوَ اللَّهِ لَا أَرَأَى أَجَاهِدُ عَلَى الَّذِي بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ ، حَتَّى يَظْهَرَ اللَّهُ أَوْ تَنْفَرِدَ هَذِهِ السَّالِفَةُ .

ثم تبليغ النبي ﷺ من عيونه (رجال استخباراته) : أن أساطين الكفر في مكة قد خرجوا بقرارهم المتهور من حيز القول إلى حيز الفعل فحشدوا كل ما لديهم من قوة وعسكرها بها في وادي بادهج .. وأنهم قد استنفروا حلفاءهم من ثقيف بقيادة عروة بن مسعود ، وحلفاءهم من

(١) العوذ (بضم العين) : جمع هائذ وهي الإبل الحديثة التاج ، والمطافيل : جمع مظل وهي التي لها ظلي ، يريد أنهم صمموا على صدته عن الحرم إلى درجة إخراج النساء والصبيان معهم للملاقاة .

الأحباش بقيادة الحليس بن زيان^(١) فأتاعوهم جميعاً وانضموا إلى معسكرهم .

نذر الحرب :

وهكذا (وباتخاذ قريش ذلك القرار المتعسف المخالف للقيم والتقاليد المرعية حتى بين الوثنيين العرب) تراءت نذر الحرب في الأفق ، والتي لم يأت لها المسلمون ولم يفكروا فيها عندما خرجوا من المدينة معتمرين ملبين مكبرين .

ومع كره النبي ﷺ للحرب وعدم رغبته في خوضها مع قريش ، فقد أدخل في حسابه أن قريشاً قد تُقدم على مثل هذا التصرف الأخرق الذي أقدمت عليه .. فاتخذ كل الاحتياطات الضرورية تحسباً للطوارئ فظل أصحابه (في حالة استنفار واستعداد بحملون السلاح وهم في حالة الإحرام لأبسين نسك العمرة) .

النبي يتحاشى الصدام المسلح :

غير أن النبي ﷺ مع كل ما صنعتته قريش من التحدي ومع ما قامت به من استفزاز للمسلمين وتحرش بهم ، بتكليفها قائد

(١) الحليس (بضم الحاء وفتح اللام) سيد بني كنانة وزعيم الأحباش جميعاً ، كان منبذاً مطاعاً راجع العقل ، ولم يصل إلى علمي هل أسلم أم مات مشركاً ، وقد انتقد قريشاً أشد الانتقاد في موقفها المتصلب في منع النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه من أداء مناسك العمرة .

فرسانها خالد بن الوليد بأن يربط بمائتين من الفرسان في الطريق الرئيسي بين عسفان ومكة لا اعتراض المسلمين ومنعهم من المرور بالقوة .. فإنه ﷺ قرر أن يتحاشى الصدام المسلح مع قومه ما أمكنه ذلك حرصاً منه على حقن الدماء التي ليس شيئاً أبغض إليه من إراقتها بدون مبرر وخاصة في تلك الظروف التي لم يأت فيها لحرب أو قتال وإنما جاء فقط لزيارة البيت الحرام .

ولذلك قرر أن لا يمر في طريقه إلى مكة بالطريق الرئيسي الذي يأتي من ناحية الشمال وينتهي عند حدود الحرم جنوباً عند التنعيم ثم مكة .

غير أنه يظهر أن خالد بن الوليد قائد فرسان المشركين قد سار في طريق التحدي بسرعة مذهلة وبصورة جعلت النبي ﷺ وأصحابه أمام امتحان صعب للغاية .

فقد تحرك خالد بفرسانه من كراع الغميم إلى وادي عسفان حيث يعسكر النبي ﷺ بالمسلمين ، وقصد خالد من ذلك (دونما شك) هو تحدي المسلمين وإثارتهم ، ومحاولة اقتناص فرصة يتمكن فيها قائد سلاح فرسان مكة من ضرب المسلمين فيها ضربة قاتلة .

وقد كان تصرف خالد المتحدى هذا كافياً لأن يجعل المسلمين يُعجلون بالصدام ويقابلون استفزازات خالد المثيرة بالهجوم عليه ، لا سيما وأنه جاء في صورة المهاجم المعارض المتحدى .. نعم لقد كان يمكن أن يحدث ذلك من جانب المسلمين ، لولا أنهم عرفوا أن نبيهم ﷺ لا يرغب في مقاتلة قومه ما وجد إلى تجنب هذا القتال سبيلاً . ولهذا كظموا غيظهم أمام استفزاز وإثارة قائد سلاح فرسان المشركين مع

قدرتهم التامة على تأديبه وزدعه ووضع حد (بحد السيف) لتحديده واستفزازه .

ولقد بالغ خالد بن الوليد الذي كان قائد أول قوة المشركين يواجهها المسلمون في رحلتهم السلمية التاريخية هذه .. بالغ في التحدي والاستفزاز إلى أن وقف بخيأته المائتين بين المسلمين وبين القبلة وقت أداء الصلاة في عُسفان مستفزاً بذلك مشاعرهم ومستعرضاً عضلات قريش ومُدخلًا في روع المسلمين بأن صنيعة هذا هو أحد مظاهر قوة قريش العسكرية الضاربة القادرة على منع المسلمين من دخول مكة في صورة من الصور .

سلاح فرسان الفريقين في حالة المواجهة :

وإزاء تصرف خالد بن الوليد هذا ، أمر النبي ﷺ قائد سلاح فرسان المسلمين (عباد بن بشر) أن يقف بفرسانه إزاء فرسان خالد لصد أية محاولة قد يقوم بها خالد على حين غرة بالهجوم على المسلمين ، فصنف عباد بن بشر فرسانه ، وبهذا أصبح خيالة الفريقين في حالة مواجهة كاملة .

ومع هذا فقد تلقى قائد سلاح فرسان المسلمين (على ما يظهر) أمراً من النبي ﷺ بأن لا يباشر أى قتال ضد فرسان خالد بن الوليد إلا في حالة واحدة هي حالة الدفاع عن النفس ومنع أية محاولة قد يقوم بها خالد للهجوم على النبي وأصحابه .

صلاة الخوف في عسفان :

وقد اضطر النبي ﷺ لإزاء تحقير خيالة المشركين وتحرشهم بالمسلمين - أن يصلي بالمسلمين صلاة الخوف ، وهي صلاة خاصة بمن هم في حالة حرب ، يجوز فيها ما لا يجوز في غيرها من صور الصلاة المعتادة .

خالد يحاول مهاجمة المسلمين وقت الصلاة :

وقد حاول قائد فرسان مكة أن يشن هجوماً كاسحاً على المسلمين وهم في حالة الصلاة ، إلا أن النبي ﷺ تنبه لذلك فصلى بأصحابه صلاة الخوف ، وبهذا أحبط على خالد بن الوليد خطته التي بها أراد أن يأخذ المسلمين على حين غرة فيضربهم وهم في صلاتهم آمنين .

قال الواقدي (المغازي ج ٢ ص ٥٨٢) : (ودنا خالد بن الوليد في خيابه حتى نظر إلى أصحاب رسول الله ﷺ ، فصصف خيله فيما بين رسول الله ﷺ وبين القبلة ، وهي مائتا فارس ، وأمر رسول الله ﷺ ، عبادة بن بشر فتقدم في خيله فقام بإزائه فصصف أصحابه ، فحانت صلاة الظهر فأذن بلال وأقام ، فاستقبل رسول الله ﷺ القبلة وصنف وصف الناس خلفه يركع بهم ويسجد ، ثم سلم فقاموا ما كانوا عليه من التعبئة ، فقال خالد بن الوليد : قد كانوا على غرة لو كنا حملنا عليهم لأصبنا منها ، ولكن تأتى الساعة صلاة هي أحب إليهم من أنفسهم وأبنائهم (يعنى صلاة العصر) .

(وكان خالد بهذا القول قد قرر الهجوم عليهم وقت صلاة العصر ، ولا شك أنه سينزل بهم خسائر فادحة لو صلوا صلاتهم العادية ، ولكن

النبي ﷺ أحبط محاولة خالد الغادرة إذ صلى بأصحابه صلاة الخوف (قال الواقدي : (فحانت العصر فأذن بلال ، وأقام ، فقام رسول الله ﷺ مواجهاً القبلة والعدو وأمامه وكبر رسول الله ﷺ وكبر الصفان جميعاً ، ثم ركع وركع الصفان جميعاً ، ثم سجد فسجد الصف الذي يليه وقام الآخرون يحرسونه ، فلما قضى رسول الله ﷺ السجود بالصف الأول وقاموا معه ، سجد الصف المؤخر السجدةتين ، ثم استأخر الصف الذي يلونه ، وتقدم الصف المؤخر ، فكانوا يلون رسول الله ﷺ فقاموا جميعاً ، ثم ركع رسول الله ﷺ فركع الصفان جميعاً ، ثم سجد رسول الله ﷺ وسجد الصف الذي يلونه ، وقام الصف المؤخر يحرسونه مقبلين على العدو ، فلما رفع رسول الله ﷺ رأسه من السجدةتين سجد الصف المؤخر السجدةتين اللتين بقيتا عليهم ، واستوى رسول الله ﷺ جالساً فتشهد ، ثم سلم عليهم ، فكان ابن عباس يقول : هذه أول صلاة صلاها رسول الله ﷺ في الخوف .

وعن وهب بن كيسان عن جابر بن عبد الله قال : صلى رسول الله ﷺ صلاة الخوف في غزوة ذات الرقاع ، ثم صلاها بعد بعسفان بينهما أربع سنين ^(١) ، قال الواقدي : وهذا أثبت عندنا .

الحديبية بدلا من التعميم :

ومع كل ما أقدمت عليه قريش من تحذّر واستفزاز بحشد جيوشها وإعلانها أنها ستصعد المسلمين عن المسجد الحرام ، وبالرغم من تكليفها

(١) انظر تفاصيل غزوة ذات الرقاع في كتابنا (غزوة الأحزاب) الفصل الأول .

قائد سلاح فرسانها خالد بن الوليد باعتراض سبيل المسلمين في الطريق ومحاولة الهجوم عليهم في عُسفان إن أمكنه ذلك ، وهو ما قام به خالد ابن الوليد (فعلاً) كما تقدم ، الأمر الذي يعتبر (مصراحة) عملاً حربياً تقوم به قريش (بغياً وعدواناً ضد المسلمين) مع كل هذا قرر النبي ﷺ أن يتحاشى الصدام المسلح مع خالد بن الوليد الذي قطع الطريق على المسلمين بخيله محاولاً استدراجهم إلى الاشتباك معه وجرحهم إلى خوض حرب ما جاؤوا لها ولا يرغبون فيها .

وقد كان قرار النبي هذا نابعاً من حرصه على حقن الدماء التي لا مبرر لإراقتها وخاصة في تلك الظروف التي لم يأت فيها لحرب وإنما جاء (فقط) زائراً أبیت الله الحرام .

لذلك قرر أن لا يمر (في طريقه إلى مكة) بالطريق الرئيسي الذي سده خالد بن الوليد بمائتين من الفرسان ، والذي لا يمكن للنبي وأصحابه أن يمرؤا به دون أن يشتبكوا مع خالد وفرسانه في صدام مسلح .

لقد كان المفروض أن يستمر النبي ﷺ وأصحابه في تحركهم من عسفان نحو الجنوب في اتجاه مكة (عبر التنعيم) ^(١) وهو الطريق الرئيسي المعتاد أن يطرقه كل من يقصد مكة من المدينة .

ولكنه بناءً على القرار الذي اتخذه بتجنب الاشتباك مع فرسان خالد بن الوليد - وبالتالي بتجنب القتال مع قومه بصورة عامة ، ما وجد إلى ذلك سبيلاً - فقد قرر أن يغير اتجاهه بحيث يمكنه المرور بأصحابه

(١) التنعيم ، قال في مراصد الاطلاع : (موضع بمكة خارج الحرم ، وهو أدنى الحل إليها على طريق المدينة وهو على ثلاثة أميال عن مكة .

من طريق تقضى بهم إلى مكة دون أن تمرّوا بالطريق الذي يربط فيه
خالد بن الوليد بفرسان قريش ، فقال ﷺ : (هل من رجل يخرج
بنا على طريق غير طريقهم التي هم بها ؟) (١) .

ثم قال النبي ﷺ - آمراً بتغيير اتجاه السير - : تيامنوا في
هذا العمل ، فإن عيون قريش بمر الظهران أو بضجنان ، فأياكم يعرف
ثنية ذات الحنظل ؟ .

وبعد أن سأل ما إذا كان أحد من أصحابه يعرف طريقاً إلى مكة
لا تمر بحيل خالد بن الوليد ، ويعرف ثنية ذات الحنظل قال بريدة
ابن الحصيب الأسلمي : أنا يارسول الله عالم بها . فقال النبي ﷺ :
أسلك أماننا .

وقد سلك الدليل بالنبي ﷺ وأصحابه ذات اليمين بعد أن انحرف
بهم عن الجادة ، فسلك بهم طريقاً وعراً غير مطروق ، وما زالوا يسيرون
في مسالك مجهولة وعرة حتى أفضوا إلى سهل الحديبية ، عبر مضيق
(ذات الحنظل) .

النبي وأصحابه يضلون الطريق عدة مرات :

وبسبب كون المسالك التي سلكها النبي ﷺ وأصحابه مهجورة
وليست من الطرق المعروفة إلا لدى أفراد قلائل من بادية المنطقة ، لقي
النبي وأصحابه عناء شديداً أثناء مرورهم بهذا الطريق .

(١) سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٣٠٩ .

فقد ضلوا الطريق إلى الحديبية ثلاث مرات بعد أن فشل ثلاثة من بنى سليم (العالمين بمسالك المنطقة) في معرفة هذا الطريق ، وتحيروا فيها ، بالرغم من أنه قد سبق لهم أن مروا بها عدة مرات .

فقد جاء في (مغازي الواقدي ج ٢ ص ٥٨٣) ، أن الدليل الأول (بريدة بن الخصيب الأسلمي) قاد النبي وأصحابه في طريق متعرج كان قد سلكه عدة مرات قبال جبال سراوع قبال الغرب ، فسار قليلاً تنكبه الحجارة وتعلقه الشجر ، وحر حتى كأنه لم يعرفها قط ، فقال بريدة : (وكانه أعان فشله في معرفة الطريق) : فوالله إن كنت لأسلكها في الجمعة مرراً .

فلما رآه رسول الله ﷺ حائراً لا يتوجه ، قال له : اركب ، ثم نادى رسول الله ﷺ : من رجل يدلنا على طريق ذات الحنظل ؟ فنزل حمزة بن عمرو الأسلمي فقال : أنا يا رسول الله أدلك ، فسار قليلاً ثم سقط بهم في خمر الشجر فلا يدرى أين يتوجه ، فقال رسول الله ﷺ ، اركب ، ثم نادى ﷺ مرة أخرى : من رجل يدلنا على طريق ذات الحنظل ، فنزل عمرو بن عبد نهم الأسلمي فقال : أنا يا رسول الله أدلك ، فقال : انطلق أمامنا ، فانطلق عمرو أمامهم حتى نظر رسول الله ﷺ إلى الثنية فقال : هذه ثنية ذات الحنظل ؟ فقال عمرو : نعم يا رسول الله ، فلما وقف على رأسها تحنن به . قال عمرو : والله إن كان ليهمني نفسي وجلدي ، إنما كانت مثل الشراك فأتسعت لي حتى برزت وكانت محجة لا حبة ، ولقد كان النفر يسيرون تلك الليلة جميعاً معطفين من سعتها يتحدثون .

الكلمة التي عرضت على بني إسرائيل :

وبعد الخروج من متاعب الضياع في الطريق ، وبعد الوصول إلى ثنية ذات الحنظل عند منقطع الوادي ، طرف سهل الحديبية أضاعت السماء الأرض تلك الليلة حتى كأن الناس في قمر (لم تكن ليلة مقمرة) فقال رسول الله ﷺ : فوالذي نفسي بيده ما مثل هذه الثنية الليلة مثل الباب الذي قال الله لبني إسرائيل : ﴿ رادخلوا الباب سجداً وقولوا حطة ﴾ ، وقال الرسول ﷺ : الكلمة التي عرضت على بني إسرائيل : (لا إله إلا الله وادخلوا الباب سجداً) قال : باب بيت المقدس ، فدخلوا من قبل أستاهم وقالوا : (حبة في شعيرة) ، وقال ﷺ : الكلمة التي عرضت على بني إسرائيل ، أن يقولوا : « نستغفر الله ونتوب إليه » . ويقول ابن إسحاق : إن النبي ﷺ لما مرَّ بأصحابه في ذلك الطريق الوعر المهجور الذي شق عايهم أرهقهم - وقد أفضوا إلى أرض سهلة عند منقطع الوادي - قولوا : نستغفر الله ونتوب إليه ، فقالوا ذلك ، فقال ﷺ : والله إنها للحطة ^(١) التي عرضت على بني إسرائيل ، فلم يقولوها ^(٢) .

أصحاب الثنية المغفور لهم :

قالوا : ثم قال رسول الله ﷺ (وهم يجتازون ثنية ذات الحنظل) هذه الثنية أحد إلا غفر الله له .

(١) الحطة : بكسر الحاء مع تشديد الطاء - يريد قول الله تعالى لبني إسرائيل (كنا في سورة البقرة) : (وقولوا حطة) ومعناه : اللهم حط عنا ذنوبنا .

(٢) سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٣٠٩ .

قال أبو سعيد الخدرى^(١) : وكان أخى لأُمى قتادة بن النعمان^(٢) في آخر الناس ، قال : فوقفت على الثنية فجعلت أقول للناس : أن رسول الله ﷺ قال : (لا يجوز هذه الثنية إلا غفر له) فجعل الناس (وكانوا ألفاً وأربعمائة) يسرعون حتى جاز أخى في آخر الناس ، وفرقت^(٣) أن يصبح قبل أن يجوز^(٤) .

بعيره أهم إليه من أن يستغفر له الرسول :

وعن أبى سعيد الخدرى أن رسول الله ﷺ قال - حين نزل ليلاً : من كان معه ثقل^(٥) فليصطنع^(٦) ، قال أبو سعيد الخدرى : وإنما كان عامة زادنا التمر ، فقلنا : يا رسول الله ، إنا نخاف من قرينش أن ترانا ، فقال ﷺ : إنهم لن يروكم ، إن الله سيعينكم عليهم ، فأوقدوا النيران ، واصطنع من أراد أن يصطنع ، فلقد أوقدوا أكثر من خمسمائة نار . فلما أصبحنا صلى رسول الله ﷺ الصلوة ثم قال : والذي نفسى بيده ، لقد غفر الله للركب أجمعين إلا رويكباً واحداً على جمل أحمر ، التقت عايه رجال القوم ليس منهم ، فطلب في العسكر وهو يظن أنه من أصحاب رسول الله ﷺ فإذا به ناحية إلى ذرى سعيد ابن عمرو بن نفيل من بنى ضمرة أهل سيف البحر ، فقيل لسعيد :

(١) انظر ترجمة أبى سعيد الخدرى في كتابنا (غزوة أحد) .

(٢) هو قتادة الخ .

(٣) فوق بكسر الراء : خشى .

(٤) مغازى الواقدي ج ٢ ص ٥٨٥ .

(٥) الثقل : بفتح أوله وثانيه (الدقيق) .

(٦) اصطنع : المراد به هنا طبخ على النار .

إن رسول الله ﷺ قال كذا وكذا . قال سعيد للضمري : ويحك ، اذهب إلى رسول الله ﷺ يستغفر لك ، قال : بعيري والله أهم إلي من أن يستغفر لي - وإذا هو قد أضلَّ بعيراً له يتبع العسكر يتوصل بهم ويطلب بعيره - وأنه لي عسكركم فأدوا لي بعيري . فقال سعيد : تحول عني لأحيأك الله إلا لا أرى قربى إلا داهية ، وما أشعر به .

فانطلق الأعرابي يطلب بعيره بعد أن استبرأ العسكر ، فبينما هو في جبال سراوع إذ زلقت نعله فتردى فمات فما علم به حتى أكلته السباع (١) .

عودة خالد إلى مكة :

وبعد أن تأكد لدى خالد بن الوليد أن النبي ﷺ قد التف حوله ذات اليمين وأنه قد وصل بأصحابه إلى سهل الحديبية (عبر ذلك الطريق الوعر الغير المسالك) ، وأنه يعتزم دخول الحرم من ناحية الغرب (عبر الحديبية) أغاظه ذلك ، لأن النبي ﷺ بانحرافه ذات اليمين فوَّت على خالد الفرصة إذ نسف خطته المحكمة التي رسمها للقاء المسلمين وضرهم في مرقع استراتيجي اختاره هو وعسكر فيه بفرسانه لينقض منه على المسلمين حالة وصولهم .

ولقد كرَّ خالد بفرسانه راجعاً إلى مكة ليُبلغ قادة قريش بما حدث ويتلقى منهم تعليمات جديدة بعد أن نسف الرسول ﷺ خطته الأساسية باتجاهه بأصحابه نحو الحديبية بدلاً من التمتع الطريق

(١) مغازي الواقدي ج ٢ ص ٥٨٥ وما بعدها .

الطبيعى الرئيسى والأقرب لمن يريد مكة قادماً من المدينة (انظر خريطة الحرم) .

لم يكن النبي ﷺ يقصد بتحاشى الصدام مع فرسان خالد فى كراع الغميم على الطريق الرئيسى .. لم يكن يقصد التراجع عن دخول مكة لأداء مناسك العمرة .. وإنما يقصد التنزه عن سفك الدم وإعطاء قريش فرصة أطول لعلها تعود إلى صوابها ، فتخلّى بينه وأصحابه وبين البيت ليطوفوا به ويسعوا سالمين ثم يعودوا من حيث أتوا سالمين كما هى خطتهم منذ تحركوا من المدينة .

ومع رغبة النبي ﷺ فى تجنب الحرب .. وابتعاده لذلك عمّا يؤدّى إلى الصدام المساح كما فعل عندما تحاشى المرور بفرسان خالد فى كراع الغميم .. مع ذلك فقد ظل الجو مكهرباً والموقف على غاية من الدقة .

فالمسلمون قد قطعوا أكثر من مائتين وخمسين ميلاً محرمين بالعمرة ، وها هم بعد ذلك السفر الشاق قد وصّالوا حدود الحرم ولم يبق بينهم وبين البيت العتيق الذى خرجوا لزيارته سوى عدة أميال لا تزيد على العشرة .

ومن الصعب عليهم جداً ، أن يعودوا إلى المدينة دون أن يحققوا أمّنتهم التى قطعوا كل هذه المسافات الطويلة الشاقة من أجل تحقيقها وهى زيارة البيت العتيق .

وقريش من ناحيتها قد أقسمت أن لا يدخل محمد وأصحابه مكة صنوةً .. وحشدت لتبر هذا القسم الآثم كل إمكاناتها العسكرية ، كما

استنفرت كل حلفائها من ثقيف والأحابيش ليقفوا إلى جانبها ضد المسلمين .

وها هي تغدو وتروح ينزو بها الغضب ويشتط بها الكفر ويجمع بها الشرك .. قد لجأت في العناد وأمعنت في البغي ، قد أخذ الشيطان مقودها وسار بها في دروب العناد والمكابرة .

فتمد خرجت بجيرشها التي كانت ترابط بالقرب من التنعيم شمال مكة حيث من المنتظر أن يمر النبي ﷺ بأصحابه إلى مكة .. خرجت بجيرشها إلى منطقة الحديبية وعسكرى بها داخل الحرم بالقرب من الحديبية مصمة على منع النبي وأصحابه من اجتياز حدود الحرم بقوة السلاح تساندها قوات كبيرة من حلفائها ثقيف والأحابيش .

حابس الليل :

وبهذا أصبحت الحرب بين الفريقين قاب قوسين أو أدنى .. بعد أن أصبح كل منهما قريباً من الآخر ، فالنبي ﷺ وأصحابه بعد أن أفضى بهم الدليل من الطريق الفرعى إلى سهل الحديبية غربى الحرم .. أخذوا في التحرك نحو مكة مصممين على دخولها معتمرين ومصريين على مقاتلة قريش إن هي حاولت منعهم بالحرب .

غير أنه وبينما كان ﷺ يقترب وأصحابه من حدود الحرم (في منطقة الحديبية) ، حدث حادث عجيب عاقه عن اجتياز حدود الحرم . وكأن الله تعالى أراد بذلك الحادث العجيب أن يجنب الفريقين مأساة مجزرة رهيبة ، كانت وشيكة الحدوث ، لو اجتاز النبي ﷺ وأصحابه حدود الحرم نحو مكة .

فقد بركت ناقته (القَصْوَى) وكانت من أجود النوق المطايع ..
 بركت القصوى مكانها بالقرب من حدود الحرم ، ولم تنهض من
 مبركها بالرغم من محاولة إنهاضها ، فظن الناس أنها تعبت فعجزت ،
 فقالوا : خلأت القصوى (أى حزن) (١) ، فقال النبي ﷺ : ما خلأت
 وما هو لها بخُلُق ولكن حبسها حابس الفيل عن مكة . ثم قال ﷺ (بعد
 أن أدرك ما لم يدركه غيره) : والذي نفس محمد بيده لا تدعوني
 قريش اليوم إلى خطة يسألوني فيها صلة الرحم إلا أعطيتهم إياها (٢) ،
 رواية : لا يسألوني (أى قريش) اليوم خطة فيها تعظيم حرمت الله
 تعالى إلا أعطيتهم إياها (٣) .

وهذا إعلان صريح من النبي الأعظم ﷺ بأنه مستعد (من أجل
 حقن الدماء في الحرم) للتفاوض مع قريش إلى أبعد الحدود ، وأنه
 سيبدل كل ما في وسعه للحيلولة دون إراقة الدماء ما وجد إلى ذلك
 سبيلاً .

ثم زجر ناقته فقامت ، فعاد بها راجعاً عوده على بدنه (٤) أمراً
 أصحابه بالنزول في الحديبية ، وقرر عدم اجتياز حدود الحرم وأصدر
 بذلك أمراً حتى إشعار آخر .

فأطاع أصحابه (وعددهم ألف وأربعمائة) أوامره فنزلوا على
 بئر في الحديبية ، ويظهر أنها البئر التي يراها اليوم الذاهب إلى مكة
 على يمينه بالقرب من أعلام الحرم في الشمسي .

(١) أى استعصت ولم تقم من مبركها ، وهو عيب في الإبل .

(٢) سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٣١٠ .

(٣) الواقدي ج ٢ ص ٥٨٧ .

(٤) انظر مغازي الواقدي ج ٢ ص ٥٨٧ .

هكذا (وبالرغم من أن النبي ﷺ قادر على اقتحام مكة عنوة بما لديه من قوات قلادة على قهر المشركين .. تعرف قريش ما سيصيبها من دمار على يدها ، إذا ما التحمت معها في صدام مسلح) فإنه ﷺ - رغبة منه في حقن الدماء - قد آثر التريث ، وظل برجاله معسكراً خارج حدود الحرم في انتظار ما تأتى به الأقدار ، مما يمكن أن تكون فيه مصلحة الفريقين .

فأهل عقلاء قريش يكبحون من جماح سفهاء قومهم وغلاتهم - فيتخلون عن فكرة استخدام القوة لصد المسلمين عن زيارة البيت ، فيؤدّي المسلمون العمرة دونما إراقة قطرة دم ، ثم يعودون إلى عاصمتهم المدينة التي لم يخرجوا منها إلا لزيارة البيت .

وبالرغم من التزام النبي ﷺ بجانب التسامح وسلوكه سبيل التريث ضناً بالدماء من أن تراق في الحرم ، فقد استمرت قريش في عنادها ، فأبقت قواتها بجانب المسلمين في حالة استنفار عام .. بل لقد ذهبت في الشطط والغرور إلى أبعد من ذلك ، حيث حاول بعض سفهاء المشركين الهجوم على المسلمين وأخذهم على حين غرة في الظلام .

إلا أن الصحابة الذين كانوا يقومون بأعمال الدورية بقيادة رئيس المخرس محمد بن مسلمة الأنصاري ، أحبطوا مؤامرة هؤلاء السفهاء ، وحالوا بينهم وبين التسلل إلى معسكرات المسلمين التي اعتزموا التسلل إليها ليلاً للقتل والاغتيال ، كما سيأتى تفصيله إن شاء الله .

فصائل حراسة المسلمين :

وعندما وصل النبي ﷺ إلى سهل الحديبية وقرر التريث والانتظار فيها - ونظراً لحالة التوتر الشديد التي نجمت نتيجة بغى قريش

وتعنتها وتهديدها المسلمين بمنعهم من دخول الحرم عن طريق الحرب -
فقد أمر بإنشاء ثلاث كتائب من أصحابه للقيام بأعمال الحراسة في
الحديبية لصد أى عدوان قد يقوم به الطائشون من القرشيين .

وكان قادة فصائل الحراسة هذه ثلاثة كلهم من الأنصار وهم :

١- عباد بن بشر .

٢- أوس بن خولى .

٣- محمد بن مسلمة ،

وكان هؤلاء القادة الثلاثة يبيتون يحرسون معسكر المسلمين بالتناوب
كل ليلة يحرس واحد من رجاله المعسكر ، يقوم بأعمال الدورية
حول المعسكر حتى الصباح ^(١) .

معجزة الرسول في الحديبية :

وعندما عاد النبي ﷺ بأصحابه إلى الحديبية بعد أن قرر عدم
التعجل في دخول مكة ، وأعلن ما يمكن تسميته فتح باب المفاوضات
لإيجاد حل سلمى للمشكلة التى بلغت بينه وبين قومه حد الانفجار ،
وذلك بقوله : « والذى نفس محمد بيده لا تدعونى قرىش اليوم إلى
خطبة يسألونى فيها صلة الرحم إلا أعطيتهم إياها » ^(٢) .

(١) انظر مغازى الواقدي ج ٢ ص ٢٠٦ .

(٢) مغازى الواقدي ج ٢ ص ٥٨٧ .

عندما عاد إلى الحديبية نزل بأصحابه على بئر ليس فيها من الماء إلا شيء يسير ، تسابق إليه الصحابة كلٌ يريد أن يشرب ويسقى فرسه أو بغيره ، فوجدوا أن الماء الذى فى البئر لا يكفى لإرواء عطش نفر قليل ، وكان الصحابة ألفاً وأربعمائة أكثرهم راكباً .

وقد تفاقم الأمر واشتدت أزمة الماء إلى درجة خطيرة أصبحت معها حياة الصحابة ومواشيهم مهددة ، لا سيما إذا أخذنا بعين الاعتبار أنهم سيقومون بالحديبية مدة غير قصيرة ، وأنه لا يوجد مصدر للماء فى تلك المنطقة ، وما يمكن الالتجاء إليه من مياه قريبة من الحديبية قد سطر عليها القرشيون ومن المستحيل فى ذلك الظرف المتوتر (غاية التوتر) أن يسمحوا للمسلمين بالسقيا منها .

وعندما بلغت أزمة الماء غايتها وحرار الصحابة ماذا يصنعون جاؤوا إلى رسول الله ﷺ واشتكوا له ما يعانون من نقص خطير فى الماء ، فلجأ إلى ربه سبحانه وتعالى ، ثم أمر أحد أصحابه بأن ينزل فى عين البئر الشحيحة بالماء وأن يغرز فيها سهماً أعطاه إياه بيده الشريفة ، ولم يكد صاحبه يغرز السهم فى عين البئر حتى تدفقت منها المياه بغزارة إلى درجة أن امتلأت البئر بالماء ، فارتوى الصحابة وأرووا خيلهم ، وهذا حل الله مشكلة الماء الخطيرة ، وعادت إلى الصحابة طمأنينتهم الكاملة ، وتعاضم إيمانهم بنبيهم العظيم ﷺ .

فقد جاء فى كتب الحديث والتاريخ أن النبي ﷺ لما عاد راجعاً بأصحابه إلى الحديبية - وكان قد اتجه نحو مكة - نزل بالناس على

ثمَّ (١) من ثمَّاد البدنيية ظنون (٢) قليل من الماء تبرضاً (٣) ، فاشتكى الناس إلى رسول الله ﷺ قلة الماء ، فانتزع سهماً من كنانته فأمر به فيغرز في الثمد فجاشت لهم بالرواء حتى صدروا عنه (٤) يعطان (٥) قال : وإنهم ليغرفون بأنيتهم جالوساً على شفير البئر ، والذي نزل بالسهم في البئر ناجية بن الأعجم (٦) من أسلم ، ويقال إن الذي نزل بالسهم في البئر حتى جاشت هو ناجية بن جندب الأسلمي (٧) .

فكان ناجية بن الأعجم يحدث فيقول : دعاني رسول الله ﷺ حين شكى إليه قلة الماء ، فأخرج سهماً من كنانته ودفعه إليّ ودعاني بدلو من ماء البئر ، فجثته به فتوضأ ، فقال : مضض فاه ، ثم منج في الدلو ، والناس في حر شديد وإنما هي بئر واحدة وقد سبق المشركون إلى بلدح فغلبوا على مياهه ، فقال : انزل بالماء فصبه في البئر وأثر (٨) ماءها بالسهم ، ففعلت فو الذي بعثه بالحق ما كنت أخرج حتى كاد يغمرني ، وفارت كما تفور القدر حتى طمّت ، واستوت بشفيرها يغترفون ماء من جانبها حتى نهلوا من آخرهم .

(١) الثمد : بفتح أوله وثانيه : الماء القليل الذي لا مادة له ، كذا قال في الصحاح ، ص ٤٤٨ .

(٢) الظنون : بفتح أوله : قال في الصحاح ص ٢١٦٠ : البئر التي لا يدري أفيها ماء أم لا ، ويقال القليلة الماء .

(٣) قال في الصحاح ص ١٠٦٦ : (برض الماء من العين إذ خرج وهو قليل) .

(٤) صدر عن الماء : تركه .

(٥) العطن بفتح أوله وثانيه : مبرك الإبل حول الماء .

(٦) هو ناجية بن الأعجم الأسلمي قال في الإصابة : ذكره ابن سعد في الصحابة كان ناجية هذا يحمل لواء بني سليم يوم الفتح ويحمل اللواء الثاني بريدة بن الحصيب ، قال ابن شاهين : مات ناجية بالمدينة في آخر خلافة معاوية .

(٧) ناجية بن جندب : تقدمت ترجمته فيما مضى من هذا الكتاب .

(٨) أثر في الشيء : ترك الأثر فيه .

موقف المنافقين من هذه المعجزة :

وقد كان نفر من المنافقين (عبد الله بن أبي^(١) والجد بن قيس^(٢)) حاضرين عندما جاشت البشر بالماء ، فدار بينهم نقاش حول المعجزة النبوية ، وقد لام بعضهم عبد الله بن أبي ، على التمسك بالسير في خط النفاق بعد الذي رأوا بأعينهم . ولكنه أصر على أن يبقى وأصحابه في عماء النفاق .

قال ناجية بن الأعجم : وكان على الماء يومئذ نفر من المنافقين ، الجد بن قيس وأوس ، وعبد الله بن أبي ، وهم جلوس ينظرون إلى الماء ، والبشر تجيش بالرواء وهم جلوس على شفيرها ، فقال أوس ابن خولى^(٣) لعبد الله بن أبي : ويحك يا أبا الحباب ، أما آن لك أن تبصر ما أنت عليه ؟ أبعد هذا شيء ؟ وردنا بشراً يتبرّض ماؤها - يتبرّض : يخرج في القعب جرعة ماء - فتوضأ رسول الله ﷺ في الدلو ومضمض فاه في الدلو ، ثم أفرغ الدلو فيها ونزل بالسهم فحشحتها فجاشت بالرواء . قال : يقول ابن أبي : قد رأيت مثل هذا ، فقال أوس : قبّحك الله وقبّح رأيك .

(١) انظر ترجمة ابن أبي في كتابنا (غزوة بدر) :

(٢) تقدمت ترجمة الجد بن قيس فيما مضى من هذا الكتاب .

(٣) هو أوس بن خولى بن عبد الله بن الحارث الخزرجي الأنصاري ، كان رجلاً قوي البنية خلفه رسول الله صلى الله عليه وسلم على مفرزة من أصحابه ليتربّوا قريشاً في عمرة القضاء ويحيطوا عليها أي كيد تريد أن تكيد به المسلمين ، خلفه على هذه المفرزة بلدى غلوى (ضواحي مكة) ذكره الزهري وموسى بن عقبة فيمن شهد بدراً ، وأخى الرسول صلى الله عليه وسلم بينه وبين شجاع بن وهب ، شارك أوس في غسل النبي صلى الله عليه وسلم بعد وفاته ، ومات أوس في خلافة عثمان قبل حصاره ، وقال في الإضابة : كان أوساً أخذ الخمسة الذين فتكوا بزعم اليهود سلام بن أبي الحقيق في خيبر .

نمذج من نفاق ابن أبي :

وقد بلغ رسول الله ﷺ عدم تسليم عبد الله بن أبي بمعجزته ﷺ ،
الآنفة الذكر وسخريته منها أثناء مناقشة أوس بن خولى له .

ولذلك عندما جاء عبد الله بن أبي إلى مجلس رسول الله ﷺ (وكان
ابن أبي سيداً من سادات الخزرج) ، قال له النبي ﷺ : (أى أبا
الحباب ، أين رأيت مثل ما رأيت اليوم ؟) فقال : ما رأيت مثله
قط ، فذكره النبي ﷺ بما قاله لأوس بن خولى قائلاً : (فلم قلت
ما قلت ؟) فلم ينكر ابن أبي مقالته النكراء ، بل أمقط في يده فقال
(ليتجنب نقمة المسلمين) : استغفر الله ، قال ابنه عبد الله بن عبد الله :
(وكان من أبر وأصلح شباب الصحابة : استغفر له يارسول الله ،
فاستغفر له ﷺ) .

مقالة الجعد بن قيس المنافق :

وكان الجعد بن قيس زعيماً في قومه الأنصار ، وكان لا يبعد عن
ابن أبي من حيث النفاق والبغض للنبي ﷺ ولكنه خرج معه إلى
العمرة ، وإنما لتخذيل الناس عنه وبث الفتنة في نفوسهم إن أمكنه
ذلك .

فقد ذكر الواقدي عن أبي قتادة أنه قال : لما نزلنا على الحديبية ،
والماء قليل ، سمعت الجعد بن قيس يقول : ما كان خروجنا إلى هؤلاء
القوم بشيء ، نموت من العطش عن آخرنا ، قال أبو قتادة : قلت
لا تقل هذا يا أبا عبد الله ، فلم خرجت ؟ قال : خرجت مع قومي : فلم
تخرج معتمراً ؟ قال : لا والله ما أحرمتم . قال أبو قتادة : ولا نوبت

العمرة ؟ قال : لا ، فلما دعا رسول الله ﷺ الرجل فنزل بالسهم ، وتوضأ رسول الله ﷺ في الدلو ومج فاه فيه ، ثم رده في البئر فجاشت البئر بالروء ، قال أبو قتادة : فرأيت الجد ماداً رجله على شفير البئر في الماء ، فقلت : أبا عبد الله أين ما قلت ؟ قال : إنما كنت أمزح معك ، لا تذكر لمحمد مما قلت شيئاً . قال أبو قتادة : وقد كنت ذكرته قبل ذلك للنبي ﷺ قال : فغضب الجد وقال : بقينا مع صبيان من قومنا لا يعرفون لنا شرفاً ولا سناً ، لبطن الأرض اليوم خير من ظهرها ، قال أبو قتادة : وقد كنت ذكرت قوله للنبي ﷺ ، فقال : ﷺ ابنه خير منه . قال أبو قتادة : فلقيني نفر من قومي فجعلوا يؤنبوني ويلوموني حين رفعت مقاتله إلى رسول الله ﷺ ، فقلت لهم : بثس القوم أنتم ، ويحكم ، عن الجد بن قيس تذبون ؟ قالوا : نعم ، كبيرنا وسيدنا . فقلت : وقد والله طرح رسول الله ﷺ سؤده عن بني سلامة ، وسؤد علينا بشر بن البراء بن معرور (١) ، وهلمنا المنايات التي كانت على باب الجد وبنيها على باب بشر بن البراء ، فهو سيدنا إلى يوم القيامة .

يمنع عن المباينة تحت الشجرة :

وقال أبو قتادة : فلما دعا رسول الله ﷺ إلى البيعة (في الحديبية) فر الجد بن قيس ، فدخل تحت بطن البعير ، فخرجت أعدو ، وأخذت بيد رجل كان يكلمني فأخرجناه من تحت بطن البعير ، فقلت : ويحك ما أدخلك هاهنا ؟ أفرأرأها نزل به الروح القدس ؟ قال : لا ، ولكني

(١) انظر ترجمة البراء بن معرور في كتابنا (غزوة خيبر) .

رعبت وسمعت الهيمة ^(١) قال الرجل : لا نضحت عنك أبداً ، وما فيك خير ، فلما مرض الجد بن قيس ونزل به الموت ، لزم أبو قتادة بيته فلم يخرج حتى مات ودفن ، فقبل له في ذلك ، فقال : والله ما كنت لأصلي عليه وقد سمعته يقول يوم الحديبية : كذا وكذا ، وقال في غزوة تبوك : كذا وكذا واستحييت من قومي يروني خارجاً ولا أشهده ^(٢)

الغلام الذي أعجب الرسول بفصاحته :

كانت قبيلة خزاعة اليمانية (مسلمها وكافرها) على ولاء المسلمين ولهذا فإن النبي ﷺ وأصحابه لما نزلوا الحديبية (وكانت قريبة من منازل خزاعة) أحبت خزاعة إظهار مشاعر الود والصداقة للمسلمين فأهدى عمرو بن سالم ^(٣) وبسر بن سفيان الخزاعيان غنماً وجزوراً للمسلمين. أهدى عمرو ، وبُسر غنماً لرسول الله ﷺ وأهدى عمرو بن سالم جزوراً لسعد بن عباد ، وكان صديقاً له ، فجاء سعد بالغنم إلى رسول الله ﷺ فقال ﷺ : وعمرو قد أهدى لنا ما ترى فبارك الله في عمرو ^(٤) .

(١) الهيمة ، بفتح الهاء : (قال في النهاية : الصوت وتفرع وتخافه من عدو) .
(٢) انظر مجمع الزوائد ج ٦ ص ١٤٤ وسيرة ابن هشام ج ٢ ومغازي الواقدي ج ٢ ص ٥٨٧ وما بعدها .

(٣) هو عمرو بن سالم بن حضير بن سالم الخزاعي ، أسلم قبل الفتح وكان أحد أعضاء الوفد الذين جاءوا إلى المدينة يبلغون رسول الله صلى الله عليه وسلم نقض قريش وبني بكر صلح الحديبية باعترافهم على خزاعة والصلح قائم ، حمل عمرو أجله ألوية خزاعة يوم الفتح .

(٤) مغازي الواقدي ج ٢ ص ٥٩٢ .

قال الواقدي : (المغازي ج ٢ ص ٥٩٢) ، وكان الذي جاء بالهدية غلام منهم ، فأجلسه رسول الله ﷺ بين يديه ، والغلام في بردة بلية ، فقال : يا غلام ، أين تركت أهلَكَ ؟ قال : تركتهم بضجنان وما والاه . فقال : كيف تركت البلاد ؟ فقال الغلام : تركتها وقد تيسرت ، قد أمشُر^(١) عضاهي ، وأغدق إذخزها^(٢) وأسلب ثمامها^(٣) وأبقل حمضها^(٤) وانبلت الأرض فتشبعت شاتها إلى الليل ، وشبع بعيرها إلى الليل مما جمع من خوص وضمد الأرض^(٥) وبقل .. وتركت مياههم كثيرة تشرع فيها الماشية ، وحاجة الماشية إلى الماء قليل لِرطوبة الأرض ، فأعجب رسول الله ﷺ لسانه ، فأمر رسول الله ﷺ بكسوة للغلام ، وقال الغلام : إني أريد أن أمس يدك أطلب بذلك البركة ، فقال رسول الله : أدن يميني ، فدنا فأخذ يد رسول الله ﷺ فقبلها ، ومسح رسول الله ﷺ على رأسه وقال : بَارَكَ اللهُ فِيكَ فكان قد بلغ (الغلام) سنّاً ، وكان له فضل وحال في قومه حتى توفي زمن الوليد بن عبد الملك ا هـ .

الذي يبلغ قريشاً نواياه السلمية رسمياً :

وعندما استقر المقام بالنبي ﷺ في الحديبية ، (ولما كان قد استبعد فكرة الحرب (أساساً) منذ خروجه من المدينة) بعث إلى قريش

(١) أمشُر : خرج ورقه .

(٢) الإذخِر ، بكسر المجرّة : الخشيش الأخضر والخشيش طيب الريح (كذا قال في القاموس المحيط .

(٣) أسلب ثمامها : أي أخرج خوصها (كذا قال في النهاية لابن الأثير ج ٢ ص ١٧٣)

(٤) أبقل : أي نبث وظهر .

(٥) ضمد الأرض : رطبها (النهاية في غريب الحديث ج ٣ ص ٢٥) :

من يبلغهم رسمياً ، أنه ﷺ لم يأت للحرب ، وإنما جاء مسلماً ، لا هدف له من مجيئه سوى أداء مناسك العمرة ثم الانصراف بعد ذلك إلى المدينة ، وطلب من مبعوثه الخاص (خراش بن أمية الكعبي^(١)) في رسالة شفوية حمّله إياها إلى قريش) أن يبلغهم ذلك ، ويحاول إقناعهم بأن يتركوا التصلب ، فلا يتسببوا في إثارة حرب مدمرة لا ضرورة لها ، وذلك بأن يخلوا بينه وأصحابه وبين مكة ليقيموا مناسكهم ثم يعودوا إلى المدينة .

وكان مبعوث النبي ﷺ إلى قريش رجلاً من خزاعة (جارة قريش والتي ليست على خلاف معها بل كانت أقرب ما تكون إلى الحيادة) .

وقد ذهب خراش بن أمية - الذي يمكن تسميته بمبعوث السلام - ذهب إلى قريش حيث تعسكر بقضها وقضيضها وحلفائها ونسائها - وأطناها في وادي بلادح .. ذهب ليبلغها عرض الرسول ﷺ المتضمن دعوتها إلى التخلي عن فكرة الحرب والجنوح إلى السلم ، واكن مبعوث السلام لم يكد يصل إلى معسكر قريش ليبلغ أشرافها رسالة النبي ﷺ ، حتى حال بينه وبين ذلك المتهورون منهم ، فهاجموه وعقروا الجمل الذي كان يركبه وحاولوا قتله ، لولا أن حماه عقلاؤهم من ذلك ، وكان الذي حاول قتله عكرمة بن أبي جهل .

(١) هو خراش بن أمية بن ربيعة بن الفضل الخزاعي ، كان حليف بني مخزوم ، قال ابن عبد البر : حضر خراش خيبر والحديبية وما بعدهما ، بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى مكة فأدته قريش وعقرت جملته ، وأرادوا قتله ، فمنعته الأحابيش ، وذكر ابن الكلبي أنه كان حجاجاً ، خلق خراش رأس رسول الله صلى الله عليه وسلم عند المروة في عمرة القضية ، قاله في الإصابة .

قال الواقدي : وكان أول من بعث رسول الله ﷺ إلى قريش - خراش بن أمية الكعبي على جمل لرسول الله ﷺ يقال له الثعلب ، ليبلغ أشrafهم عن رسول الله ﷺ ما جاء له ويقول : إنما جئنا معتمرين معنا الهدى معكوفاً ، فنطوف بالبيت ونحل وننصرف ، فعمروا جمل النبي ﷺ ، والذي ولي عقره عكرمة بن أبي جهل وأراد قتله ، فمنعه من هناك من قومه حتى خلوا سبيله ، فرجع إلى النبي ﷺ ولم يكذ ، فأخبر النبي ﷺ بما لقي فقال : يا رسول الله ابعث رجلاً أمنع مني ^(١)

وسيط السلام الأول :

ويذكر المؤرخون أن أول وفد من عرب المنطقة المجاورة للحرم قابل النبي ﷺ هو وفد خزاعة ، وكانت خزاعة عيبة نصح ^(٢) رسول الله ﷺ بتهامة ، منهم المسلم ومنهم الموادع ^(٣) لا يخفون عليه بتهامة شيئاً .

فقد جاء الوفد منهم برئاسة بُذَيْل بن ورقاء فسلموا على رسول الله ﷺ ثم قال بُذَيْل بن ورقاء - وكأنه يحاول التوسط لتخفيف حدة التوتر بين الفريقين - : قد جئناك من عند قومك ، كعب بن لؤي وعامر بن لؤي ، قد استنفروا لك الأحابيش ومن أطاعهم ، معهم العود

(١) انظر الإصابة لابن حجر ج ١ ص ٤٣١ وسيرة ابن هشام ج ٢ ص ٣١٤ ومغازي الواقدي ج ٢ ص ٥٩٣ .

(٢) عيبة رسول الله : قال الزرقاني في شرحه على المواهب اللدنية (أى موضع الأمانة على سره) .

(٣) الموادعة : معاهدة عدم الاعتداء .

المطافيل - النساء والصبيان - يقسمون بالله لا يخرجون بينكم وبين البيت حتى تبسّد خضراؤهم .

وقد أجاب النبي ﷺ على الوسيط سيد خزاعة بقوله ﷺ : «إنا لم نأت لقتال أحد ، إنما جئنا لنطوف بهذا البيت ، فمن صدنا قتلناه ، وقريش قوم قد أضرت بهم الحرب ونهكتهم ، فإن شأؤوا ماددتهم مدة يأمنون فيها ، ويخولون فيما بيننا وبين الناس ، والناس أكثر منهم ، فإن ظهر أمرى على الناس كانوا بين أن يدخلوا فيما دخل فيه الناس ، أو يقاتلوا وقد جمعوا ، والله لأجهدنّ على أمرى هذا حتى تنفرد سالفتي^(١) أو ينفذ الله أمره .»

بدليل بن ورقاء يتأثر بقول النبي ﷺ
وينصح قريشاً بقبول عرضها السلمي :

ويظهر أن سيد خزاعة لم يأت وسيطاً من قبل قريش ، وإنما جاء من تلقاء نفسه باذلاً مساعيه الحميدة ليكون داعية سلام بين الفريقين ، كزعيم له وزنه وتأثيره ، لا يزال في موقف المحايد ، خارجاً عن دائرة الصراع بين المسلمين وقريش ، لأنه لم يكن حتى تلك الساعة قد أسلم ، وإنما كانت بينه وبين النبي ﷺ اتفاقية مودعة (معاهدة عدم اعتداء) كما أنه وقومه ليسوا في حالة حرب مع قريش .

والمتمسك فيما قاله النبي ﷺ لوسيط السلام بدليل بن ورقاء يجد

(١) السالفة : صفحة العتق ، وكان هذا من النبي صلى الله عليه وسلم تعبيراً عن أنه لن يتخلى عن دعوته حتى ولو كان في ذلك ذهاب روحه .

أنه قول يحمل كل معاني الحصافة والمرونة والائتزان مع إعلان الثقة والقدرة العسكرية .

فهذا الرد النبوي الكريم يضمن الرغبة الصادقة الأكيدة في السلم وحقق الدماء ، إلا أنه في الوقت نفسه يتضمن التصريح بعدم الخوف من الحرب ، بل الترحيب بها إذا ما فرضتها قريش الشرك على المسلمين وعلى نفسها بغياً ويطراً ، كما تضمن الرد النبوي إبلاغ قريش بأن تنزيل من مخيلتها (وإلى الأبد) فكرة الأمل في أية تنازلات يعطيها النبي ﷺ على حساب الإخلال بجوهر دعوته ، مهما كانت الظروف والأحوال .

ولقد وعى بديل بن ورقاء ما سمع من النبي ﷺ بل وتأثر به غاية التأثر ، وكان عمرو بن سالم الذي كان ضمن الوفد الخزاعي ، أحد الذين تأثروا بما سمع من النبي ﷺ من دعوة صادقة إلى السلام إلى درجة أنه كان يقول (وهو عائد مع بديل وكأنه يخاطب قريشاً) : والله لا تُنصرون على من يعرض هذا أبداً (يعني العرض السلمي الذي كلّف النبي ﷺ بديل بن ورقاء - ضمناً - أن يعرضه على قريش حين يلقاها .

يطلبون مقاطعة الوفد الخزاعي :

وقبل أن يصل ساعي السلام بديل بن ورقاء ووفده إلى معسكر قريش في وادي (بَلَدَح) حاول بعض المتطرفين من سادات قريش الشباب حمل قريش على مقاطعة وفد السلام لأنهم أدركوا سلفاً أنه ما جاء إلا ساعياً لإحلال السلام والعمل على منع نشوب الحرب بين النبي

وقومه ، فقد قال هؤلاء المتطرفون : هذا بُدِيل وأصحابه إنما جاؤوا يريدون أن يستخبروكم ، فلا تسألوهم عن حرف واحد . فلما رأى بُدِيل وأصحابه أنهم لا يستخبرونهم قال بُدِيل : إنا جئنا من عند محمد ، أتحبون أن نخبركم ؟ فقال عكرمة بن أبي جهل والحكم بن العاص : لا والله ما لنا حاجة بأن نخبرنا عنه ، ولكن أخبروه عنا أنه لا يدخلها علينا عامه هذا أبداً حتى لا يبقى منا رجل . وكان عروة بن مسعود سيد ثقيف حاضراً يسمع ما يدور من حديث بين وفد خزاعة والمتطرفين من قريش ، لأن عروة حليف قريش ، وجاء من الطائف بقومه ليساندها عسكرياً ضد المسلمين إذا ما نشبت الحرب بينهما .

لا يفلح قوم فعلوا هذا أبداً :

إلا أنه كسيد حاذق محنك ذى عقل راجح وتجارب عديدة استهجن صنيع عكرمة بن أبي جهل والمتطرفين من الشباب القرشي الطائش فقال : والله ما رأيت كاليوم قط رأياً أعجب ، وما تكرهون أن تسمعوا من بُدِيل وأصحابه ؟ ، فإن أعجبكم أمر قبلتموه ، وإن كرهتم شيئاً تركتموه . لا يفلح قوم فعلوا هذا أبداً .

وقد مال عقلاء مكة وأشرافها (فيهم الحارث بن هشام ^(١) وصفوان ابن أمية) إلى الأخذ بنصيحة عروة بن مسعود ، فأسكتوا المتطرفين من

(١) هو الحارث بن هشام بن المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم ، أبو عبد الرحمن المخزومي ، أخو أبي جهل وابن عم خالد بن الوليد ، كان من أشراف مكة في الجاهلية ، مدحه الشاعر اليهودي كعب بن الأشرف عندما جاء إلى مكة يهرض قريشاً =

أبنائهم ، ثم قالوا لبديل بن ورقاء ورجال وفد السلام الذين معه :
أخبرونا بالذي رأيتم والذي سمعتم .

فأبلغهم رجال الوفد الخزاعي بما قالوه للنبي ﷺ وما قاله لهم ، ثم
أبلغوهم العرض الذي عرضه النبي ﷺ الذي يدعوهم فيه إلى إقامة
سلم بين المسلمين وقريش يأمن فيه كل من الجانبين الآخر ولو لمدة
معينة ، تبدأ هذه المدة بالسماح للمسلمين بأداء مناسك عمرتهم ، وتقف
قريش أثناءها موقف الحياد عندما يشتبك النبي ﷺ مع باقي العناصر
الوثنية ، فإن انتصر النبي على باقي العرب دخلت قريش فيما يدخل فيه
العرب ، وإن لم ينتصر ، تستطيع قريش أن تقاتل المسلمين وهي على
جانب كبير من القوة .

= على المسلمين بعد معركة بدر الكبرى .. شهد الحارث بدرأً وأحدًا مع المشركين ، ثم
أسلم عام الفتح فحسن إسلامه حتى صار في عداد خيار الصحابة ، حضر الحارث
سقيفة بني ساعدة (وكان يومئذ سيد بني مخزوم) ساهم في مناقشة الأنصار لصالح
قريش عندما احتدم الخلاف حوله (في من تكون الخلافة) ، وكان له مقال مشهور خالده
يدل على رجاحة العقل ومثانة الدين : (والله لولا قول رسول الله صلى الله عليه وسلم
— الأئمة من قريش — ما أبعدنا منها الأنصار ولكانوا لها أهلاً ، ولكنه قول لا شك فيه ،
فوالله لو لم يبق من قريش كلها إلا رجل واحد لصير الله هذا الأمر فيه .. عندما تدفقت
الجيوش الإسلامية خارج الجزيرة للجهاد ، خرج الحارث من مكة باهله مجاهداً إلى
الشام ، وذلك في عهد عمر ، وما زال يجاهد حتى توفاه الله وهو مرابطاً في حالة الجهاد
وذكر الواقدي (كما في الإصابة) أن الحارث مات في طاعون عمواس ، كان الحارث
يضرب به المثل في الشرف والسودد حتى قال الشاعر في ذلك :

أظننت أن أباك حين تسبى في المجد كان الحارث بن هشام
أولى قريش بالمكارم والندی في الجاهلية كان والإسلام

قريش ترفض عروض السلام النبوية :

هذه خلاصة العرض النبوي للسلام والذي حمله بُدَيْل بن ورقاء الذي تبرع مشكوراً وجعل من نفسه ومن أصحابه (كما يقولون) حمالة سلام بين الفريقين .

وبعد أن أبلغ بُدَيْل بن ورقاء وأصحابه رسالة النبي السلمية إلى قريش ، قال لهم - ناصحاً ومنتقداً في آن واحد - : يامعشر قريش ، إنكم تعجلون على محمد وإن محمداً لم يكن باعث حرب ، ولم يأت لقتال وإنما جاء زائراً لهذا البيت .. فشتموه واتهموه بالتحيز للمسلمين ثم أصرُّوا على موقفهم المتعنّت قائلين : (حتى وإن كان جاء محمد ولا يريد قتالاً ، فوالله لا يدخلها علينا عنوة أبداً ، أريد محمد أن يدخلها علينا في جنوده معتمراً .. تسمع العرب أنه قد دخل علينا عنوة ، وبيننا وبينه من الحرب ما بيننا ، والله لا كان هذا أبداً ، ومنا عين تطرف ^(١) .

الوسيط الثاني :

غير أن عروة بن مسعود الثقفي ^(٢) ، نصح حلفاءه بالتزام جانب الاعتدال وأنكر عليهم رفض العرض النبوي الذي حمله إليهم بدیل ابن ورقاء الخزاعي .

(١) سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٣١١ وصحيح البخاري ج ٥ ص ٢٦٧ والسيرة الحلبية ج ٢ ص ١٣٦ ومغازي الواقدي ج ٢ ص ٥٩٣ - ٥٩٤ نشر جامعة أكسفورد ، طبعة دار المعارف المصرية ، البداية والنهاية ج ٤ ص ١٦٦ ، وتاريخ الطبري ج ٢ ص ٦٢٥ وما بعدها .

(٢) هو عروة بن مسعود بن معتب بن مالك الثقفي ، سيد عظيم من سادات ثقيف -

لقد كان عروة بن مسعود هذا سيداً مطاعاً في قومه وكان (كما تقدم
حايلاً لقريش ومربطاً مع قومه ثقيف في معسكر قريش أثناء أزمة
الحديبية ، وكان فوق ذلك له نسب وصهر في قريش ، إذ كانت أمه
سبيعة بنت عبد شمس بن عبد مناف .

وكان هذا السيد الثقفي بحكم وجوده وحكم مركزه القيادي في
معسكر قريش (كقائد لقوات القبائل الثقفية الحليفة) يرقب الأحداث
والتطورات في أزمة الحديبية ، وكان يطلع (بدقة) على ما يدور بين
النبي ﷺ وقريش حول هذه الأزمة الحادة ، مما جعله يدرك الصورة
الصحيحة لموقف النبي ﷺ وأصحابه ، وهي الصورة التي أعطت
قريشاً حلفاءها من ثقيف والأحابيش عكسها إذ زعمت لهم أن محمداً
ﷺ وأصحابه جاؤوا معتدين بقصد إهانة قريش والمس بكرامتها
وإنهاء وجودها ، ولم تذكر لهم الحقيقة أو شيئاً منها ، وهي أن النبي
وأصحابه لم يأتوا إلا معتمرين مسلمين ، وأن فكرة الحرب لم يكن
لها أي وجود في أذهان النبي وأصحابه منذ أن غادروا المدينة في اتجاه
مكة .

كانت له اليد الطولى في تقرير صلح الحديبية ، أسلم سنة تسع من الهجرة وحسن إسلامه ،
وفيه قال النبي صلى الله عليه وسلم (كما في صحيح مسلم) : عرض على الأنبياء ورأيت
عيسى ، فإذا أقرب من رأيت به شبيهاً عروة بن مسعود .. بعد أن أسلم استأذن النبي
صلى الله عليه وسلم في أن يذهب إلى قومه ثقيف ليدعوهم إلى الإسلام ، فقال صلى الله عليه
وسلم : إني أخاف أن يقتلوك ، قال : لو وجدوني نائماً ما أيقظوني ، فأذن له ، فدعاهم
إلى الإسلام ونصح لهم فعصموه ، ثم قتلوه . قتله رجل منهم بسهم ، فلما بلغ ذلك النبي
صلى الله عليه وسلم قال : مثل عروة مثل صاحب ياسين ، دعا قومه إلى الله فقتلوه
وقيل له : ما ترى في دمك ؟ قال : كرامة أكرمني الله بها وشهادة ساقها الله إلى .

وعلى أساس الإدراك الصحيح والتقييم للموقف (كما هو) لدى عروة ابن مسعود ، ولدى سيّد الأحابيش الحُليس بن زبّان تبين لهما أن النبي وأصحابه لم يكونوا مخطئين ولا معتدين حينما جاؤوا محرمين ، قاصدين تعظيم البيت فحسب ، لأن ذلك حق لهم كسائر العرب ، ليس من حق أحد أن يحول بينهم وبين مباشرته .

وتكوّن لدى عروة بن مسعود (آنئذ) أن العرض النبوي الذي يدعو فيه قريشاً إلى السلم والمواذعة ونبذ الحرب عرض عادل وخُطة رشد لا يجوز لقريش أن ترفضها ، لأنّ هذا الرفض يجعل قريشاً (أمّام العرب) في الموقف البغيض الذي أراد سادات مكة أن يضعوا النبي ﷺ فيه .

ولهذا فقد وجّه عروة بن مسعود اللوم صراحة إلى حلفائه القرشيين ، ونصحهم بأن يقبلوا العرض النبوي القائم على أساس إنشاء معاهدة سلام بين المسلمين والقرشيين .

فقد قال لهم : يا معشر قريش تتهمونني ؟ قالوا : ما أنت عندنا بمنهم ، ثم قال لهم : أستم الوالد وأنا الولد ؟ وقد استنفرت لكم أهل عكاظ لنصرتكم ، فلما بلّحوا^(١) على نفرت إليكم بنفسي وولدي ومن أطاعني ، فقالوا : قد فعلت ، فقال : إني ناصح لكم شفيق عليكم ، لا أدخر عنكم نصحاً ، وإن بُديلاً قد جاءكم بخطة رُشد (يعني العرض النبوي) لا يردّها أحد إلا أخذ شراً منها فاقبلوها منه .

ثم اقترح عليهم أن يكون مبعوثهم ووسيطهم إلى النبي ﷺ ليتفاوض معه ويتباحث حول هذا النزاع عساه أن يتوفق لحل هذه

(١) بلّحوا : أي امتنعوا من الإجابة .

المشكلة الخطيرة التي كادت (بسبب تصلف قريش وعنادها) أن تتحول إلى حرب ضروس مدمرة ، كلا الفريقين يخشى الإقدام عليها .
فقد قال عروة لقريش : ابعثوني حتى آتيكم بمصداقها من عنده (يعنى الخطة التي عرضها النبي ﷺ على قريش ، وأكون لكم عيناً عليه آتيكم بخبره ^(١) .

عروة بن مسعود في معسكر المسلمين :

فوافقت قريش على أن يكون عروة مبعوثاً إلى النبي ﷺ ، فذهب عروة إلى الحديبية ، وهناك استقبله النبي ﷺ كوسيط يمكن أن يكون في وساطته إبعاد لشبح الحرب الذي أصبح مطلاً بوضوح نتيجة بغى قريش وعنادها .

لقد كان سيد ثقيف يعلم يقيناً بأن الحق في جانب النبي وأصحابه وأن الخطأ كل الخطأ في أن تصر قريش على منعهم من دخول مكة لزيارة البيت وأداء مناسك العمرة ، ومع ذلك فإنه كوسيط سياسى لقوم هم حلفاؤه وأصهاره ، فإنه قد تجاهل هذه الحقيقة أثناء محادثاته التي أجراها مع النبي ﷺ في الحديبية ، بل حاول في هذه المحادثات إلقاء اللوم على النبي ﷺ وتحميلة مسؤولية تصعيد الأزمة التي بدت وكأنها تتحول إلى حرب يتفانى فيها الفريقان ، قاصداً بذلك إقناع النبي ﷺ بل تخويفه ليخرج عروة حلفاءه من ورطتهم ، وذلك إن يكون إلا بأن يعود النبي ﷺ وأصحابه دون أن يدخلوا مكة ، ودونما

(١) سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٣١٣ ومغازى الواقدي ج ٢ ص ٥٩٤ .

أَيَّ قَيْدٍ أَوْ شَرْطٍ ، وَهَذَا مَا جَاوَلَ عُرْوَةَ بْنِ مَسْعُودٍ أَنْ يَرْكُزَ فِي مُحَادَثَاتِهِ لِنَحْتَقِيقِهِ .

فَقَدْ قَالَ عُرْوَةُ بْنُ مَسْعُودٍ لِلنَّبِيِّ ﷺ : أَجْمَعْتَ أَوْشَابَ النَّاسِ (١) ثُمَّ جِئْتَ بِهِمْ إِلَى بَيْضَتِكَ (أَيَّ أَصْلِكَ) لِنَفْضِهَا بِهِمْ .

ثُمَّ أَخَذَ عُرْوَةُ يُضْرِبُ عَلَى وَتَرِ الْإِشَارَةِ بِقُوَّةِ قَرِيْشِ الْعَسْكَرِيَّةِ وَالتَّلْوِيحِ بِأَنَّهَا قَادِرَةٌ عَلَى مَنَعِ النَّبِيِّ وَأَصْحَابِهِ مِنْ دُخُولِ الْحَرَمِ إِنْ هُمْ أَصْرَوْا عَلَى دُخُولِهِ فَقَالَ : (إِنِّهَا قَرِيْشٌ قَدْ خَرَجَتْ مَعَهَا الْعُوْذُ الْمَطَافِيلُ ، قَدْ لَبَسُوا جُلُودَ النَّمُورِ يَعْاهِدُونَ اللَّهَ أَنْ لَا تَدْخُلَهَا عَلَيْهِمْ عَنُوةٌ أَبَدًا ، يَا مُحَمَّدُ إِنِّي تَرَكْتُ قَوْمَكَ كَعَبِّ بْنِ لَوْي وَعَامِرِ بْنِ لَوْي عَلَى أَعْدَادٍ (٢) الْحَدِيثِيَّةِ ، قَدْ اسْتَنْفَرُوا لَكَ أَحَابِيْشَهُمْ وَمَنْ أَطَاعَهُمْ ، وَهُمْ يَقْسِمُونَ بِاللَّهِ لَا يَدْخُلُونَ بَيْنَكَ وَبَيْنَ الْبَيْتِ حَتَّى تَجْتَاحَهُمْ ، وَإِنَّمَا أَنْتَ مِنْ قِتَالِهِمْ بَيْنَ أَحَدٍ أَمْرَيْنَ ، أَنْ تَجْتَاحَ قَوْمَكَ ، وَلَمْ نَسْمَعْ بِرَجُلٍ اجْتَنَحَ أَصْلَاهُ قَبْلَكَ ، أَوْ بَيْنَ أَنْ يَدْخُلَكَ مِنْ نَرِيْ مَعَكَ .

ثُمَّ جَاوَلَ عُرْوَةُ أَنْ يَضْعِفَ مِنْ ثِقَةِ النَّبِيِّ ﷺ فِي أَصْحَابِهِ وَيَدْخُلَ فِي رَوْعِهِ أَنَّهُ لَا يُمْكِنُ الْاعْتِمَادُ عَلَيْهِمْ إِذَا تَحَوَّلَ النِّزَاعُ إِلَى حَرْبٍ شَامِلَةٍ بَيْنَهُ وَبَيْنَ قَرِيْشٍ ، فَقَالَ : (وَأَيُّمَ اللَّهُ يَا مُحَمَّدُ الْكَأَنِّيْ بِهِؤُلَاءِ قَدْ انْكَشَفُوا عَنْكَ إِنِّي لَا أَرَى مَعَكَ إِلَّا أَوْبَاشًا مِنَ النَّاسِ لَا أَعْرِفُ وَجْهَهُمْ وَأَنْسَابَهُمْ ، خَالِقًا بِهِمْ أَنْ يَفْرُوا وَيَدْعُوكَ (٣) .

(١) الْأَوْشَابُ : الْأَخْلَاطُ ، مِثْلُ الْأَوْبَاشِ .

(٢) الْأَعْدَادُ : قَالَ فِي الْإِصْحَاحِ : جَمَعَ الْعَدَّ (بِكْسَرِ أَوَّلِهِ) وَهُوَ الْمَاءُ الَّذِي لَهُ مَادَّةٌ لَا تَنْقَطِعُ ، كَمَاءِ الْبُحْرِ وَالْعَيْنِ .

(٣) انْظُرْ سِيرَةَ ابْنِ هِشَامٍ ج ٢ ص ٣١٣ وَمَغَازِي الْوَاقِدِيِّ ج ٢ ص ٥٩٤ وَمَا بَعْدَهَا ، وَتَارِيخَ الطَّبْرَانِيِّ ج ٢ ص ٦٢٦ .

مشادة بين الصديق وعروة بن مسعود :

وكان أبو بكر الصديق واقفاً خلف النبي ﷺ أثناء المحادثات فغضب غضباً شديداً لقول عروة بن مسعود الذي هدّد فيه النبي ﷺ ، بقوة قريش وتنقّص أصحابه ، وقال أبو بكر لعروة (غاضباً) : أعضض بظر اللات ، (واللات صنم ثقيف) أنحن نفرّ عنه ؟؟ .

فقال عروة : من هذا يا محمد ؟ .

فقال النبي ﷺ : هذا أبو بكر بن أبي قحافة .

فقال عروة (يخاطب أبا بكر) : أما والله لولا يد لك عندي لم أجرك بها بعد لا أجبتك ^(١) .

مفارقة راعة :

ومن عجائب المفارقات التي يستشف منها الدليل القاطع على قدرة تعاليم الإسلام على تحويل الإنسان من شيطان مريد إلى آدمي مثالي فاضل نبيل ، أن المغيرة بن شعبة ^(٢) الثقفي (ابن أخي عروة بن مسعود)

(١) كانت اليد التي لأبي بكر الصديق على عروة بن مسعود أنه كان سيداً في قومه يحمل الديات لفض المنازعات القبلية ، فحمل مرة دية فاستعان بالأشراف فأعانه بالفريضتين والثلاث وأعانه أبو بكر بعشر فرائض ، فكانت هذه هي اليد التي لأبي بكر عند عروة .

(٢) هو المغيرة بن شعبة بن أبي عامر بن مسعود (الثقفي) يكنى بأبي عيسى وأبني محمد ، كان من الشباب الفاتك في الجاهلية ، طوال من الرجال ضخم قوى ، عبل الذراعين بعيد ما بين المنكبين ، يعد من الشجعان ، وكان من قطاع الطرق والعادين على الناس في الجاهلية ، من المهاجرين ، أسلم قبل الحديبية وكانت أولى مشاهدته مع رسول الله صلى الله عليه وسلم . شهد بيعة الرضوان ، فكان من أهل الشجرة الذين بايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فأعلن الله في القرآن رضاه عنهم (لقد رضى الله عنه المؤمنين =

كان أحد الذين يتولون حراسة النبي الأعظم ﷺ أثناء محادثاته مع عروة .

وكان المغيرة (قبل أن يهديه الله للإسلام) شاباً صعلوكاً سكيراً قاطع طريق ، غير أن اعتناقه للإسلام حوَّله إلى إنسان آخر ، صار من الصفوة المختارة والشباب المؤمن القوي الذين اختيروا للقيام بحراسة النبي ﷺ في ذلك الجو الملبد بغيوم الحرب .

= إذ يبايعونك الآية) ، وكان من دهاة العرب المشهورين ، قال قبيصة بن جابر : ضجبت المغيرة فلو أن مدينة لها ثلاثة أبواب لا يخرج من باب منها إلا بالمكر لخرج المغيرة من أبوابها كلها ، كان من قادة الفتح الإسلامي ، ولاه الخليفة عمر البصرة ، فغزا ميسان وهمذان وفتحها مع بلاد أخرى ، حضر حروب الفرس في عهد عمر ، وكان ضمن الوفد الذي أرسله القائد سعد إلى قائد الفرس الأعلى للتفاوض ودعوتهم إلى الإسلام أو الجزية أو الحرب ، وهو الذي خرق برمه بساط رستم ، وجلس معه على سريره تحدياً ، ولما غضب حراس رستم ، فجلدوه من الكرسي بالقوة ، قال : الآن علمت أن ملككم سيزول ، كان أحسن من الذي صنعتم لو أخبرتموني أن بعضكم أرباباً لبعض ، إننا معشر المسلمين نتساوى ، وفي صحيح البخاري أن المغيرة كان من مستشاري القائد الثقي الورع العظيم النعمان بن مقرن ، فاتح نهاوند التي يسمي فتحها بفتح الفتوح ، لأنه لم تقم للفرس بعد فتحها قائمة ، عزل الخليفة عمر المغيرة بعد تلك التهمة التي وجهت إليه والتي جلد بسببها الخليفة ثلاثة من الصحابة بسبب عدم ثبوت هذه التهمة شرعاً .. كذلك ولاه الفاروق إمارة البحرين ، وكان المغيرة ، أول من سلم عليه بالإمارة .. عندما نشب الصراع الدامي المؤسف بين علي ومعاوية ، اعتزل المغيرة الفريقين والتزم الحياد ، إلا أنه في النهاية بايع معاوية عندما اجتمع عليه المسلمون بعد مقتل أمير المؤمنين علي وتنازل الحسن رضي الله عنهم أجمعين . شهد المغيرة معركة اليرموك التاريخية ، وفقد فيها إحدى عينيه ، فصار بعدها أعور ويسميه خصومه السياسيون بأعور ثقيف تنقصاً له ، ولاه الخليفة معاوية الكوفة فاستمر عليها والياً حتى مات سنة خمسين ، قال الطبري : لا يقع المغيرة في أمر إلا وجد له مخرجاً ، ولا يلبس عليه أمران إلا ظهر الرأي في أحدهما ، اشترك المغيرة مع أبي سفيان في هدم اللات طاغية ومعبود ثقيف ، وكان قد عرف مصر حيث سافر إليها وقابل المقوقس في الجاهلية وكان إسلامه عقب عودته من مصر .

يقرع عمه بقائم السيف :

وكان من عادة العرب في الجاهلية أن يمسك الزعيم بلحية الذي يراه
زناً له أثناء الحديث ، وعلى هذه القاعدة ، كان عروة بن مسعود
يمسك بلحية رسول الله ﷺ أثناء المناقشة .. الأمر الذي استهجنه
المغيرة بن شعبه ، فانتهر عمه وزجره وقرع يده بقائم السيف قائلاً :

اكشف يدك عن مسّ لحية رسول الله قبل أن لاتصل إليك فاستعظم
عروة (الزعيم) هذا التهديد من الحارس المغيرة قائلاً :

ويحك ما أفظك وأغلظك .

وكان النبي ﷺ يبتسم للذي يجرى بين عروة المشرك وبين ابن
أخيه المسلم .

ولما كان المغيرة لابساً عدة الحرب ومكتمراً بالدرع لم يعرفه عمه
عروة ، ولذلك سأل النبي ﷺ - وهو يكاد يتميز من الغيظ - :
(يا محمد ليت شعري من هذا الذي آذاني من بين أصحابك ، والله
إنني لا أحسب فيكم ألام منه ولا شر منزلة .

فتبسم رسول الله ﷺ لهذه المفارقة العجيبة وقال : هذا ابن أخيك
المغيرة بن شعبه .

فازداد غيظ عروة وكاد أن يجن من الغضب ، وقال : أي غدر
(أي يا غادر) : والله ما غسلت غدرك بعكاظ إلا بالأمس وقد أورثتنا
العداوة من ثقيف إلى آخر الدهر (١) ؟ .

(١) يشير عروة بن مسعود إلى ما ارتكبه ابن أخيه المغيرة في الجاهلية من قتل ثلاثة
عشر رجلاً من قومه بني مالك ، فقد روى الواقدي (وهو يتحدث عن محادثات عروة
في الحديثية) : أن المغيرة بن شعبه (وكان شجاعاً ، فاتكاً) خرج من نفر من بني مالك =

— ابن حطيظ بن جشم بن قسي — والمغيرة أحد ذوى الألباب — ومع المغيرة حليفان له يقال لأحدهما : دمون — رجل من كندة — والآخر الشريد ، وإنما اسمه عمرو ، فلما صنع المغيرة بأصحابه ما صنع شرده ، فسمى الشريد . . وخرجوا إلى المقوقس صاحب الإسكندرية ، فجاء بنو مالك وآثرهم على المغيرة ، فأقبلوا راجعين ، حتى إذا كانوا ببيسان شربوا خمراً ، فكف المغيرة عن بعض الشراب وأمسك نفسه ، وشربت بنو مالك حتى سكروا ، فوثب عليهم المغيرة فقتلهم ، وكانوا ثلاثة عشر رجلاً : فلما قتلهم ونظر لإليهم دمون تغيب عنهم ، وظن أن المغيرة إنما حملته على قتلهم السكر ، فجعل المغيرة يطلب دمون ويصيح به فلم يأت ، ويقلب القتل فلا يراه فبكى . . فلما رأى ذلك دمون خرج إليه فقال المغيرة : ما غيبك ؟ قال : خشيت أن تقتلني كما قتلت القوم . قال المغيرة : إنما قتلت بنى مالك بما صنع بهم المقوقس . قال : وأخذ المغيرة أمتعتهم وأموالهم ولحق بالنبي صلى الله عليه وسلم ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : لا أخمسه (أى مال المقتولين) ، هذا غدرأ . وذلك حين أخبر النبي صلى الله عليه وسلم خبرهم وأسلم المغيرة .

وأقبل الشريد (دمون الكندى) . فقدم مكة فاخبر أبا سفيان بن حرب بما صنع المغيرة بنى مالك ، فبعث معاوية بن أبى سفيان إلى عروة بن مسعود يخبره الخبر — فقال معاوية : خرجت حتى إذا كنت بنعمان (نعمان وادى لهذيل على ليلتين من عرفات يقع بين مكة والطائف تقطعه اليوم السيارات وهى فى طريقها من مكة إلى الطائف) . قلت فى نفسى : أين ؟ — إن سلكت — ذا غفار فهى أبعد وأسهل ، وإن سلكت ذا العلق فهى أغلظ وأقرب ، فسلكت ذا غفار ، فطرقت عروة بن مسعود ، قال معاوية : فخرجنا إلى مسعود بن عمر والمالكي فناداه عروة ولم يكن قد كلمه من عشر سنين ، فقال : من هذا ؟ فقال : عروة . فأقبل مسعود إلينا يقول : أطرقت عراية أم طرقت بداهية ؟ .. بل طرقت بداهية ! .. أقتل ركبهم أم قتل ركبنا ركبهم ؟ .. لو قتل ركبنا ركبهم ما طرقتى عروة بن مسعود ! فقال عروة : أصبت ، قتل ركبى ركبك يا مسعود انظر ما أنت فاعل ، فقال مسعود : إني عالم بخدة بنى مالك وسرعتهم إلى الحرب ، فهبنى صمتاً ، قال : فانصرفنا عنه فلما أصبح غدا مسعود فقال : يا بنى مالك ، إنه قد كان على أمر المغيرة بن شعبة أنه قتل إخوانكم بنى مالك فأطيعونى وخذوا الدية ، اقبلوها من بنى عمكم وقومكم . قالوا : لا يكون ذلك أبداً ، والله لا تترك الأحلاف أبداً حين تقبلها . قال : أطيعونى وأقبلوا ما قلت لكم ، فوالله لكأنى بكنانة بن عبد ياليل قد أقبل تضرب درعه وروحي رجليه ، لا يعانق رجلاً إلا صرعه ، والله لكأنى يجندب =

حاول عروة بن مسعود تخويف النبي ﷺ ليعرود من حيث أتى ،
وحاول التأثير عليه (عن طريق التلويح بعظمة قوة قريش) بأن من
مصالحته ومصالحة أصحابه أن يزيلوا من أذهانهم فكرة الأمل في الطواف
بالبیت ما دام لقريش سلطان في مكة .

ولكن كل هذه المحاولات باءت بالفشل ، وأصر النبي ﷺ على
أن من حقه ومن حق أصحابه أن يدخلوا مكة ويطوفوا متى شاءوا ،
إلا أنهم لن يتعجلوا الأمور لنيل هذا الحق عن طريق اقتحام مكة بحدّ
السلاح .. وذلك رغبة منهم في حقن الدماء ، وأملاً منهم في أن يصحو
عقلاء قريش من سكرة طغيانهم فينتهجوا أى نهج به يحولون دون
سفك الدماء ، ويفسحون الطريق للمصالحة والهدنة بينهم الطبيعي في
زيارة بيت الله الحرام شأنهم في ذلك شأن كل العرب .

وهكذا انتهت المفاوضات بين النبي ﷺ وعروة بن مسعود ، دون
أن يتم التوصل إلى أى اتفاق ينهى الأزمة .. إلا أنه من خلال هذه
المحادثات أكدت لعروة بن مسعود صدق نرايا المسلمين السلمية وأنهم
(فعلاً) إنما جاؤوا في رحلة روحية خالصة (معتمرين لا محاربين) وأن

= ابن عمرو وقد أقبل كالسيد (السيد بكسر السين مع التشديد : الذئب) عاضاً على سهم
مفوق بآخ ، لا يسير إلى أحد بسهمه إلا وضعه حيث يريد ، فلما غلبوه أعد للقتال
واضطفوا ، أقبل كنانة بن عبد ياليل يضرب درعه وروحي رجله يقول : من مصارع ؟
ثم أقبل جندب ابن عمرو عاضاً على سهم مفوقاً بآخ : قال مسعود : يا بني مالك
أطيعوني ! قالوا : الأمر إليك قال : فبرز مسعود بن عمرو فقال : يا عروة بن مسعود
أخرج إلى ! فخرج إليه ، فلما التقيا بين الصفين قال : عليك ثلاث عشر دية فإن
المغيرة قد قتل ثلاثة عشر رجلاً فاحمل بدياتهم . قال عروة : حملت بها ، هي على :
قال : فاصططح الناس ، فذلك الذي عناه عروة بن مسعود حينما قال للمغيرة : (والله
ما غسلت غدرك بكفاظ بالأمس) .

قريشاً إنما تفتري وتكذب على المسلمين حينما تروّج بين عامة العشائر والأعراب ، أن النبي ﷺ وأصحابه إنما جاؤوا ليهتكوا حرمة مكة فيدخلوها عنوة بقصد الحرب .

ما أراكم إلا ستصيكم قارعة يا معشر قريش :

لذلك عاد الوسيط الثاني إلى حلفائه قريش (بعد أن فشل في حمل النبي على تنفيذ رغبة قريش بالانسحاب والعودة إلى المدينة دون أن يطوف بالبيت ودونما أية ضمانات تعطى له) عاد الوسيط حاملاً إليهم نهاية مفاوضاته الفاشلة ، وحاملاً لهم التحذير ومُسدياً لهم النصح بأن يحزنوا رؤوسهم للعاصفة لتمر بسلام ، بأن يخففوا من غلوائهم .

كما نصحهم (في صراحة متناهية) بأن لا يورطوا أنفسهم في صدام مسلّح مع النبي ﷺ وأصحابه ، لأنّ الهزيمة (حسب ملاحظاته وتقديراته) ستكون من نصيب حلفائه القرشيين إن هم تسرعوا ، وتعجلوا العدوان .

وقد بانّت له هذه الحقيقة التي لم يخفها عن حلفائه .. بانّت له على ضوء ما لمسه ورآه من تماسك وحدة القوى الإسلامية داخل معسكر محمد بشكل لم يسبق له أن سمع أو رأى مثله ، وعلى ضوء ما رآه من حب عجيب بين المسلمين لنبيهم ، وتفانٍ أعجب في حمايته والدفاع عنه .

فقال عروة لسادات مكة : يا معشر قريش إنني قد وفدت على الملوك ، على كسرى وهرقل والتجاشي ، وإنني والله ما رأيت ملكاً قط أطوع فيمن هو بين ظهرائيه من محمد في أصحابه ، والله ما يشدّون إليه النظر ، وما

يرفعون عنده الصوت ، وما يكفيه إلا أن يشير إلى أمر فيفعل ، وما يتنخم وما يبصق إلا وقعت في يدي رجل منهم يمسح بها جملده ، وما يتوضأ إلا ازدحموا عليه أيهم يظفر منه بشى ، وقد حذرت القوم ، واعلموا إن أردتم السيف بذلوه لكم ، وقد رأيت قوماً ما يبألون ما يصنع بهم إذا منعوا صاحبهم ، والله لقد رأيت نسيات (تصغير نسوة) معه إن كنن ليسلمنه أبداً على حال فرؤا رأيكم ، وإياكم وإضجاع الرأي ^(١) .

عروة بن مسعود ينصح قريشاً :

ثم نصحهم بأن يقبلوا ما عرض عليهم النبي ﷺ من مهادنة تنهى حالة الحرب بينهم ، وحذّرهم أن يذهب بهم الطيش إلى الدخول في صدام مسلّح مع المسلمين ، لأنه واثق من عدم انتصارهم عليهم ، وكرّر مرة أخرى انتقاد قريش لإصرارها على منع المسلمين من دخول الحرم فقال : (وقد عرض عليكم خطة فمادوة ^(٢) يا قوم ، اقبأوا ما عرض فإنني لكم ناصح ، مع أني أخاف ألا تنصروا عليه ، ثم قال مستنكراً فعل قريش في تعجّب : رجل أتى هذا البيت معظماً له معه الهدى ينحره وينصرف ^(٣) .

ولدى سماع سادات مكة وزعمائها حديث حليفها عروة بن مسعود (الذى هو أشبه بالتقرير الدقيق الصحيح يقدمه لهم عن حقيقة الموقف)

(١) إضجاع الرأي قال في القاموس : (هو الوهن في الرأي) .

(٢) مادوه : (أى أجعلوا بينكم وبينه عهد سلام لمدة من الزمن ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم قد عرض عليهم ذلك في رسالة شفوية إليهم مع بديان بن ورقاء الخزاعي كما تقدم .

(٣) انظر مغازي الواقدي ج ٢ ص ٥٩٨ وما بعدها .

أسقط في أيديهم ورأوا أن لا مناص لهم من أن ينحنوا المعاصفة فقررروا التخلي عن فكرة منع المسلمين من دخول الحرم (أبدأ) وقررروا أن يسمحوا للمسلمين بدخول مكة ، ولكن بصورة تحفظ لهم شيئاً من ماء وجوههم ، وهى أن يعود النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة هذا العام ثم يأتوا ليدخلوا مكة ويطوفوا ويسعوا في العام القادم .

وهو الأمر الذى ما كانت قريش لتوافق عليه مطلقاً عندما ركبت رأسها وأعلنت أنها ستمنع المسلمين من دخول مكة أبد الآبدين .

وقد أفصحوا لحليفهم (عروة) عن مشروعهم هذا ، وأنهم سيعرضون الصلح على النبي ﷺ على أساس هذا المشروع ، رجاء أن يقبله كحل وسط للأزمة .

فقد قالوا لعروة : (راجع إليهم كتمان ما صارخهم به) .

لا تتكلم بهذا يا أبا يعفور (وهذه كنيته) ، ولكن ، نرده عامناً هذا ويرجع إلى قابل (أى ليأتى وأصحابه ليدخلوا مكة فى العام التالى) ، فقال عروة (وقد بدا عليه الرضى حتى بهذا المشروع) : ما أراكم إلا ستصيبكم قارعة .. ثم انصرف ومن معه من ثقيف إلى الطائف (١) .

أول انشقاق فى معسكر الشرك :

كان رجوع عروة بن مسعود الثقفى بقومه إلى الطائف (احتجاجاً) على تشدد قريش وتعتُّها (أول انشقاق عملى فى المعسكر القرشى ، إذ أضعف انسحاب عروة بن مسعود بقومه من معسكر قريش مركزه هؤلاء القرشيين إلى حد كبير .

(١) انظر السيرة الحلبية ج ٢ ص ١٣٩ .

ومع ذلك ومع رغبتهم في الصلح وخوفهم من الصدام المسلح ظلوا على عنادهم يتظاهرون بأنهم مصممون على منع المسلمين من دخول مكة مهما كانت النتائج .. وذلك مناورة وأملاً منهم في أن يضيق المسلمون لطول المقام في الحديبية محرمين شعناً غبراً ، فيضطروا للعودة إلى المدينة دون أن يطوفوا بالبيت ، ودون أن يحصلوا على ضمان يضمن لهم دخول مكة معتمرين .

وزاد قريشاً طمعاً في هذا وشجّعها على الاستمرار في المناورة والتهديد ، أن النبي ﷺ أعلن عدم رغبته في الحرب ، وأنه مستعد لقبول أية خطة تعرضها قريش يكون فيها حقن الدم وصيانة حرمة الحرم .

وبالرغم من أن الوسطاء لحل المشكلة يأتون دائماً من جانب قريش ، فكذبهم بأنهم يأتون إلى النبي ﷺ وهو يحمل الطلب من قريش بأن يعود المسلمون من حيث أتوا - كما تقدم - فقد ظل الجو متوتراً وزاده توتراً طول احتباس المسلمين في الحديبية .

فقد ثقل عليهم المقام هناك ممنوعين من دخول الحرم كل هذه المدة .. الأمر الذي لا يمكن أن يظلوا صابرين عليه إلى ما لا نهاية فللصبر حدود .. لا سيما وأنهم قادرون على اقتحام مكة وموقفون بأن القوات القرشية لن تقوى على الصمود أمامهم إذا ما أقدموا على ذلك .

الوسيط الثالث :

كان مكرز بن حفص^(١) من شياطين قريش وعلماء من أعلامها وكان مشهوراً بالماراغة والغدر والختل .

(١) هو مكرز بن حفص بن الأخيف قرشي من بني عامر بن لؤي ، اختلفت =

لذلك عندما فشل وسيطها الثاني (عروة بن مسعود في وساطته لدى النبي ﷺ) بعثت قريش بمكرز هذا إلى الحديبية وسيطاً لدى النبي ﷺ لعله (بوساطته أو قل : بدهائه) يحقق كسباً لقريش في هذه الأزمة التي بدا لقريش أنها تزداد استعصاءً وتعقداً ، لا سيما بعد أن فارقتها أحد حلفائها الأقوياء (عروة بن مسعود) الذي انسحب بقومه من معسكرها احتجاجاً على تعنتها وعدم إصغائها لنصحه ومطالبتها في قبول خطة السلم التي عرضها النبي ﷺ عليها بواسطة سيد خزاعة ، بدليل بن ورقاء .

فشل الوسيط الثالث :

وصل الوسيط الثالث ، مكرز بن حفص ، إلى الحديبية للاجتماع بالنبي ﷺ لبحث موضوع الأزمة القائمة بين الفريقين . وعندما رآه النبي ﷺ مقبلاً ، قال : هذا رجل غادر . إلا أن النبي ﷺ استقبل مكرزاً في مقر قيادته في الحديبية ولم يرفض مقابلته بالرغم من علمه بأنه من النوع الغادر الذي لا يوثق به . وقد أجرى مكرز مع النبي ﷺ محادثات حول مجيئه ، وكانت محادثات مكرز بن حفص تتركز - على ما يظهر - حول إبلاغ النبي ﷺ رغبة قريش في أن يعود من حيث أتى ، وإلا فإن قريشاً قد صممت على منع المسلمين من دخول مكة .

= في إسلامه ، فقد ذكره ابن حبان في الصحابة ، وذكر المازني في معجم الشعراء أنه لم يسلم ، وهو الذي حضر بعد الهجرة إلى المدينة وافندى سهيل بن عمرو بعد أن وقع أسيراً في معركة بدر .

غير أن مكرزاً لم يسمع من النبي ﷺ جواباً على كل ما قاله أكثر مما أعلنه صراحة للوسيطيين السابقين (بُدَيْل بن ورقاء وعروة بن مسعود) ، وأبلغه قريشاً رسمياً ، وهو أنه لم يأت لقتال ، وإنما أتى زائراً معظماً للبيت - إلا أنه مع ذلك مستعد لمقاتلة من يقاتله .

فعاد مكرز إلى قريش وأبلغها تمسك النبي ﷺ بموقفه الذي أعلنه للوسيطيين (عروة) و (بُدَيْل) .

الوسيط الرابع :

وعندما لم يفلح مكرز بن حفص العامري في وساطته لجأت قريش إلى سيد الأحابيش ، الحليس بن زبَّان^(١) حليفها الأكبر ، فطلبت منه أن يكون وسيطها الرابع لدى النبي ﷺ عسى أن يتمكن من حل هذا النزاع الخطير لصالحها .

فقد كان الحليس بن زبَّان ذا عقل راجح وبصيرة نافذة ، وكان سيداً مطاعاً .. وكان النبي ﷺ يعرفه ويعرف فيه التساؤه الشديد والتعظيم للحرم .

لذلك كانت قريش - حينما اختارته وسيطها - تطمع في أن يكون لمركزه الممتاز بين العرب ، ولما يشتمع به من تقدير لدى النبي ﷺ تأثير على الرسول ﷺ وأصحابه ، تكون نتيجة عودتهم من حيث أتوا دون أن يدخلوا مكة أو يحصلوا على ضمان يضمن السماح لهم بدخولها في وقت آخر .

(١) تقدمت ترجمة الحليس في هذا الكتاب .

أخطر انشقاق في معسكر قريش :

غير أن الذي حدث ، هو أن وساطة سيد الأحابيش جاءت لقريش بعكس ما كانت تأمل ، حيث كانت نتيجة هذه الوساطة نقطة التحول الحاسم لصالح المعسكر الإسلامي ، وتأييداً للمبدأ والفكرة والتي يتمسك بها النبي ﷺ وأصحابه ، وهي أن من حقهم الطواف بالبيت وليس لأحد كائناً من كان أن يحول بينهم وبين مباشرة هذا الحق .

فقد قبل الحليس بن زبّان أن يكون وسيط قريش إلى ابنها النبي ﷺ .. كانت قريش تزيف الحقائق وتلبس على حليفها الحليس وأمثاله بأن محمداً ﷺ وأصحابه إنما جاؤوا بغاة معتدين يريدون هتك حرمة البيت بالحرب والقتال .

فكان سيد الأحابيش - حتى وصوله معسكر المسلمين في الحديبية - يحمل في قرارة نفسه عن المسلمين هذه الفكرة الخاطئة التي رسّبتها في الأذهان دعايات المشركين وأبواق الوثنيين القرشيين .

ما ينبغي لهؤلاء أن يفعلوا عن البيت :

توجّه الوسيط الرابع (الحليس بن زبّان) من معسكر قريش داخل الحرم إلى حيث يعسكر النبي ﷺ بأصحابه خارج الحرم في الحديبية فلما رآه النبي ﷺ مقبلاً ، قال لأصحابه : إن هذا من قوم يشأهون (أى يتعبدون) ويعظمون الإله ، ابعثوا الهدى (بفتح الهاء) وسكون الدال ، وهي الإبل التي تساق لنحرها في الحرم تقريباً إلى الله) في وجهه حتى يراه ، ففعلوا .

فلما رأى الحليس الهذى يسيل عليه بقلائده من عرض الوادى
قد أكل أوباره من طول الحبس عن محله (أى موضعه الذى ينحر
فيه من الحرم) ورأى المسلمين قد استقبلوه يلّبون وقد شعثوا من طول
المكوث على إحرامهم .. صاح (مستنكراً تصرف قريش) : سبحان الله
ما ينبغي هؤلاء أن يصلّوا عن البيت .

أبى الله إلا أن يحجّ لخم وجذام ونهد ، وحِمْيَر ويمنع ابن عبد
المطلب ؟؟ .

ثم شدد نكيره على قريش قائلاً : هلكت قريش ورب الكعبة ،
إنما القوم (يعنى المسلمين) أتوا عماراً .

ثم قال لـ عليه السلام : أجل يا أبا بنى كنانة (١)
أن يفانح عليه السلام كنانة النبی عليه السلام كما كلمه
قريش ، انصرف راجعاً إعظماً لما رأى ومقتنعاً بأن قريشاً غير محقة في
تصرفها إزاء المسلمين .

ولما عاد إلى قريش قال لها : إني قد رأيت ما لا يحل صده ، رأيت
الهذى في قلائده قد أكل أوباره ، معكوفاً عن محله ، والرجال قد تفلوا
وقملوا أن يطوفوا بهذا البيت ! أما والله ما على هذا حالفناكم ، ولا
عاقلنا كم على أن تصدّوا عن بيت الله من جاء معظماً لحرمته مؤدياً لحقه
وساق الهذى معكوفاً أن يبلغ محله (٢) .

فغضبت قريش لصراحته ، ورأت في هذه الصراحة تقوية لحجة
النبي عليه السلام وإسناداً لمنطقه ، لذلك قالت للحليس (ساخرة) : اجلس
إنما أنت أعرابى ولا علم لك (٣) .

(١) السيرة الحلبية ج ٢ ص ١٣٧ .

(٣) مغازى الواقدي ج ٢ ص ٦٠٠ .

سيد الأحابيش ينذر قريشاً :

وهنا غضب هذا السيد الكنانى لقول قريش هذا غضباً شديداً ، ثم هددوا بإلغاء الحلف الذى بينه وبينها والانحياز إلى جانب المسلمين إذا لم تقلع عن غيها ، فتفسح الطريق للنبي وأصحابه ليطوفوا بالبيت كسائر العرب ، فقال : (يامعشر قريش ، والله ما على هذا حالناكم والذى نفس الحليس بيده لتخلن بين محمد وبين ما جاء له ، أو لأنفرن بالأحابيش نفرة رجل واحد^(١) .

وكان هذا الإنذار من سيد الأحابيش الذى أملت عليه الرجولة ، كافياً لأن يحدث الذعر والفرع بين صفوف المشركين فى مكة ويجعلهم يفكرون ملياً فى إعادة النظر فى موقفهم المتعنّت المتصلف الذى وقفوه من المسلمين .

فقد كان تهديد سيد الأحابيش بنسف التحالف الذى بينه وبين قريش إذا لم يخلوا بين النبي وأصحابه ليطوفوا بالبيت ، يعنى أن أخطر انشقاق بل أخطر تمرّد سيحدث فى معسكر الشرك فى مكة التى كانت فى حالة تأهب واستنفار للحرب .

لأن الأحابيش الذين هم تحت قيادة الحليس بن زبّان الكنانى يمثلون عدة قبائل قوية غير قرشية صارت قرشية بالحلف تسالم من سالم قريشاً وتحارب من حاربها .

وهذه القبائل هى بنو الهون بن خزيمه ، وبنو الحرث بن عبد مناف ابن كنانة .. وبنو المصطلق بن خزيمه .

(١) تاريخ الطبرى ج ٢ ص ٦٢٨

وخروج هذه القبائل على القرشيين وإلغاؤها الحلف الذى بينها وبينهم يعتبر بمثابة ضربة صاعقة للمعسكر القرشى وخاصة فى ذلك الظرف الحرج الذى بلغ فيه التوتر ذروته بين المسلمين ومشركى مكة .
لذلك اهتز المعسكر القرشى لتصريحات سيد الأحابيش الذى كان يعنى كل كلمة قالها فى إنذاره الموجه لطفاة مكة وعتاتها .

فتجسد لسادات مكة ما يهددهم من خطر الانقسام بعد الموقف المشرف الذى وقفه سيد الأحابيش ، ضد طغيانهم .

وتبين لسفهاء قريش وعقلائها على السواء أن النفوس - حتى وإن لم يكن أصحابها مسلمين - ليست كلها بالتى ترضى البغى وتقرّ العدوان والظلم والتعسف .. وذلك على ضوء ما سمعته من حليفها المشرك سيد الأحابيش الذى شجب تصرفاتها التعسفية وحماها مسؤولية تآزم الموقف الذى يهدد بانفجار حرب ليس لها من مبرر إلا العنجهية والنزق .

وعلى أثر موقف سيد الأحابيش الحازم الجاد المنبثق من جداول الخلق العربى الأصيل ، لم يعد لدى قريش أدنى شك فى أن المتهورين والسفهاء ودعاة للحرب منها قد أوقعوها فى ورطة كبيرة .
عندما استجابت لهم ، فركبت رأسها (بعد أن نفخ الشيطان فى مناجر زعمائها) فأعلنوا بأنهم سيصدون النبى ﷺ وأصحابه عن البيت ، ولو استدعى ذلك امتشاق الحسام وصدّهم عن طريق الحرب . بالرغم من تأكدهم من نوايا المسلمين السامية واستيقانهم بأنهم لم يأتوا محاربين وإنما معتمرين زائرين للبيت .

البحث عن مخرج من الورطة :

وبعد غضبة سيد الأحابيش لتصرفات قريش الرعناء ، وإنذاره الصريح الشديد الذى وجهه إليها أحد ساداتها وزعمائها يبحثون جدياً عن مخرج ينقذهم من الورطة التى وقعوا فيها أنفسهم ورأت أن هذا المخرج لن يكون إلا بعقد صلح يتم بينها وبين النبي ﷺ يحفظ لها ماء وجهها ، بعد أن أقسمت أن لا يدخل محمد عليها مكة أبداً حتى تنفى عن بكرة أبيها .

وتمهيداً للظفر بهذا الصلح الذى لا سبيل لقريش إلى الخروج من ورطتها إلا بالظفر به ، أخذت فى ملاطفة حليفها الأكبر سيد الأحابيش (بعد أن أسعها كلمات الرجولة والعدل) تلك التى أداخت باطلها وأزالت عنها عن خطاياها سكرابيل الوهم ، حتى تمتعت كل الصحو لثرى جريرة تحتها وبطرها تكاد تحقيق بها ويلاتها من كل جانب فقد طلب سادات قريش (فى رجاء) من سيد الأحابيش الذى أعلن أنه سينحاز إلى جانب الحق إذا لم ترجع قريش عن غيها فتخلى بين المسلمين وبين البيت .. طلبوا منه أن يمنحهم الفرصة الكافية ليهبوا عن مخرج من ورطتهم قائلين : (مه ، كف عنا يا حليس ، حتى نأخذ لأنفسنا ما نرضى ، وكان الذى يرضون هو الصلح الذى أبرموه مع النبي ﷺ كما سيأتى .

وقد أجابهم سيد الأحابيش إلى ما طلبوا فلم ينسحب من حلفهم بعد أن رأى أن ثمار إنذاره قد آتت أكلها بتراجع قريش عن موقفها المتصلب وسعيها للصلح مع المسلمين .

لقد أوقعت تصريحات سيد الأحابيش الشديدة قريشاً فى مأزق حرج للغاية ، وزاد من موقفها حرجاً إن ارتفعت أصوات كثيرة (بعد تصريح

سيد الأحابيش) داخل المعسكر القرشي تستهجن الحماسة التي أقدمت عليها قريش بمنعها المسلمين وصدّهم عن البيت بغياً وعدواناً .

إن قريشاً وجدت نفسها في نهاية المطاف في موقف لا تحسد عليه .. بين جذب وشد .. تتخبط في جو من الحيرة والتردد .

فلا شيء أثقل على نفسها من أن يدخل محمداً وأصحابه وهم على هذه الهيئة من العزة والقوة والمنعة ، وهم بالأمس القريب خرجوا من مكة ضعفاء خائفين ، يتحسسون رؤوسهم وهم يغادرون مكة في جنح الظلام خلسة .

ماذا سيكون مصير مركز قريش الروحي والسياسي المتنازين بين العرب وأكثرهم يوم ذاك لا يزال على الشراك يدين لقريش بالريادة والقيادة لمكانتها من البيت) ؟ .. ماذا سيكون مصير مركزها بين عرب الجزيرة إذا ما علموا أن محمداً وأصحابه البالغ عددهم ألفاً وخمسمائة ، قد دخلوا مكة آمنين مطمئنين دون أن يلقوا من سدنة الشراك والوثنية أية مقاومة ؟ .

إن المصير معروف ، وهو تصدّع وانحيار هذا المركز في نفوس كل العرب الوثنيين . هكذا كانت تتصور قريش الباغية .

من هنا كانت الرغبة ملحة في نفوس سادات مكة للحيلولة دون دخول المسلمين مكة ، ولو أدى هذا إلى استخدام القوة المسلحة .

غير أن المشركين مع هذه الرغبة الشريرة الملحة في نفوسهم يشعرون شعوراً كاملاً بأنهم سيكونون الخاسرين إذا ما نشبت الحرب بينهم وبين المسلمين المرابطين في الحديبية .. وهذا الشعور مصدره التجارب العملية القاسية التي مرت بقريش في معارك بدر وأحد والخندق ، حيث

تلقوا على أيدي المسلمين (وهم قبلة قليلة) أشنع الهزائم والاندحارات المريعة .

فشيخ انقضاخ ثلاثمائة من المسلمين كالنمور الكاسرة على لف من فرسان مكة وصناديدها يتفوقون عليهم في كل شيء - لا قوة العقيدة - في بدر (وبعثرتهم في الشعاب والوهاد كما يبعثر الريح العاصف أوراق الخريف) لا يزال كابوساً مخيفاً يرعب سادات مكة ويشدهم إلى الوراء كلما أرادوا التفكير (جدياً) في الدخول في حرب ضد المسلمين لصددهم عن البيت بالقوة .

وزاد الطين بلة موقف سيد الأحابيش الذي شجب تصرفات قريش التعسفية وحملها مسؤولية ما قد يحدث من صدام مسلح داخل الحرم ، بل وأنذرهم بأنه لن يلوّث يده بالدم في هذا الصدام إذا ما أصرت قريش على عنادها وبطرها .

ومن جهة أخرى ازداد موقف المسلمين قوة لاسيما بعد أن وجدوا داخل المعسكر القرشي (كالحليس بن زبّان) وبين جيران الحرم من غير القرشيين (كسيد خزاعة بديل بن ورقاء) من يؤيدهم ويرى الحق في جانبهم ، ويلقى باللوم على قريش ويحملها مسؤولية الأزمة الحادة القائمة والتي كادت تصل إلى درجة اشتعال نار الحرب . ولكن الأمل الكاذب ظل يراود سادات مكة في تحقيق أهدافهم العدوانية .

الفصل الثالث

- * المشركون يهاجمون المسلمين في الحديبية .
- * وقوع سبعين أسيراً في أيدي المسلمين ، والنبي يعفو عنهم فيطلق سراحهم .
- * قريش تحتجز عثمان بن عفان في مكة ، وإشاعة تقول أنه قتل .
- * التهاب الموقف بين المسلمين في الحديبية .
- * النبي صلى الله عليه وسلم يقرر مناخزة قريش ويستنفر أصحابه للحرب .
- * الصحابة يبايعون النبي على الموت تحت الشجرة بالحديبية .
- * قريش تدعو لإعلان النبي حالة الاستنفار في الحديبية .
- * جلسة طارئة في برلمان مكة (دار الندوة) لبحث الموقف المتفجر .
- * قريش تسعى للصلح بعد سعيها للحرب .
- * النبي صلى الله عليه وسلم يرحب بالصلح .
- * الوفد القرشي المفاوض في الحديبية .
- * مباحثات الصلح بين الفريقين .
- * اتفاق الفريقين على بنود الصلح .
- * معارضة المسلمين العنيفة للصلح .
- * عمر بن الخطاب يجادل الرسول صلى الله عليه وسلم منتقداً بشدة بعض شروط المشركين .
- * الصحابة يستجوبون النبي صلى الله عليه وسلم حول بعض بنود الصلح .

- * النبي يقنع أصحابه فيكفون عن المعارضة .
- * خزاعة تدخل في عهد المسلمين ، وبنو بكر في عهد قريش .
- * توقيع اتفاقية الصلح وتبادل الوثائق .
- * المسلمون يحلون إحرامهم ويعودون إلى المدينة .

اعتقال سبعين متسللاً من المشركين :

بالرغم من الانشقاق الخطير الذي حدث في صفوف المشركين نتيجة معارضة سيد الأحابيش الحليس بن زبّان وعروة بن مسعود لتصرف قريش المتعنت إزاء المسلمين ، هذا التصرف الطائش الذي انسحب (احتجاجاً عليه) سيد ثقيف عروة بن مسعود من التجمع القرشي بقومه إلى الطائف ، وهدد أيضاً (احتجاجاً على هذا التصرف الأخرق) الحليس ابن زبّان بالتمرد على قريش والانسحاب من تجمعها بقومه الأحابيش كما تقدم .. بالرغم من هذا الانشقاق الخطير في معسكر الشرك ، فإن قريشاً (بدلاً من أن تسلك سبيل الاعتدال وتخفف من تصلفها وغلواتها وتحرشها بالمسلمين) أخذ سفهاؤها في تصعيد الأزمة وزيادة حدة التوتر إلى درجة كادت تصل بالتوتر إلى حد انفجار الحرب .

فبينما كان النبي وأصحابه في الحديبية محافظين على ضبط النفس وعاملين - بكل الوسائل - على قفل كل باب يمكن يؤدي فتحه إلى إشعال نار الحرب بينهم وبين قريش ، وبينما كان العقلاء في المعسكر القرشي نفسه - أمثال الحليس بن زبّان وقائد الأحابيش الحلفاء - يتوقعون من سادات مكة أن يضعوا حداً لتسلط الغلاة المتطرفين في معسكرهم ، فيجنحوا السلم ويعملوا على تجنب ما من شأنه الاقتراب

بالفريقين إلى حافة الحرب ، إذا بقريش ترسل العنان لسفائها -
ومتطرفيها ليذهبوا في تصعيد الأزمة وتعقيدها إلى درجة العدوان على
المسلمين بالهجوم عليهم - عن طريق التسلل - في معسكرهم بالحديبية .
فقد ذكر جمهرة المؤرخين أن سبعين من فرسان المشركين تسللوا
في جماعات أثناء الليل إلى معسكر المسلمين لعلهم ينالون منهم (بالقتل
أو الأسر) غدرًا في غلس الظلام ، إلا أن رجال دوريات الحراسة التي
أقامها النبي ﷺ عند نزوله الحديبية كانوا لهم بالمرصاد ، حيث
أحبطوا جميع مخططات هؤلاء المتسللين ، الذين انتهى بهم التسلل إلى
الوقوع في أسر دوريات المسلمين مجموعة بعد أخرى ، حتى بلغ عدد
الذين ألقى عليهم الحرس الإسلامي القبض أثناء الليل سبعين فارساً ،
أتى بهم الحراس مقيدين إلى مقر قيادة النبي الأعظم ﷺ في الحديبية .
وكان هؤلاء المتسللون الأشرار قد نجحوا - في غلس الظلام - من
أسر بعض الصحابة حيث هاجموهم غدرًا وهم عزل آمنون ، إلا أن
دوريات المسلمين استنقذت هؤلاء الأسرى المسلمين عندما أَلْقَت القبض
على السبعين من المتسللين المشركين .

النبي يعفو عن المتسللين ويطلق سراحهم :

غير أن النبي ﷺ بالرغم من هذا التصرف من قبل المشركين
المتسللين الذي يحمل كل معاني البغى والاستفزاز ، قد عفى عنهم
فأطلق سراحهم جميعهم ، قائلاً لأصحابه : دعوهم يكن لهم بدء الفجور^(١)

(١) تاريخ الطبري ج ٢ ص ٦٣٠ .

نشوب القتال في الحديبية :

فقد ذكر الواقدي في مغازيه (ج ٢ ص ٦٠٢) أن قريشاً بعثت ليلاً خمسين رجلاً عليهم مكرز بن حفص ، وأمروهم أن يطيفوا بالنبي ﷺ رجاء أن يصيبوا منهم أحداً أو يصيبوا منهم غرة ، فاعتقلهم محمد بن مسلمة - قائد إحدى فصائل الحراسة الليلية - ، فجاء بهم إلى رسول الله ﷺ ، فجاء جمع آخر من المسلحين القرشيين إلى النبي ﷺ وأصحابه - باغهم وقوع الخمسين أسرى في أيدي المسلمين - وهاجموا المسلمين فنشب قتال بين الفريقين استخدمت فيه الحجارة والنبال ، إلا أن المسلمين تمكنوا من دحر المهاجمين بعد أن أسروا عدة منهم .

وذكر الطبري في تاريخه (ج ٢ ص ٦٣٠) عن إياس بن مسلمة عن أبيه : أنه ألقى القبض وحده على أربعة من المسلمين المشركين ، قال سلمة : فجئت بهم أقودهم إلى رسول الله ﷺ وجاء عتي عامر برجل من العبلات يقال له مكرز يقوده مجففاً^(١) حتى وقفنا بهم على رسول الله ﷺ في سبعين من المشركين ، فنظر إليهم رسول الله ﷺ ، فقال : دعوهم يكن لهم بدء الفجور ، فعفا عنهم ، قال : فأنزل الله : « وهو الذي كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة »^(٢)

وذكر سلمة - فيما ذكره الطبري أيضاً - أنه وحده اعتقل ستة من المسلمين وأنقذ - بالاشتراك مع زملاء له - كل المسلمين الذين وقعوا في أسر المسلمين في الحديبية فقال : فشددنا على من في أيدي المشركين

(١) مجففاً : أي لابس التجفاف ، وهو آلة للحرب ، يلبسها الفرس والإنسان .

(٢) سورة الفتح الآية : ٢ :

منا ، فما تركنا في أيديهم منا رجلاً إلا استنقذناه ، وغلبنا على من في أيدينا منهم ، فجئت بسة من المشركين متسلحين أسوقهم ، ما يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضرراً ، فأتيت بهم النبي ﷺ فلم يسلب ولم يقتل ، وعفا ^(١) .

قريش تقتل رجلاً من المسلمين :

بل لقد بلغ البغي بقريش إلى أن أقدمت على قتل أحد أصحاب النبي ﷺ بقصد استفزاز المسلمين ، وكان هدف السفهاء الذين أقدموا على القتل استدراج المسلمين إلى الدخول في حرب شاملة تجعل المتعقلين في المعسكر القرشي أمام الأمر الواقع ، فيخوضوا حرباً هم لها كارهون .. ولكن النبي ﷺ فوت على هؤلاء المتطرفين فرصتهم ، إذ التزم جانب الحكمة والحلم والتروى ، فلم يسمح لأن يكون ذلك العدوان الطائش باعثاً للمسلمين على خوض حرب شاملة لا يرغبون فيها .

فقد روى الطبري في تاريخه - بإسناده إلى قتادة - أن رجلاً من أصحاب النبي ﷺ يقال له : زنيم ، اطلع الثنية من الحديبية ، فرماه المشركون فقتلوه ، فبعث رسول الله ﷺ خيلاً فاتوه بائني عشر فارساً من الكفار ، فقال لهم نبي الله : « هل لكم على عهد ؟ هل لكم على ذمة ؟ » قالوا : لا ، قال : فأرسلهم رسول الله ﷺ .

المبعوث النبوي عثمان في مكة :

بالرغم من محاولات إحلال السلام التي بذلت جدياً - بنية صادقة -

(١) تاريخ الطبري ج ٢ ص ٦٢٩ :

من قبل النبي الأعظم ﷺ ، ومن قبل بعض الوسطاء الآخرين ، فقد ظل الموقف في الحديبية وفي بلدح^(١) متوتراً بل زاده توتراً ، أن قام سبعون من سفهاء المشركين بالتسلل - ليلاً - إلى معسكر المسلمين في الحديبية للعدوان ، وتمكنوا من قتل رجل من أصحاب النبي ﷺ . ولكن النبي ﷺ وهو سيد الحكماء وإمام العقلاء لم يقفل باب الأمل في التوصل إلى حلّ سلمى لهذه الأزمة الخطيرة التي بدت مؤشراتنا تشير إلى أنها ستتحوّل إلى حرب ضروس لا تبقى ولا تذر .. حرب أعلن النبي الأعظم ﷺ أنه سيعمل على تجنبها ما وجد إلى ذلك سبيلاً .

كان النبي ﷺ ليؤكد لأهله وعشيرته نواياه السلمية في مجيئه هذا - قد بعث حال نزوله الحديبية بمبعوث خاص إلى قريش ، يبلغها - وهي في بلدح - هذه النوايا وينصحها بالتعقل والتخلي عن فكرة الحرب وكان مبعوثه الخاص هذا - كما تقدم - هو خراش بن أمية الكعبي ثم الخزاعي .

غير أن الحمية الجاهلية والعنجهية الوثنية لم تترك فرصة لسادات مكة لينظروا بتعقل في العرض السلمى النبوى الذى حمّله إليهم مبعوثه الخاص ، فلم يكتفوا برفض هذا العرض السلمى وعدم النظر فيه ، بل حاول سفأؤهم قتل حامله خراش بن أمية ، بمجرد علمهم أنه جاء يحمل هذا العرض ، فعاد المبعوث النبوى الأول دون أن يتمكن من إبلاغ قريش هذا العرض السلمى ، وقال للنبي ﷺ : يا رسول الله ابعث رجلاً - أمتع منى - أى أقوى وأكثر عصبية بين قريش .

(١) هو الوادى الذى كانت قريش فيه بجيوشها أثناء أزمة الحديبية .

ولما كانت فكرة السلام في هذه الأزمة الخطيرة تحتلّ المقام الأول في ذهن النبي الأعظم ﷺ بين الحلول التي يمكن اتباعها فقد قام من جانبه « بالرغم مما أقدمت عليه قريش من حماقات واستفزازات طيلة البضعة عشر يوماً التي مرّت على الأزمة قام من جانبه النبي ﷺ بمحاولة سلمية. أخرى ، وكانت هذه المحاولة الجديدة عن طريق مبعوث خاص آخر بعث به إلى قريش في معسكرها بوادي بلدح وفي مكة ذاتها .

عمر بن الخطاب يعتذر عن الوساطة :

فقد رأى النبي الأعظم ﷺ أن ينتدب عمر بن الخطاب ليكون مبعوثه الخاص إلى قريش يدعوها إلى السلام ، وطرح فكرة الحرب جانباً .

فاستدعى الرسول ﷺ عمر وأبلغه بأنّه يرغب في أن يكون رسوله إلى قريش ، ليعرض عليهم من جديد نفس العرض السلمي الذي حمّله إليهم خراش بن أمية ، فلم يتمكن من إبلاغهم إياه لمحاولتهم الفتك به قبل أن يفاتحهم بشأن هذا العرض .

غير أن عمر بن الخطاب اعتذر للنبي ﷺ عن القيام بهذه المهمة ، وأعطى لهذا الاعتذار مبررات معقولة جداً ، وهي شدة العداوة التي بين عمر بن الخطاب وبين المشركين ، وضعف عصبية القبيلة بين قريش . فقد قال ابن الخطاب (معتذراً) : يا رسول الله إني أخاف على نفسي وليس لي من بني عدى بن كعب أحدٌ يمنعني ، وقد عرفت قريش - عداوتي إياها وغلظتي عليها .

ثم أشار على النبي ﷺ بأن يبعث إلى قريش رجلاً ذا عصبية
وَمَنْعَةً في قومه بمكة ، ليكون بمأمن من القتل ... لا سيما بعد الذي حدث
لخراش بن أمية الذي كاد أن يقتله المشركون لولا حماية الأحابيش له ،
وإعادته سالماً إلى الحديبية .

وكان الرجل (ذا العصبية القوية في قومه) والذي أشار ابن الخطاب
على النبي ﷺ أن يبعثه ، هو (عثمان بن عفان) لأنه ينتسب إلى
بني عبد شمس بن عبد مناف ، وهي من أقوى القبائل القرشية ذات
القوة والعدد والنفوذ في مكة .

فقد قال ابن الخطاب للنبي ﷺ - حينما اعتذر عن القيام بدور
الوساطة - : ولكني أدلك على رجل أعزّ مني (يعني في قومه بمكة) :
عثمان بن عفان .

فقبل النبي ﷺ اعتذار عمر بن الخطاب ، واستصوب مشورته
بشأن إرسال عثمان بن عفان مبعوثاً خاصاً إلى قريش .

فقد استدعى النبي ﷺ عثمان وقال له : « اذهب إلى قريش
فأخبرهم أننا لم نأت لقتال أحد ، وإنما جئنا زواراً لهذا البيت معظمين
لحرمة ، معنا الهدى ننحره وننصرف ^(١) .

وصدع عثمان بأمر نبيه الكريم ، وفي ذلك الجو المكهرب المشحون
بالتوتر الشديد توجه عثمان إلى مكة ليبلغ ساداتها حقيقة موقف النبي
ﷺ ونواياه السلمية المحضة ، في رسالة (بعضهم يقول خطية ،
وبعضهم يقول شفوية) حملها عثمان إلى سادات قريش وزعمائها .

(١) طبقات ابن سعد الكبرى ج ٢ ص ٩٧ .

محاولة الاعتداء على عثمان

ولم يكن ابن الخطاب مخطئاً في تقديراته بأن قريش لن تتورع عن الفتك بمن تجده من أصحاب النبي ﷺ حتى ولو كان عند أستار الكعبة .

لقد اجتاز عثمان بن عفان حدود الحرم بمفرده قاصداً مكة غير مبال بخطر الموت الذي قد يتعرض له على أيدي السفهاء من قريش الذين وفعلاً كاد المشركون المتهورون أن يقتلوا عثمان أولاً أن أجاره أحد أفراد قبيلته (العزيزة في مكة) ، ففي ضواحي مكة وفي وادي (بلدح) ^(١) التقى عثمان بدورية مسلحة من فرسان قريش فكادوا أن يفتكوا به أولاً وجود أبان بن سعيد بن العاص بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس ، الذي كان ضمن رجال الدورية .

عثمان في معسكر قريش ببلدح :

ففي أطراف معسكر التجمع القرشي في وادي (بلدح) غربي مكة ، التقت دورية مسلحة من فرسان قريش بعثمان فحاولوا الفتك به (بعد أن عرفوه) لولا أن أبان بن سعيد بن العاص ^(٢) الأموي كان بينهم ، فحال

(١) انظر مغازي الواقدي ص ٣٠٨ .

(٢) هو أبان بن سعيد بن العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف القرشي ، كان من أشراف قريش ، وأبوه كان من أكابرها ، وعندما لقي ابن عمه عثمان أخذه في جواره وقال شعراً يطمئنه :

أسبل وأقبل ولا تخف أحداً بثر سعيد أغزة الحرم

كان لأبان أولاد نجباء هدى الله منهم إثنين للإسلام قبله ، وهما : خالد وعمر ، اللذين كانا من السابقين الأولين ، هاجراً إلى الحبشة ، وفيهما قال أبان مستكراً لإسلامهما :

بين رجال الدورية وبين الاعتداء على عثمان ، حيث أعلن حمايته لابن عمه إذ نادى : يا معشر قريش إن عثمان بن عفان في جوارى فكفوا عن عثمان .

قيمة الجوار في الجاهلية :

وهذا الإعلان من أبان بن سعيد كاف لأن يشل أى يد يريد صاحبها أن يمس عثمان بن عفان بسوء ، ذلك أن قانون الجوار عند العرب في الجاهلية (وهو قانون غير مكتوب) له مكان القداسة ، مجمعون على احترامه والعمل به ، ولا يخرق هذا القانون إلا الذى لا يبالي أن يعرض نفسه وقبيلته لحرب ضروس مدمرة .

فقد كان المتعارف عليه أن من حق أى فرد في القبيلة أن يُعطى جواره ويعلن حمايته لأى إنسان أراد .. وإذا ما فعل ذلك ، فإن قبيلة المجير تصبح - تلقائياً - ملزمة بتحمل مسؤولية هذا الجوار ، وهى حماية الإنسان الذى يجيره الفرد المنتسب إليها .

ألا ليت ميتاً بالضريبة شاهد لما يفترى في الدين عمرو وخالد

غير أن أبان نفسه هاجر قبل الفتح وأسلم أيام خيبر وشهدا مع النبي صلى الله عليه وسلم ، وجعله النبي صلى الله عليه وسلم قائداً لإحدى السرايا ، وزعم ابن إسحاق أن أبان ممن هاجر إلى الحبشة ولكن الأول أصح ، وقد شهد أبان ابن سعيد بدرأ مشركاً ، وقتل أخواه (العاص وعبيدة) مشركين ، ولله النبي صلى الله عليه وسلم البحرين ، وتوفي صلى الله عليه وسلم وأبان أمير عليها قاله الواقدي .. شهد أبان بن سعيد معارك الجهاد في الشام ، واختلف المؤرخون في تاريخ وفاته ، والراجح أنه قتل يوم أجنادين بفلسطين سنة ١٣ هـ .

وحسب قواعد قانون الجوار هذا كفَّ رجال الدورية القرشيون عن عثمان بن عفان ، لأنهم يعرفون أنَّ التعرض له بسوء سيعرّضهم لمتاعب ومصاعب عديدة بعد أن أصبح (بإعلان هذا الجوار) في حماية بنى عبد شمس جميعاً ، وهى قبيلة لها ثقلها العظيم بين القبائل القرشية .

اجتماع عثمان بسادات المشركين فى بلدح :

وفى وادى (بلدح) خارج مكة حيث تعسكر قريش وحلفاؤها بقواتهم الضاربة ، اجتمع عثمان بن عفان بقيادة قريش وأبلغهم الرسالة التى كلفه النبي ﷺ أن يبلغهم إياها ، والمتضمنة تخييرهم بين أحد أمرين : إما الدخول فى الإسلام ، وإما إقامة سلام بينهم وبين المسلمين ، وترك النبي ﷺ وسائر العرب ، على أن يلتزم القرشيون الحياد التام إزاء أى صراع دام ينشب بين النبي ﷺ وبقية مشركى العرب ، كما تضمنت الرسالة أيضاً إبلاغ قريش رسمياً أنَّ النبي ﷺ لم يأت للحرب ولا رغبة له فيها ، وإنما جاء معتمراً ، وأنه فور انتهائه وأصحابه من نحر الهدى وإكمال مناسك العمرة سيغادرون مكة عائدين إلى المدينة . ولكن قريشاً رفضت كل هذه الحلول السلمية التى تضمنتها الرسالة النبوية الكريمة وأصرّوا على التشبث بموقفهم المتعنّت .

خلاصة الرسالة النبوية إلى قريش :

وقد ذكر الواقدي خلاصة هذه الرسالة الهامة فقال : (فخرج عثمان حتى أتى بلدح ، فيجد قريشاً هنالك ، فقالوا : أين تريد ؟ قال : بعثنى

رسول الله ﷺ إليكم يدعوكم إلى الله وإلى الإسلام ، تدخلون في الدين كافة ، فإن الله مظهر دينه ومعزّ نبيّه ، وأخرى تكفّون ، وبلى هذا منه غيركم ، فإن ظفروا بمحمد فذلك ما أردتم ، وإن ظفر محمد كنتم بالخيار ، أن تدخلوا فيما دخل فيه الناس أو تقتاتلوا وأنتم وافرون جامعون ، إن الحرب قد نهكتكم وذهبت بالأمائل منكم .. وأخرى أن رسول الله ﷺ يخبركم أنه لم يأت لقتال أحد ، إنما جاء معتمراً معه الهدى عليه القلائد ينحره وينصرف ، فجعل عثمان يكلمهم فيأتيهم بما لا يريدون ، ويقرأون قد سمعنا ما تقول ولا كان هذا أبداً ، ولا دخلها علينا عنوة فارجع إلى صاحبك فأخبره أنه لا يصل إلينا ^(١) .

عثمان في مكة :

وبعد أن أبلغ عثمان رسالة النبي ﷺ إلى كبار قادة قريش الموجودين في المعسكر بوادي (بلدح) قرر أن يتوجّه إلى مكة نفسها ليلبلغ الرسالة النبوية من لم يكن حاضراً في بلدح من سادات قريش .

وعندما علم أبان بن سعيد (مُجِير عثمان) برغبة ابن عمه في دخول مكة قرّر أن يكون في صحبته ليعرّف الناس أنه في جواره فلا يعتدى عليه أحد ، فقد أحضر أبان فرسه وأردف عثمان خلفه ثم انطلق به نحو مكة ، ولما وصل مكة رأى الناس عثمان وكانوا يعرفونه ، وكانت رغبتهم جامحة في أن يفتكوا به كلّ أحد الأركان من أصحاب محمد ، ولكنهم لما رأوه رديفاً لأبان بن سعيد بن العاص على فرسه ، عرفوا أنه في جواره فكفّوا عن أذاه على مريض .

(١) مغازي الواقدي ج ٢ ص ٦٠٠ وما بعدها .

وفي مكة أبلغ أبان بن سعيد عثمان بن عفان بأن له مطلق الحرية أن يبقى في مكة أية مدة يشاء وأن يذهب فيها إلى حيث يشاء ، وأن يتصل بمن يشاء من سادات مكة ممن لم يكن قد اجتمع بهم في بلدح .

عثمان عند أبي سفيان :

ولما كان أبو سفيان بن حرب هو سيد بني أمية وكل عبد شمس وزعيم قريش الكبير ، فقد نزل أبان بن سعيد بعثمان عليه في داره ، فاستقبل أبو سفيان عثمان فيها .

وكان أبو سفيان بن حرب وصفوان بن أمية وزعماء قرشيون آخرون غير حاضرين في معسكر قريش (ببلدح) حين بلغ عثمان وجوه القوم وقادتهم رسالة النبي ﷺ .

ولذلك اجتمع عثمان بهؤلاء الزعماء (صفوان بن أمية وأبي سفيان بن حرب وبقية الزعماء) في مكة فأبلغهم رسالة النبي ﷺ وقال لهم : مثلما قال لزملائهم من الزعماء والقادة في وادي بلدح ..

ولكن جواب أبي سفيان وصفوان وبقية الزعماء في مكة لم يكن يختلف عن القادة الذين في معسكرهم ببلدح ، حيث كان جوابهم في مكة الرفض الكامل لكل ما جاء في الرسالة النبوية جملة وتفصيلا .

قريش تطلب من عثمان أن يطوف فيرفض :

ولما كان عثمان في ضيافة قومه بني أمية وفي جوارهم لم يجزؤ أحد من المشركين على التعرض له بأي أذى ، بل صاروا يتوددون إليه ، فقد

قالوا له : إن شئت أن تطوف بالبيت فطف به ، وما كانوا يقولوا له ذلك لولا أنه في جوار بني عبد شمس وحمایتهم .

غير أن عثمان رفض عرض القرشيين فقال : ما كنت لأفعل حتى يطوف رسول الله ﷺ (١) .

وشاع بين المسلمين في الحديبية بأن عثمان ظاف بالبيت ، فقال الصحابة : يا رسول الله وصل عثمان إلى البيت فطاف ، فقال الرسول ﷺ : ما أظن عثمان يطوف بالبيت ونحن محصورون ، قالوا : يا رسول الله وما يمنعه وقد وصل إلى البيت ؟ فقال ﷺ : ظني به ألا يطوف حتى نطوف (٢)

بئس ما ظننتم :

فلما رجع عثمان إلى الحديبية قال له الصحابة : اشتفيت من البيت يا عبد الله ؟ فقال عثمان : بئس ما ظننتم بي ، لو كنت بها سنة والنبي ﷺ مقيم بالحديبية ما طفت ، ولقد دعيت قريش إلى أن أطوف فأبيت ذلك عليها ، فقال المسلمون لرسول الله ﷺ : كان أعلم بالله تعالى وأحسننا ظناً (٣) .

مبعوث السلام يزور المستضعفين في مكة :

وقد انتهز مبعوث النبي ﷺ إلى قريش عثمان بن عفان فرصة وجوده في مكة والحرية الكاملة التي أعطيت له في ظل جوار قومه بني

(١) تاريخ الطبري ج ٢ ص ٦٣١ .

(٢) مغازي الواقدي ج ٢ ص ٦٠١ وما بعدها .

(٣) مغازي الواقدي ج ٢ ص ٦٠٢ .

أمية المشركين .. انتهاز فرصة وجوده هذه ، فقام بزيارة المستضعفين المسلمين من النساء والرجال الذين ظلوا يعيشون داخل المجتمع القرشي المشرك في مكة ، لعدم تمكنهم من الهجرة واللحاق بالمسلمين في المدينة ، إما لكونهم من النساء ، وإما لكونهم من الذين لا عصبية لهم في قريش تحميهم من الاضطهاد ، كالموالى أو كالأفراد الذين استوطنوا مكة وهم ليسوا من أهلها .

فقد قام عثمان بزيارة هؤلاء المستضعفين المسلمين في مكة (فرداً فرداً) وبشّرهم بأن عهد التخلص من الظلم الوثني قد آسف وأن اليوم يكونون فيه أحراراً لا يستخفون فيه بدينهم من أحد بمكة لقريب جداً ، وقد كان هذا التبشير ضمن رسالة خاصة حملها عثمان إلى هؤلاء المستضعفين من النبي محمد ﷺ .

فقد قال عثمان نفسه - فيما يرويه المحدثون عنه ضمن قصة سفارته إلى قريش ... : ثم كنت أدخل على قوم مؤمنين من رجال ونساء - مستضعفين فأقول : إن رسول الله ﷺ يبشركم بالفتح ويقول : « أظأنكم حتى لا يستخفى بمكة الإيمان » ، قال عثمان : فقد كان الرجل منهم والمرأة تنتعب حتى أظن أنه يموت فرحاً بما خبرته ، فيسأل عن رسول الله ﷺ فيخفى المسألة ، ويشدد ذلك على أنفسهم ، ويقولون : اقرأ على رسول الله ﷺ منا السلام ، إن الذي أنزله بالحديبية لقادر أن يدخله مكة (١) .

(١) مغازى الواقدي ج ٢ ص ٦٠١ (نشر جامعة أكسفورد) .

إشاعة مقتل عثمان وبيعة الرضوان :

لقد مضى على المسامين في سهل الحديبية حوالى عشرين يوماً وهم محصورون ممنوعون من دخول الحرم .

وكانوا طيأة هذه الأيام مُحرمين ، لا يقدّمون ظفراً ولا يقطعون شعراً ولا يمسّون طيباً ، ولا يقربون امرأة ، قد شعث وأتسخ شعرهم وقمل بعضهم ، لطول بقائهم محرمين ، ولا يخفى ما في طول المكث بالإحرام من مشقة نفسية وجسدية على المحرم .

ولا شك أن صحة الكثير منهم باتت معرضة للخطر ، نتيجة هذا الحبس والإحصار الذي لا مبرر له ، والذي نالهم بسبب تهديد قريش باستخدام السلاح ضد المسلمين والدخول معهم في حرب ضروس إن اجتازوا حدود الحرم .. حرب ما كان مخفف آلام البشرية ومنقذ الإنسانية والداعية الأول للسلم والمحبة والسلام ، راغباً فيها بل حريصاً كل الحرص على تجنبها ، ولذلك لم تكن واردة ضمن برنامجهم منذ تحرّك في رحلته الروحية السلمية من المدينة ، والّتي كان شعارها الوحيد: (إننا لم نأت لقتال أحد إنما جئنا لنطوف بهذا البيت) ^(١) .

لقد بذل النبي ﷺ - بروحه السمحة العالية المحبة للسلام - والكارهة للحرب - بذل كل ما وسعه لإحلال السلام بينه وبين قومه وعشيرته ، وإبعاد شبح الحرب البغيض التي بدا واضحاً أن كبرياء سفهاء قريش الوثنية تتوق إلى إشعال نيرانها ، ظناً من هؤلاء السفهاء أنهم بخوضهم هذه الحرب ضد المسلمين بالقرب من مكة قد يستعيدون

(١) كلمة يردد النبي صلى الله عليه وسلم مقناها في كل مناسبة وهو في رحلته السلمية

هذه :

ما فقدوه من كرامة عسكرية في بطاح بدر وسمعة حربية وسياسية عند
مشارف الخندق قرب أسوار المدينة .

بذل النبي الأعظم ﷺ كل ما في وسعه ليجنب أصحابه المؤمنين
في الحديبية ، وقومه وعشيرته المشركين في مكة شرور وويلات هذه
الحرب ، وذلك في مختلف العروض السلمية البناءة الهادفة ، التي تقدم
بها إلى أهل وعشيرته في مختلف الاواقف والذاسبات .

عرضها للوسطاء الذين بعثت بهم قريش لمفاوضته ومناقشته ، بل
وبعث بها (إلى زعماء قريش في مكة) سفراء من خاصته وبطانته لعله
ينجح في إقناع قريش بالجنوح إلى السلم ، والتخلي عن فكرة الحرب
التي لم يكن لدى قريش من مبرر لها أو موجب ، لا سيما وأن سادات
مكة قد تبلغوا (بما لا يدع مجالاً للشك) أن النبي ﷺ وأصحابه لم
يأتوا للحرب ولم تكن لهم أية رغبة فيها ، بدليل أن كل شيء في
مخيماتهم بالحديبية يدل على أنه ليس بينهم أية علامة تدل على نية
للحرب ، وإنما كل شيء يشير (كما شهد بذلك رسل قريش ووسطاؤها
والمحايدون الذين قاموا بزيارة المسلمين في معسكرهم) إلى السلم والسلم
فقط .

تضايق المسامين من طول المكث :

لقد بدا واضحاً أن المسلمين باتوا متضايقين لطول مكثهم في
الحديبية دونما الوصول إلى حلّ يدخلون بموجبه مكة لأداء مناسك العمرة
والتحلل من إحرامهم الذي أجبرهم بغى قريش وشططها على الالتزام
بمواجباته الشاقة حوالي عشرين يوماً .

وأخذت حدة التوتر تتزايد نتيجة تضاييق المسلمين من طول الاحتباس في الحديبية ، ونتيجة استمرار قريش في تمسكها بموقفها المتعنت المتصلاّف ، رغم العروض السلمية العادلة المنصفة التي عرضها النبي ﷺ على سادات مكة حقناً للدماء والمتضمنة أن توافق قريش على السماح للمسلمين بزيارة البيت على أن يغادر هؤلاء مكة إلى المدينة بمجرد تحللهم من إحرامهم المتأبسين به منذ خروجهم من المدينة .

المسلمون واقتحام مكة بالقوة :

لقد كان رأى الصحابة أن يقوموا باقتحام مكة وشقّ طريقهم إليها بحدّة السيف ، ما دام أن جميع المحاولات السلمية الصادقة ظلت تُبذل من جانب النبي ﷺ طيلة حوالى عشرين يوماً دون أن تلقى من جانب القرشيين أية استجابة أو حتى تخفّف غطرستهم وشططهم .

وكان بإمكان المسلمين أن يقتحموا مكة ويحتلوها بالرغم من الفارق الكبير بينهم وبين قريش في العدد ، حيث أن القوات القرشية وحلفاءها يفوقون عدد المسلمين عدة أضعاف ، واكن التجارب في بدر وأحد والخندق وكل المعارك التي خاضها المسلمون ضد أعدائهم أثبتت أن النصر دائماً ليس للكثرة الغامرة وإنما لمن يحمل العقيدة الصادقة .

غير أن المسلمين مع رغبتهم العارمة في دخول مكة وقدرتهم على اقتحامها بالقوة لكسر طوق الحصار الذي فرضته قريش عليهم بدافع من كبرياء الوثنية والعنجهية الجاهلية ليس إلا ، فإن هناك شيئاً واحداً قد قيدهم تقييداً كاملاً عن الإقدام على ما يريدون ، وهو رغبة النبي

الأعظم ﷺ - الذى يدرك ما لا يدركون - فى تجنب القيام بأى عمل يكون من شأنه زيادة حدة التوتر والإسراع إلى إراقة الدماء . وهكذا فإن النبى ﷺ إزاء كل ما أقدمت عليه قريش من حماقات تمثلت فى استفزازاتها للمسلمين والإصرار على اللجوء إلى السلاح لمنعهم من دخول الحرم ، التزم ضبط النفس وكظم الغيظ ، ولم يتسرع فى الإقدام على أية خطوة من شأنها قدح شرارة الحرب التى أعلن - على لسان مبعوثيه الخاصين إلى قريش وأمام رسلها ووسطائها الذين زاروه فى معسكره بالحديبية - كرمه لها ورغبته الأكيدة الصادقة فى تجنبها ، وأنها آخر ما يفكر فيه من الوسائل لإقناع قريش بالتسليم بحق النبى وأصحابه فى الطواف بالبيت وتركهم يباشرون هذا الحق .

بيعة الرضوان نقطة التحول فى حل الأزمة :

كان النبى ﷺ يعنى كل كلمة يقولها عندما أعلن فى اليوم الأول الذى نزل فيه بأصحابه الحديبية ، بأنه قد استبعد نهائياً فكرة محاربة قومه عن طريق البدء بالهجوم ، وأنه مستعد لفتح الحوار معهم ، وعلى استعداد لقبول أية خطة سلام يعرضونها يكون فيها للحفاظ على صلة الرحم وصون حرمة الحرم عن سفك الدماء ، حين قال : « لا تدعوني قريش اليوم إلى خطة يسألونى فيها صلة الرحم إلا أعطيتهم إياها »^(١) وفى رواية : « أما والله لا يسألونى اليوم خطة فى تعظيم حرمة الله إلا أعطيتهم إياها »^(٢) . ثم أمر أصحابه بالعودة حيث عسكروا فى الحديبية

(١) تاريخ الطبرى ج ٢ ص ٦٢٤ .

(٢) مغازى الواقدي ج ٢ ص ٥٨٧ .

وكان قد ترك الحديبية وأخذ في الاتجاه لاجتياز حدود الحرم ، وكان ساعتها - وقبل أن يُدلى بهذا التصريح السلمى الهام - قد رسخ في أذهان أصحابه الألف والأربع مائة أنه سيستخدم السلاح لمقاتلة قريش (في اليوم الأول من وصوله) إنْ هي حاولت التعرُّض له ومنعه من دخول مكة بالقوة . ولذلك استعدَّ أصحابه للحرب تحسباً لأي طارئ ، إلا أن تصريحه الهام هذا ، وابتعاده بأصحابه عن حدود الحرم قد جعل نشوب الحرب بينه وبين قومه أمراً بعيد الاحتمال .

وقد ظلت فكرة السلام والبعد عن الحرب والحرص على صون دماء النريقين من أن تراق في حرم الله ، هي السائدة لدى النبي القائد ﷺ ، ولهذا فإنه ﷺ كُنِيَ جاء رحمة للعالمين أولاً ، وكقائد حكيم يحرص على هداية قومه وصلة أرحامهم وأن يبرِّهم وأن عقَّوه ثانياً) ابتعد وأمر أصحابه بالابتعاد عن أية مزایدات كلامية أو تصريحات عنترية يكون من شأنها إلهاب الموقف والاقتراب بالفريقين إلى حافة حرب لم يأت لها ولا رغبة له فيها ، ولهذا ظل ﷺ شعاره الرئيسى دعوة قومه - وعشيرته إلى السلام في كل حديث أو حوار يدور بينه وبينهم طيلة إقامته محصوراً في الحديبية .

فعل ذلك بالرغم من أن قومه من أهله وعشيرته لم يتركوا وسيلة من وسائل الاستفزاز والتحدى له ولأصحابه إلا واتبعوها ، فملأوا الدنيا بالمزایدات الكلامية والتصريحات العنترية ، واستنفروا حلفاءهم للحرب سفهاً وبطراً ورتاء الناس ، وأخذوا فوق ذلك (في استفزاز ملهياً للأعصاب) يستعرضون - أمام النبي وأصحابه - عضلاتهم العسكرية بإقامة استعراضات حربية لمختلف كتائب جيوشهم من خيالة ومشاة على

مرمى الحجر من المسلمين ، بل ذهبوا في سفهم إلى أبعد من ذلك ، حيث تساللت عدة وحدات من فرسانهم إلى داخل معسكر المسلمين في الحديبية أذناء الظلام ، بغية إثارة المسلمين واستدراجهم إلى الحرب التي لم يأتوا لها ، ولن يكونوا خاسرين إذا ما خاضوها ، ولكنها أوامر النبي الأعظم الذي لا يصدر إلا عن أمر ربه .

تحول المسلمين نحو الحرب ، جعل قريشاً تطلب السلم :

وبالرغم من كل هذه الحماقات ظل النبي شعاره هو هو ، لم يتغيّر (الدعوة إلى السلام وحقق الدماء) وظلت قريش من جهة أخرى ممعنة في غرورها وبطورها. تهتد بالحرب وتصرّ على منع المسلمين من دخول مكة مهما كانت النتائج .

غير أنه ظهر على سطح الأحداث (فجأة) حادث ، أوجد تغييراً جذرياً في موقف المسلمين ، جعلهم يتحوّون من موقف الصبر والسلم إلى موقف الحرب ، وذلك حينما اتخذ النبي ﷺ قراراً حاسماً بمحاربة قريش والدخول معها في معركة حاسمة .

الأمر الذي كان له من ناحية أخرى الأثر الحاسم في تبخير العنجهية من أدمغة سادات مكة واختفاء التصريحات العنترية والمزايدات الكلامية ، وجعل سادات مكة يبحثون عن السلم بنفس الرغبة الملحة التي كانوا بها يسعون إلى الحرب .

وذلك عندما جاءت الفكرة وذهبت السكر (كما يقول المثل) على أثر القرار الحاسم الذي اتخذته النبي ﷺ وأعلن بموجبه الاستنفار

العام بين جميع وحدات جيشه المرابطة في الحديبية لتكون على أهبة الاستعداد لمناجزة المشركين بالزحف على مكة .

فقد عمّ الذعر صفوف المشركين وانتاب قاداتهم الخوف والفرع للقرار الحاسم الذى اتخذه النبي ﷺ بمحاربة قريش ، وصار لذلك هم سادات المشركين محصوراً في إيجاد وسيلة لإبعاد شبح الحرب وإحلال السلام بين الفريقين ، وهو ما ظلّ النبي ﷺ يدعو إليه (صادقاً) طيلة عشرين يوماً ، وتآباه قريش وترفضه في غطسة بغیضة .

فبعد أن كان النبي ﷺ يسعى في تحقيق السلام فيبعث بالمبعوث تلو الآخر إلى قريش لتحقيق هذه الغاية ، تغير الموقف عكساً وانقلبت قريش نفسها تسعى جاهدة طالبة لإحلال السلام ، وانتهت مساعيها (وهي لا تكاد تصدّق) إلى إقامة صلح بينها وبين المسلمين تحقق بموجبه الدماء وتضع الحرب أوزارها لمدة عشر سنين ، ويُمكن المسلمين بموجبه من دخول مكة وزيارة البيت الذى حرموا زيارته طوال سبع سنوات كاملة .

سبب اتخاذ النبي القرار بإعلان الحرب :

أما سبب التحوّل الفجائى الحاسم في موقف المسلمين نحو الحرب ، فهو أن النبي ﷺ قد بعث كما تقدم (ضمن مساعيه السلمية) عثمان ابن عفان إلى مكة لإبلاغ قريش حقيقة نوايا المسلمين السلمية ، وأنهم لا يرغبون في الحرب ، ومحاولة إقناع قريش بالتخلّى عن مواقفها المتصلفة المشبعة بروح الحرب الظلمة ، كى يتاح للمسلمين أداء مناسكهم وإبلاغ الهدى محلّه .

وبينما كان عثمان بن عفان موجوداً في مكة بلغ النبي ﷺ - وهو في الحديبية - أن قريشاً بدلاً من أن تتفهم نواياه السلمية وتجيبه إلى ما دعا إليه من إقامة سلام بين الفريقين ، عدت على عثمان وعشرة من الصحابة كانوا معه في مكة فقتلوه جميعاً^(١) .

ولم يسع النبي ﷺ - عندما بلغه مقتل عثمان وأصحابه على أيدي القرشيين - إلا أن يستنفر أصحابه ويدعوهم إلى مقاتلة المشركين وذلك بأن دعاهم إلى مبايعته على الموت ، بعد أن نزل الأمر بذلك من السماء .

وقد لبى أصحابه جميعاً (وعددهم ألف وأربعمائة) ندائه فبايعوه تحت الشجرة في الحديبية ، فامتدحهم الله تعالى وأثنى عليهم وأعلن رضاه عنهم ، بقوله : ﴿ لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما في قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحاً قريباً ﴾ . وهذه هي بيعة الرضوان المشهورة .

قال الإمام الطبري في تاريخه (ج ٢ ص ٦٣٢) : أن رسول الله ﷺ حين بلغه أن عثمان قد قُتل قال : لا نبرح حتى نناجز القوم ، ودعا الناس إلى البيعة ، فكانت بيعة الرضوان تحت الشجرة .

وفي رواية أخرى عن سلمة بن الأكوع أنه قال : نادى منادى النبي ﷺ أيها الناس البيعة البيعة ، نزل روح القدس ، قال : فسرنا

(١) ذكر الواقدي في مغازيه : أن عشرة من الصحابة دخلوا مكة مع عثمان لزيارة أقارب لهم ، وهؤلاء العشرة هم : (كرز بن جابر الفهري ، وعبد الله بن سهيل بن عمرو وعياش بن أبي ربيعة ، وهشام بن العاص بن وائل ، وحاطب بن أبي بلتعة ، وأبو حاطب ابن عمرو بن عبد شمس ، وعبد الله بن حذافة ، وأبو الروم بن عمير ، وعمير بن وهب الجهمي ، وعبد الله بن أبي أمية بن وهب) . المغازي ج ٢ ص ٦٠٣ .

إلى رسول الله ﷺ وهو تحت سمرة ، قال : فبايعناه ، قال : وذلك قول الله تعالى : « لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة »^(١)

ابن الخطاب يمسك بيد الرسول للمبايعة :

وعن جابر بن عبد الله^(٢) أنهم كانوا أربع عشرة مائة ، قال : فبايعنا رسول الله ﷺ ، وعمر أخذ بيده تحت الشجرة ، وهى سمرة ، فبايعناه غير الجد بن قيس الأنصاري اختبأ تحت بطن بعيره^(٣) .

وذكر الواقدي تفصيلاً أوسع لقصة المبايعة فقال : (وكان رسول الله ﷺ يأمر أصحابه يتحارسون الليل ، وكان الرجل من أصحابه يبيت على الحرس حتى يصبح يطيف بالعسكر ، فكان محمد بن مسلمة على فرس النبي ﷺ - يحرس - ليلة من تلك الليالي وعثمان بمكة ، وكان عثمان قد أقام بمكة ثلاثاً يدعو قريشاً ، وكان رجال من المسلمين قد دخلوا مكة بإذن من رسول الله ﷺ على أهلهم ، فبلغ رسول الله ﷺ أن عثمان وأصحابه قد قتلوا ، فذلك حين دعا إلى البيعة .

ثم إن قريشاً بعثوا سهيل بن عمرو وحويطب بن عبد العزى ومكرز ابن حفص ، فأقبل رسول الله ﷺ يومئذ يؤم منازل بنى مازن بن النجار ، وقد نزلت في ناحية من الحديبية جميعاً ، قالت أم عماره^(٤) : والرسول تختلف بين رسول الله ﷺ وبين قريش ، فمر بنا رسول الله ﷺ يوماً في منزلنا . قالت : فظننت أنه يريد حاجة ، فإذا هو قد

(١) سورة الفتح الآية ١٨ .

(٢) تاريخ الطبري ج ٢ ص ٦٣٢ .

(٤) انظر ترجمة أم عماره في كتابنا (غزوة أحد) .

بلغه أن عثمان بن عفان قد قتل ، فجلس في رحالنا ثم قال : إن الله أمرني بالبيعة . قالت : فأقبل الناس يبايعونه في رحالنا حتى تدارك الناس فما بقي لنا متاع إلا وطئ ، فبايع رسول الله الناس يومئذ . قالت : فكأنني أنظر إلى المسلمين قد تلبسوا السلاح - وهو معنا قليل - ، إنما خرجنا عماراً ، فأنا أنظر إلى غزيرة بن عمرو (كان زوجها) وقد توشح بالسيف ، فقممت إلى عمود كنا نستظل به فأخذته في يدي ، ومعى سكين قد شددته في وسطى ، فقلت : إن دنا مني أحد رجوت أن أقتله . فكان رسول الله ﷺ يومئذ يبايع الناس وعمر بن الخطاب أخذ بيده فبايعهم على ألا يفرّوا . وقال قائل : بايعهم على الموت . ويقال : أول الناس بايع : سنان بن أبي سنان بن محصن ^(١) فقال : يا رسول الله ، أبايعك على ما في نفسك . فكان رسول الله ﷺ يبايع الناس على بيعة سنان بن أبي سنان ^(٢) .

النبي يبايع عن عثمان :

ولما كان عثمان بن عفان غائباً في سفارته إلى قريش بمكة ، بايع عنه النبي ﷺ فضرِب بإحدى يديه على الأخرى ^(٣) .

وقال ابن برهان الدين : (أن النبي ﷺ قال حين بايع عن عثمان :

(١) هو سنان بن أبي سنان بن محصن الأسدي ، أخو عكاشة بن محصن الأسدي ، قال ابن حجر في الإصابة : شهد سنان بدرأ ، كان سنان هذا أول من كتب إلى النبي صلى الله عليه وسلم بتحركات طليحة بن خويلد الأسدي المشبوهة ، مات سنان سنة ٣٢ هـ .

(٢) مغازي الواقدي ج ٢ ص ٦٠٣ وما بعدها .

(٣) انظر سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٣١٦ .

(اللهم إنَّ عثمان ذهب في حاجة الله وحاجة رسوله فأنا أبايع عنه فضرب
بيمينه شماله) (١) .

وفي الترمذى : (وكانت يسرى رسول الله ﷺ خيراً من أيمانهم) . (٢)
وفي مغازى الواقدي ج ٢ ص ٦٠٥ : (فلما رجع عثمان أتى به رسول
الله ﷺ إلى الشجرة فبايعه ، وقد كان قبل ذلك حين بايع الناس قال :
إن عثمان ذهب في حاجة الله وحاجة رسوله ، فأنا أبايع له ، فضرب
يمينه على شماله) .

عثمان يبايع النبي تحت الشجرة :

وبعد أن أطلقت قريش سراح عثمان والعشرة من الصحابة دعا
النبي ﷺ وجاء به وبايعه تحت الشجرة ، بعد أن بايع له في غيابه .
قال الواقدي : فلما رجع عثمان أتى به رسول الله ﷺ إلى الشجرة
فبايعه ، وقد كان قبل ذلك حين بايع الناس قال : إن عثمان ذهب في
حاجة الله وحاجة رسوله ، فأنا أبايع له فضرب يمينه على شماله (٣) .

قريش تسعى للصالح بعد البيعة :

وبعد أن تمت البيعة في الحديبية تأكد لدى سادات مكة أن ذلك
يعني الاستنفار العام بين المسلمين ، وأن البيعة لا تغني تصميم المسلمين

(١) السيرة الحلبية ج ٢ ص ١٤١

(٢) انظر بهجة المحافل للأشعر اليمنى ص ٣٢٢ .

(٣) المغازى ج ٢ ص ٦٠٥ .

على خوض الحرب ضد قريش ، فخلف القرشيون خوفاً شديداً ، لأنهم يدركون (سلفاً أن نتيجة هذه الحرب إذا ما نشبت) ستكون في غير صالحهم مستمدين هذا الإدراك من التجارب العلمية القاسية التي لمسوها في بدر وأحد والخندق .

كيف نصح سهيل بن عمرو قريشاً بالخنوح إلى السلم ؟! ..

ولهذا فقد سارع زعماء قريش إلى طلب الصلح من المسلمين ، بناءً على مشورة ونصح سهيل بن عمرو سيّد بني عامر بن لؤى .

فقد كانت قريش (عندما شعرت بحراجة الموقف وازدياد حدة التوتر إلى حد الانفجار قبل البيعة) بعثت بسهيل بن عمرو وحويطب ابن عبد العزى^(١) وآخرين من الزعماء إلى الحديبية ليجسّوا نبض المسلمين ويطلعوا على حقيقة الموقف كما هو بين المسلمين ، ثم يقدموا تقريراً إلى نواب دار الندوة في مكة ليتخذ هؤلاء النواب القرار النهائي بشأن هذه الأزمة التي باتت تقلق المشركين - في الواقع - أكثر مما تقلق المسلمين .

ولقد اطلع سهيل بن عمرو وباقي أعضاء وفده - الذين هم في واقعهم

(١) هو حويطب بن عبد العزى بن أبي قيس بن عبد ود العامري القرشي أسلم عام الفتح ، وكان من المؤلفة قلوبهم ، شهد حنيناً مع النبي صلى الله عليه وسلم كان صديقاً لأبي ذر ، وهو الذي دخل به على النبي صلى الله عليه وسلم في مكة فأسلم ، وقد سر النبي صلى الله عليه وسلم لإسلامه ، وكان غنياً موسراً ، أقرض النبي صلى الله عليه وسلم عند زحفه إلى حنين أربعين ألفاً انتقل حويطب من مكة إلى المدينة بعد الفتح ، مات في خلافة معاوية سنة أربع وخمسين هـ . وحويطب هو الذي جدد أنصاب الحرم في عهد الخليفة عمر .

عيوناً وجواسيس جاءوا في صورة وفد للتفاوض - اطلعوا على حقيقة الموقف في الحديبية وأخذوا الانطباع الصحيح عن سدى الغليان الشديد بين المسلمين ومدى استعدادهم لخوض المعركة الفاصلة إنْ هِي نَشِبَتْ .

سهيل بن عمرو يشاهد بيعة الرضوان :

ولعله من حسن طالع قريش أن يكون سهيل بن عمرو وباقي أعضاء وفده حاضرين في الحديبية ساعة مبايعة المسلمين لنبِيِّهم ﷺ على الموت .

فقد شاهد سهيل وأصحابه إجراءات البيعة ، فرأوا مظهراً من أعظم مظاهر التفاني في خدمة العقيدة ، والاستعداد للتضحية والفداء في سبيل الله ، فملئت قلوبهم رُعباً ، وقرّ في أعماق نفوسهم أنه لا يمكن لقريش أن تنتصر على هؤلاء الذين يكاد بعضهم يطأً ظهر بعض وهم يتسابقون ليشدوا على يد نبيّهم القائد مبايعينه على الموت ، والبهجة والفرح والسرور والغبطة تعلو وجوههم .

لذلك عاد سهيل بن عمرو وأصحابه إلى قريش وقدموا إلى دار الندوة تقريراً شاملاً عما رأوا وشهدوا في الحديبية ، وقد أفصحوا لنواب دار الندوة في هذا التقرير عن مخاوفهم من نتيجة الحرب إذا ما نشبت ، وضمنوا هذا التقرير نصيح قريش بأن تسارع إلى مهادنة المسلمين وعقد صلح معهم تضع بموجبه الحرب أوزارها .

وقد استجاب نواب برلمان قريش إلى الاقتراح الداعي إلى مصالحة المسلمين ، فعيّنوا منهم وفداً برئاسة سهيل بن عمرو ليتولى مفاوضة المسلمين من أجل إقامة الصلح .

قال الواقدي : ثم إن قريشاً بعثوا سهيل بن عمرو وحويطب بن عبد العزى ومكرز بن حفص ، فلما نظرت قريش سهيل بن عمرو وحويطب بن عبد العزى ومن كان معه وعيون قريش ^(١) إلى ما رأت من سرعة الناس إلى البيعة وتشميرهم للحرب ، اشتد رعبهم وخوفهم وأسرعوا إلى القضية ، فرجع حويطب بن عبد العزى وسهيل بن عمرو ومكرز بن حفص إلى قريش ، فأخبروهم بما رأوا من سرعة أصحاب رسول الله ﷺ إلى البيعة ، وما جعلوا له .

فقال أهل الرأي منهم : ليس خيراً من أن نصالح محمداً على أن ينصرف عنا عامة هذا ويرجع قابل ، فيقيم ثلاثاً وينحصر هديه وينصرف ويقيم ببلدنا ولا يدخل علينا . فأجمعوا على ذلك ، فلما أجمعت قريش على المودة والصلح بعثوا سهيل بن عمرو ، وحويطب ابن عبد العزى ومكرز بن حفص وقالوا (لسهيل رئيس الوفد) . إئت محمداً فصالحه ، وليكن في صلحك : لا يدخل في عامة هذا ، فوالله لا يتحدث العرب أنك دخلت (لعله : أنه دخل علينا عنوة) ^(٢) .

سهيل بن عمرو النجم اللامع :

كان سهيل بن عمرو من النجوم اللامعة بين سادات قريش في العقل والحلم والرزانة وأصالة الرأي وبعد النظر .

ولهذا كانت قريش تدخره للقضايا المعقدة وتفزع إليه لحلّ - العضلات ، لذلك لما تعقدت مشكلة الحديبية ووصلت إلى انفجار

(١) العيون هنا : الجواسيس .

(٢) مغازى الواقدي ج ٢ ص ٦٠٢ ، ٦٠٤ ، ٦٠٥ نشر جامعة أكسفورد :

الحرب على أثر استنفار النبي ﷺ أصحابه وتعبثهم للمعركة التي بات واضحاً لدى قريش أن المسلمين سيخوضونها على إثر ما وصلهم من خبر اعتقال المشركين عثمان والعشرة من المهاجرين وقتلهم في مكة .. لجأت إلى هذا السيد العامري ليكون رئيس وفدها في مفاوضات السلام التي قرر برلمان مكة (دار الندوة) إجرائها مع المسلمين لإنهاء الأزمة

هيئة الوفد القرشي :

وقد تمّ تأليف وفد المفاوضة من ثلاثة أعضاء من سادات مكة ، هم

١- سهيل بن عمرو (عامري) رئيساً .

٢- حويطب بن عبد العزّي (عامري) عضواً .

٣- مكرز بن حفص (عامري) عضواً .

الخطوط العريضة للمعاهدة عند قريش :

ويظهر أن قريشاً قد وضعت في برلمانها (دار الندوة) لوفدها المفاوض الخطوط العريضة لما يجب أن تكون عليه المفاوضة في الحديبية بين الفريقين .

ومهما يكن فإنه يمكن القول : إن البيعة في الحديبية قد كانت عامل تحول جذري في موقف قريش من العناد والتصلّب والشطط إلى الاعتدال .

فقد كانت نقطة الخلاف الرئيسية والتي كاد الخلاف حولها بين

المسلمين وقريش يؤدي إلى حرب مدمرة ، هو أن قريشاً كانت تصرُّ على منع المسلمين (كلياً) من دخول مكة ما بقى لقريش فيها سلطان . ولكن قريشاً تراجعت أخيراً عن فكرة منع المسلمين من دخول مكة ولكن بأسلوب يحفظ لها شيئاً من ماء الوجه بين العرب الذين شاع بينهم أن قريشاً لن تسمح للمسلمين بدخول مكة أبداً .

فقد وافقت - في قرارها الأخير في دار الندوة - على السماح - للمسلمين بدخول مكة لأداء مناسك العمرة ، ولكن ليس في هذا العام وإنما في العام القادم ، وهو قرار ما كانت قريش لتتخذه لولا ذلك القرار الحازم الذي اتخذه النبي القائد ﷺ والذي بموجبه أعلن لن ينصرف إلى المدينة حتى يناجز قريشاً .

لذلك - ولخوف قريش الشديد من الحرب التي لم يعد أمرها مجرد كلام في الهواء ، ترسله قريشاً للمزايدة - ، أعطت قريش رئيس وفدها إلى الحديبية سهيل بن عمرو صلاحيات مطلقة لإحلال السلام ، على أن يركّز أثناء المفاوضات على التمسك بمطلب واحد لا يحيد عنه ، وهو أن قريشاً لا تمنع في أن يدخل المسلمون مكة ، ولكن شريطة أن يكون ذلك في العام القادم .

فقد قالوا لسهيل بن عمرو : (صالح محمداً ولا يكن في صلحه إلا أن يرجع عنا عامه هذا ^(١)) .

وتركت باقي التفاصيل والإجراءات في صيغة معاهدة الصلح - لسهيل بن عمرو يصوغها كيف شاء ، ركان سهيل رجلاً صريحاً شهماً عفت اللسان (ديبلوماسياً) لبقاً في محادثاته ، مع منزلة عالية في دنيا

(١) سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٣١٦ .

الفصاحة ، حيث كان يعدّ في مقدمة خطباء قريش المفوهين (وقد أسلم فيما بعد ، وحسن إسلامه ، فاستشهد في معركة اليرموك الشهيرة في الشام) .

سهل الله لكم من أمركم :

توجه سهيل بن عمرو والوفد المرافق له إلى الحديبية ، وقد استبشر النبي ﷺ وبشّر أصحابه بالفرج عندما رأى سهيلاً مقبلاً ، فقال :
قد سهل الله لكم من أمركم^(١) ، وقال : قد أراد القوم الصلح حين بعثوا هذا الرجل^(٢)

وفي رواية أن النبي ﷺ قال : (سهل الله أمركم ، القوم ماتون إليكم بأرحامكم وسائلوكم الصلح فابعثوا الهدى وأظهروا التلبية ، اهلّ الله يلبين قلوبهم ، ففعلوا ذلك فارتفعت أصواتهم بالتلبية من نواحي العسكر تشق عنان السماء^(٣) .

رغبة النبي في السلام :

ولا شك أن هذا التصرف من النبي ﷺ يدل على أنه - بالرغم من اتخاذه القرار الحاسم بمحاربة قريش - لا يزال يأمل في الوصول إلى حل عادل للمشكلة يضمن حقن الدماء ويضمن للمسلمين مباشرة حقهم في دخول مكة للطواف بالبيت وهو الحق الذي أصرت قريش على

(١) بهجة المحافل ج ١ ص ٣٦١ :

(٢) السيرة الحلبية ج ٢ ص ١٤٣ :

(٣) تاريخ الطبري ج ٢ ص ٦٣٢ :

إهداره بقوة السلاح حين أعلنت أنها ستحول (بحدّ السيف) دون دخول المسلمين مكة حتى وإن كانوا جاعوا للعمرة فقط .

بدء المفاوضات :

كان الجو أكثر صفاءً والحالة أكثر هدوءاً في محيط الفريقين أكثر من أى وقت مضى ، عندما وصل وفد قريش إلى الحديبية .
فقد كانت قريش جادة هذه المرة في المفاوضات ، بل وراغبة كل الرغبة في حل المشكلة لتتجنب الصدام المسلح الذى أرعبها وشوك وقوعه والذى لم يكن لدى سادات مكة وقادة ألويتها المؤلفة من أكثر من ثمانية آلاف مقاتل أن قريشاً ستكون هى الخاسرة إذا ما نشب الصدام ، بالرغم من أن قوات قريش تقدّر بثمانية آلاف مقاتل ، بينما قوة المسلمين لا تزيد على ألف وأربعمئة .

وقد استمد زعماء قريش وقادتها العسكريون اعتقادهم بأنهم - مع هذا التفوق - سيخسرون المعركة - استملّوا هذا الاعتقاد من التجارب العملية التى لمسوها فى المعارك التى خاضوها ضد المسلمين ، والتى خرجوا منها بدرس لن ينسوه أثناء بحث أى نزاع بينهم وبين المسلمين ، وهو أن التفوق البشرى وكثرة السلاح وجودة التسليح ليس كافياً لإحراز النصر فى المعارك ، إذ أن هذا التفوق الكبير يكون فى حساب اليسار فى علم الحساب لا وزن له ولا قيمة .

لهذا سارعت قريش - عندما جدّ الجد - إلى التفاوض مع المسلمين لتتجنب الدخول معهم فى صدام حقيقى مسلح .

اعتذار رئيس الوفد القرشي للنبي ﷺ وإطلاق سراح عثمان وأصحابه :

كانت التحريات الأخيرة أثبتت أن المشركين في مكة احتجزوا سفير النبي ﷺ إليهم ، عثمان والعشرة المهاجرين الذين دخلوا معه مكة فعلاً ، ولكن لم يثبت أن قريشاً قد قامت بقتل هؤلاء الأحد عشر كما أشيع وأحدث غلياناً في صفوف المسلمين بالحديبية ، وأدى إلى إعلان الاستنفار العام بين المساميين في الحديبية .

ولقد كان سهيل بن عمرو - كما قلنا - لبقاً ورجل سياسة ودولة ، وكان أكثر القرشيين بُعداً عن العنجهية والعناد والتهور .

ولهذا فإن أول ما افتتح به رئيس وفد قريش إلى الحديبية للمفاوضة هو الاعتذار للنبي ﷺ عن عمليات التسلل التي قامت بها بعض وحدات من جيش قريش إلى داخل المعسكر الإسلامي في الحديبية ^(١) بقصد الاعتداء على المسلمين غدرًا . كما اعتذر سهيل بن عمرو عن عملية احتجاز عثمان والمهاجرين العشرة في مكة ، ووصف كل هذه العمليات بأنها من عمل السفهاء ولكي يبرهن على قوله هذا وكبداية طيبة من جانبه ، أرسل إلى قريش في مكة بأن تسارع (فوراً) إلى إطلاق سراح عثمان بن عفان وأصحابه العشرة ، وأن تبعث بهم مكرمين إلى الحديبية ، وقد فعلت قريش ذلك في الحال ، فوصل عثمان وأصحابه المحتجزين إلى الحديبية ففرح المسلمون بعودتهم سالمين .

(١) تقدمت تفاصيل عملية التسلل فيما مضى من هذا الكتاب .

النبي يطلق سراح المشركين المحتجزين :

كما أن النبي ﷺ من جانب قام بإطلاق سراح المشركين الذين ألقى عليهم الحرس الإسلامي في الحديبية القبض أثناء محاولتهم التسلل إلى داخل المعسكر للإغتيال والتخريب ، وكان من بين هؤلاء المعتقلين عمرو بن أبي سفيان بن حرب ^(١) .

فقد ذكر الواقدي أن سهيل بن عمرو قال للنبي ﷺ لدى اجتماعه به للمفاوضة في الحديبية : (إنَّ من قاتلك لم يكن من رأى ذوى رأينا ولا ذوى الأحلام منا ، بل كنَّا له كارهين حين بلغنا ولم نعلم به ، وكان من سفهائنا .

تقدم سهيل بن عمرو بهذا الاعتذار إلى النبي ﷺ وعثمان بن عفان والمهاجرون العشرة لا يزالون محتجزين في مكة لدى المشركين .

ولذلك فإن سهيل بن عمرو ، لما طلب من النبي ﷺ (عقب هذا الاعتذار) أن يطلق سراح سفهاء قريش المتسللين ، وافق على طلبه ولكن بشرط أن تقوم قريش بإطلاق سراح عثمان وأصحابه ، فوافق سهيل في الحال بعد أن صرَّح بأن المطلب النبوي مطلب عادل يجب تحقيقه .

فقد قال سهيل بن عمرو للنبي ﷺ : إبعث إلينا بأصحابنا الذين أسرت ، فقال النبي ﷺ : إنني غير مرسلهم حتى ترسل أصحابي . فقال سهيل : أنصفتنا ، ثم بعث سهيل بن عمرو : الشَّيم بن عبد مناف التيمي إلى قريش يطلب منهم إطلاق سراح عثمان وأصحابه قائلاً : إنكم حبستم رجالاً ، من أصحاب محمد بينكم وبينهم أرحام ، لم

تقتلوهم ، وقد كنّا لذلك كارهين ، وقد أبى محمد أن يرسل من أسر من أصحابكم حتى ترسلوا أصحابه ، وقد أنصفنا ، وقد عرفتم أن محمداً يطلق لكم أصحابكم فبعثت قريش إلى النبي ﷺ بن كان عندهم وكانوا أحد عشر رجلاً ، وأرسل رسول الله ﷺ إليهم أصحابهم الذين أسروا ، أول مرة وآخر مرة (١)

بحث بنود الصلح :

بعد عملية تبادل الأسرى بين الفريقين (إن صحَّ هذا التعبير) شرع النبي ﷺ وسهيل بن عمرو في التفاوض حول البنود التي يجب أن تتضمنها معاهدة الصلح التي وافق الفريقان على إقامتها من حيث المبدأ .

وقد طال البحث والجدل والأخذ والردّ والشد والجذب حول الاتفاق على بنود الصلح ، كل فريق - دونما شك - يريد بنوداً تكون لمصلحة قومه .

النبي في حراسة أصحابه :

وقد تعرّثت المفاوضات في كثير من مراحلها ، إذ تحوّل النقاش في بعض الأحيان إلى صخب ولغط حيث كان رئيس الوفد القرشي كلما فشل في إملاء شرط على النبي لا يرضاه ، رفع صوته غاضباً ، إلى حدّ جعل قائدي حرس المسلمين (عبّاد بن بشر وسلمة بن سلمة) القائمين

(١) مغازي الواقدي ج ٢ ص ٦٠٤ :

على رأس رسول الله ﷺ يلفتان نظر سهيل بن عمرو ، بأن يلتزم حدود
 اللياقة في مخاطبة الرسول ﷺ فلا يرفع صوته أكثر من اللازم .
 قالت أم عمارة تصف جانباً من المفاوضات في الحديبية : إني
 لأنظر إلى رسول الله ﷺ جالساً يومئذ متربّعاً ، وإن عبّاد بن بشر
 وسلمة بن سلمة بن حريش مقنعان بالحديد ، قائمان على رأس النبي
 ﷺ إذ رفع سهيل بن عمرو صوته قالوا : إخفض من صوتك عند
 رسول الله ﷺ ، وسهيل يارك على ركبتيه ، رافع صوته كأنى أنظر
 إلى علم^(١) في شفته وإلى أنيابه ، وإن المسلمين لحول رسول الله ﷺ ،
 جلوس^(٢) .

بنود الصلح التاريخية :

وبعد طول الأخذ والرد بين المتفاوضين تقاربت وجهات النظر ،
 وتمّ الاتفاق بين النبي ﷺ ورئيس وفد قريش سهيل بن عمرو
 على حل وسط ، بشأن النقطة الرئيسية التي كانت مثار الخلاف والتوتر
 الذي كاد يؤدي إلى الحرب .

فقد كانت قريش تصرّ على أن لا يدخل المسلمون مكة أبداً ما بقي
 لقريش فيها سلطان ، ومن أجل ذلك حشدت حوالى ثمانية آلاف مقاتل
 وعسكرت بهم في وادي بلدح خارج مكة لتصدّ المسلمين بالقوة إن
 هم اجتازوا حدود الحرم .

(١) العلم : الشق في الشفة العليا (قاله في الصحاح) :

(٢) مغازى الواقدي ج ٢ ص ٦٠٥ :

ومن جهة أخرى فقد صمم النبي ﷺ على أن يدخل بأصحابه مكة لأداء مناسك العمرة ، ومقاتلة القرشيين إن تعرضت قواتهم المسلحة للمسلمين وحاولت صدّهم عن البيت .. وبالرغم من التزام النبي ﷺ ، سبيل التريث والتأني في انتظار حل مرض يكفل للمسلمين حقهم المشروع في زيارة البيت (دون إراقة دماء) فقد عمدت قريش إلى تصعيد الأزمة وتأزيم الموقف الذي بلغ حد الانفجار ، عندما أقدمت قريش على احتجاز سفير النبي ﷺ إليها عثمان بن عفان وعشرة من المهاجرين في مكة ، وزاد الحالة توتراً أن صاحب عملية الاحتجاز التعسفية هذه إشاعة بأن القرشيين قتلوا المسلمين الأحد عشر ، فقرر النبي ﷺ على أثر ذلك مناجزة المشركين واقتحام مكة عليهم بقوة السلاح ، الأمر الذي أفزع قريشاً وأرعبها وجعلها تسارع إلى طلب الصلح من المسلمين .

الحل الوسط :

وكان الحل الوسط بشأن نقط النزاع الرئيسية هذه هو اتفاق النبي وقريش في هذه المفاوضات على أن يدخل المسلمون مكة للعمرة ، ولكن ليس في هذه السنة ، وإنما في العام القادم ، وذلك كحل وسط رأت قريش أنها به خرجت من الورطة التي أوقعت نفسها فيها ، مع شيء من حفظ ماء الوجه .

كما أن النبي ﷺ قد رأى أنه - بهذا الحل - قد حقق للمسلمين نصراً عظيماً دون أن يضطر إلى إراقة قطرة دم واحدة .. وهذا النصر هو ضمان اتفاقية الصلح حق المسلمين المشروع في دخول مكة لزيارة البيت ،

وهو ما كانت قريش تعارض فيه كل المعارضة ، وتصرّ على عدم الاعتراف للمسلمين به .

أما مسألة إرجاء مباشرة المسلمين حق دخول مكة سنة واحدة ، فلا تؤثر في جوهر الانتصار الذي حققه النبي ﷺ للمسلمين ، لأن هذا التأخير أمر سطحي بالنسبة لجوهر القضية ، ما دام أن المسلمين سيصلون إلى غايتهم التي جاءوا من أجلها وهو الطواف بالبيت .

ويمكن القول : إن قبول النبي ﷺ الرجوع من الحديبية ليدخل مكة في العام القادم ، هو ثمن لمكاسب أهمها حصول المسلمين على حقهم المشروع - وهو دخول مكة - دون أن يخسروا قطرة دم واحدة ، لأن النبي ﷺ كان حريصاً كل الحرص على حقن الدماء وصونها عن الفضياع (١) .

أهم بنود الصلح :

ويتوصل الفريقين إلى الاتفاق على حل أعظم مشكلة ، كانت مصدر التوتر ومبعث الخلاف ، تم إبرام الصلح التاريخي في الحديبية . وقد تضمنت معاهدة الصلح هذه بنوداً أخرى غير البند الرئيسي المتعلق بدخول المسلمين مكة ، وفيما يلي ملخص للبنود التي تضمنتها معاهدة هذا الصلح :

١ - على المسلمين أن يرجعوا إلى المدينة دون أن يدخلوا مكة ذلك العام .

(١) سيأتي ذكر هذه المكاسب في موضعه من هذا الكتاب إن شاء الله .

٢- من حق المسلمين أن يأتوا في العام القادم فيدخلوا مكة ليقضوا مناسكهم .

٣- تاتزم قريش بعدم التعرض للمسلمين حين يدخلون مكة ، بأي نوع من أنواع التعرض .

٤- على المسلمين لدى دخولهم مكة أن لا يحملوا من السلاح إلا سلاح الراكب وهو السيف .

٥- يلتزم المسلمون بأن لا يشهروا سلاحهم وهم بمكة ، بل عليهم أن يتركوا السيوف في أعمادها ما داموا في مكة .

٦- المدة المحددة التي ليس للمسلمين أن يقيموا أكثر منها في مكة ، هي ثلاثة أيام فقط ، عليهم أن يغادروا مكة بعد انقضائها فوراً .

٧- إنهاء حالة الحرب القائمة بين المسلمين وقريش ، بقيام هدنة بين الطرفين لمدة عشر سنوات ، يأمن الناس فيها على أنفسهم .

٨- يلتزم النبي ﷺ بأن يردّ إلى قريش كل من جاء إليه من أبنائها بعد إبرام هذه المعاهدة ، إذا كان قد جاء بغير إذن أهله ، وعلى النبي الالتزام بذلك حتى ولو كان اللاجئ مسلماً .

٩- ليس على قريش أن تردّ إلى النبي ﷺ من جاء إليها من المسلمين حتى ولو كان مرتدّاً عن دينه .

١٠- تترك الحرّية المطلقة للقبائل المجاورة للحرم لينضمّوا إلى أيّ المعسكرين شاءوا ، ويدخلوا في عهد أيّ الفريقين أرادوا ..

١١- تعتبر القبيلة التي تنضم إلى أيّ من المعسكرين جزءاً من المعسكر الذي تدخل في عهده ، له ما لها ، وعليه ما عليها ، وعليها الالتزام بما جاء في بنود المعاهدة .

١٢ - أيّ عدوان تتعرض له أيّ من هذه القبائل يعتبر عدواناً على المعسكر الداخلة في عهده كما يعتبر هذا العدوان مبطلاً للمعاهدة .

هذا الملخص هو ما يمكن تسميته بالخطوط العريضة للصلح التاريخي ، هذا الذي أقرّه واتفق عليه كل من محمد بن عبد الله نبي المسلمين ، وسهيل بن عمرو ممثل قريش في المفاوضات .

المعارضة الشديدة للاتفاقية :

وبعد الاتفاق على القواعد الكاملة لمعاهدة الصلح هذه ، وقبل تسجيل وثائقها ظهرت بين المسلمين معارضة شديدة وقوية لهذه الاتفاقية ، وخاصة البند الثامن والتاسع اللذين بموجبيهما يلتزم النبي ﷺ بردّ من جاءه من المسلمين لاجئاً ، ولا يلتزم قريش بردّ من جاءها من المسلمين مرتدّاً ، والبند الأول الذي يقضى بأن يعود المسلمون من الحديبية إلى المدينة دون أن يدخلوا مكة ذلك العام .

وقد كان أشدّ الناس معارضة لهذه الاتفاقية وانتقاداً لها ، عمر بن الخطاب ، وأسير بن حضير سيّد الأوس ، وسعيد بن عباد سيّد الخزرج

احتجاج ابن الخطاب ومجادلته النبي صلى الله عليه وسلم :

فقد ذكر المؤرخون أنه بينما كانت الإجراءات تتخذ لتسجيل المعاهدة التي تمّ الاتفاق عليها نهائياً ، إذا بعمر بن الخطاب يأتي إلى رسول الله ﷺ معلناً معارضته لهذه الاتفاقية ، وهو في حالة من الكرب والانفعال يشاركه في هذه المعارضة جمهور المسلمين الموجودين في الحديبية .

ألسنا بالمسلمين وأليسوا بالمشركين ؟

فقد قال عمر بن الخطاب للنبي ﷺ - معارضاً الاتفاقية -
يا رسول الله ، أأنت برسول الله ؟ قال : بلى ! قال : أو لسنا بالمسلمين ؟
قال : بلى ، قال : أو ليسوا بالمشركين ؟ قال : بلى ، قال : فعلام
نُعطي الدنيّة في ديننا ؟ . فردّ النبي ﷺ على استجوابات ابن الخطاب
الشديدة ، ردّ عليه فقال له : (في يقين النبي وحلم السيد وحكمة القائد)
أنا عبد الله ورسوله لن أخالف أمره ، ولن يضيّعني ^(١) .

ويظهر أن غضب ابن الخطاب ومعارضته للاتفاقية وقوة اعتقاده
الغبين فيها ، كانت أشدّ من أن تترك له الفرصة ليتفهم ما قاله له
النبي ﷺ ردّاً على استجواباته ، فذهب الفاروق - وهو على ذلك
المستوى من الانفعال - إلى وزير النبي الأكبر أبي بكر الصديق ،
فاحتجّ لديه وأبلغه معارضته للاتفاقية التي وصفها بأنها تشتمل على
الدنيّة للمسلمين ، فقال : يا أبا بكر ، أليس برسول الله ؟ قال : بلى ،
قال : أو لسنا بالمسلمين ؟ قال : بلى ، قال : أو ليسوا بالمشركين ؟ قال :
بلى ، قال : فعلام نعطي الدنيّة في ديننا ؟ فقال أبو بكر - ناصحاً
الفاروق بأن يترك الاحتجاج والمعارضة - : إلزم عرزه ، فإنّي أشهد
أنه رسول الله ، وأن الحق ما أمر به ، ولن نخالف أمر الله ولن يضيّعه
الله ^(٢) .

(١) تاريخ الطبري ج ٢ ص ٦٣٤ :

(٢) تاريخ الطبري ج ٢ ص ٦٣٤ وسيرة ابن هشام ج ٢ ص ٣١٦ ومغازي الواقدي
ج ٢ ص ٦٠٦ ، وفي تاريخ الطبري (وهو الأنسب) ، أن عمر بدأ في احتجاجه بأبي
بكر الصديق ، ثم ذهب إلى النبي صلى الله عليه وسلم :

اشتداد الكرب على المسلمين :

ولم يكن ابن الخطاب وحده مكروباً من شروط القرشيين في هذا الصلح ، بل كان أكثر الصحابة متألّمين من هذه الشروط وغير مرتاحين للموافقة عليها ، ولكن ليس كلهم كابن الخطاب جرأة في الإفصاح عن ما يريدون الإفصاح في مثل هذه المواقف ، لقد كان الصحابة كارهين للصلح ومشاركين لابن الخطاب في الشعور بالامتناع والغمّ والهمّ نتيجة قيام هذا الصلح الذي لم يدركوا أبعاده كما أدركها النبي الأعظم ﷺ .

فقد كانوا لا يشكّون في أنهم سيدخلون مكة للرؤيا التي رأى رسول الله ﷺ وهو في المدينة بأنّه سيدخل مكة ويأخذ مفتاح الكعبة .

ولذلك صدموا صدمة شديدة عندما قام الصلح بين النبي ﷺ وبين قريش على أساس أن يعود المسلمون دون أن يدخلوا مكة ، فكادوا - يهلكون لهذه الصدمة النفسية العنيفة . وقد باحثوا النبي ﷺ حول ما يختلج في صدورهم حول هذا الأمر المزعج بالنسبة لهم وتقدموا إليه بعدة أسئلة ، ولكن بغير الأسلوب الشديد الذي عبّر به عمر بن الخطاب في معارضته .

قال أبو سعيد الخدري - يصف امتناع الصحابة وكرههم للصلح ، وقد كان أصحاب رسول الله ﷺ يكرهون الصلح ، لأنهم لا يشكّون في الفتح رؤيا رسول الله ﷺ أنه خلق رأسه ، وأنه دخل البيت ، فأخذ مفتاح الكعبة ، وعرف مع العرفين ، فلما رأوا الصلح دخل الناس من ذلك أمر عظيم حتى كادوا يهلكون .

وقال عمر ورجال معه من أصحاب النبي ﷺ : يا رسول الله ألم تكن حدثتنا أنك ستدخل المسجد الحرام ، وتأخذ مفتاح الكعبة وتعرف مع المعرفين ؟ وهدينا لم يصل إلى البيت ولا نحن ! فقال رسول الله ﷺ : قلت لكم في سفركم هذا ؟ قال عمر : لا . فقال رسول الله ﷺ : أما إنكم ستدخلونه وأخذ مفتاح الكعبة ، وأحلق رأسي ورؤوسكم ببطن مكة ^(١)

حادثة أبي جندل المؤثرة :

وبينما كان المسلمون في حالة من الضيق والكرب يراجعون رسول الله ﷺ لإعادة النظر في بنود الصلح التي اعتبروها ماسة بكرامتهم ومخيبة لآمالهم - كما صرح بذلك كبير معارضيه عمر بن الخطاب أمام الرسول الأعظم ﷺ - وبينما كان النبي الحكيم الحليم يحاول تهدئتهم وإقناعهم بأن لا حيف ولا غمط في اتفاقية الصلح التي تم الوصول إليها بينه وبين سهيل بن عمرو ، وبينما أخذ البعض من الصحابة في تفهم أبعاد هذه الاتفاقية ومدى مكاسبها بالنسبة للمعسكر الإسلامي.. إذا بحادث مؤثر يحدث فجأة ، يلهب الموقف من جديد ويضاعف من ألم المسلمين ويزيد من كرههم ، ويعتق في نفوسهم من الكره المصلح الذي كانوا في الأصل كارهين له ، ومستعدين لإبطاله وعدم الالتزام به ، لولا احترامهم الشديد المطلق لنبيهم الذي رغب في هذا الصلح ووافق عليه .

(١) مغازي الواقدي ج ٢ ص ٦٠٧ - ٦٠٩ ، وصيرة ابن هشام ج ٢ ص ٣١٨ :

فعندما انتهى النبي ﷺ ومندوب قريش سهيل بن عمرو ، من المفاوضات التي انتهت بالاتفاق على بنود الصلح ، ولم يبق سوى تسجيل وثائقه للتوقيع عليها ، إذا بأحد الشباب المسلم من المضطهدين في مكة ، يطلع على المسلمين يرسف في قيوده والسياف في يده طالباً من المسلمين في الحديبية حق اللجوء ليفرّ بدينه من الناح الشركي الخائق ، وقد تمكّن هذا الشاب المؤمن الصابر من الاحتماء بمعسكر المسلمين حيث وصل إلى حيث يجلس رسول الله ﷺ مع الوفد القرشي المفاوض .

وقد زاد الأمر تعقيداً ، وكاد يؤدي إلى نسف اتفاقية الصلح والعودة بالأزمة الخطيرة إلى أشد مما كانت عليه نبل الاتفاق ، هو أن هذا الشاب اللاجئ المسلم ، هو ابن رئيس وفد قريش المفاوض ، سهيل بن عمرو ، الذي لم يكدر يرى ابنه المسلم (أبا جندل) حتى استشاط غضباً ، ونهض من مجلس النبي ﷺ - في عصبية جاهلية - إلى ابنه الذي فرّ من سجنه بكة ، فضربه على وجهه ، ثم أخذ يجره بتلابيبه ويدفع به أمامه ليعيده إلى معسكر المشركين تمهيداً لإعادته إلى سجنه بكة .

وعندما اعتدى سهيل بن عمرو المشرك على ابنه المسلم بالضرب ، وأخذ يدفعه بعنف لإعادته إلى المعتقل صاح أبو جندل مستغيثاً بالمسلمين يامعشر المسلمين أأردّ إلى المشركين فيفتنونني في ديني (١) ؟ .

فالتهبت عواطف المسلمين من جديد ضد اتفاقية الصلح ، وساد الموقف توتراً جديداً ، كاد ينسف الاتفاقية ، بعد أن تدخل المسلمون - لحماية أبي جندل المسلم من أبيه المشرك ، إذ انتزعه منه (على ما يظهر)

(١) تاريخ الطبري ج ٢ ص ٦٣٥ :

ليبقى معهم ، لأن تلك رغبته الخاصة ، ولأنه أصبح منهم ، عضواً في الأسرة الإسلامية الكبرى .

ولم يحاول سهيل بن عمرو انتزاع ابنه بالقوة من أيدي المسلمين ، بل لجأ إلى الاحتجاج لدى النبي ﷺ وطالب بتسليم ابنه المسلم - تطبيقاً للبند الثامن من الاتفاقية الذي ينص على التزام النبي ﷺ ، بإعادة كل من جاءه مسلماً من أبناء المشركين إلى أهله .

فقد قال سهيل بن عمرو في احتجاجه : هذا أول ما قاضيتك عليه ، ردّوه^(١) (أي ابنه أبا جندل) . وقد حاول النبي ﷺ الاعتذار عن تسليم أبي جندل لأبيه ، بأن المعاهدة لم يجر تسجيلها والتوقيع عليها قائلاً : « إننا لم نقض الكتاب بعد »^(٢) .

ولكن سهيل بن عمرو أصرّ على تسليم ابنه محتجاً بأن الاتفاقية تعتبر في حكم المنتهية ، وهدد بأنه سيلغى الاتفاقية إذا لم يتسلم ابنه أبا جندل ، حيث قال : « هذا أول ما أقاضيك عليه ، لقد لجت^(٣) القضية بيني وبينك قبل أن يأتيك هذا - يعني ابنه - والله لا أكاتبك على شيء حتى تردّه إليّ »^(٤) .

تسليم أبي جندل للمشركين :

ولم يسع محمد بن عبد الله ﷺ - وهو أبرّ من أوفى بالعهد - إلا أن يقف عند كلمته ، ويطبق الاتفاقية نصاً وروحاً ويسلم أبا جندل المسلم

(١) مغازي الواقدي ج ٢ ص ٦٠٨ :

(٢) لجت : تمت :

(٣) تاريخ الطبري ج ٢ ص ٦٣٥ ومغازي الواقدي ج ٢ ص ٦٠٨ .

إلى أبيه المشرك ، فسأله على ما في ذلك من إيلاء للنفوس المؤمنة ، لأن
الوفاء بالعهد - عند من هو في منزلة رسول الله - أسمى من العواطف .

النبي يعتذر لأبي جندل :

وقد اعتذر النبي ﷺ للشاب المسلم أبي جندل بأنه لا يمكنه
القيام بأي عمل يحول بين أبيه وبين اعتقاله ، لأن ذلك لو فعله ،
يعتبر نقضاً للعهد الذي أعطاه لقريش ، وغدراً لا يرضى أبو جندل
نفسه أن يقدم عليه أحد من المسلمين العاديين فضلاً عن سيدهم وقائدهم
فقد قال النبي ﷺ لأبي جندل : « يا أبا جندل اصبر واحتسب ،
فإن الله جاعل لك ولن معك (أى من المستضعفين) فرجاً ومخرجاً ،
إننا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحاً وأعطيناهم وأعطينا على ذلك
عهداً ، وإننا لا نغدر ^(١) » .

أبو جندل يستسلم وبطبع أمر الرسول :

وقد اقتنع أبو جندل كل الاقتناع بما قاله النبي ﷺ فإطاع أمر
الرسول ﷺ فاستسلم لأبيه المشرك وكله ثقة واطمئنان بأن الله سيجعل
له وإخوته المستضعفين من الشباب المسلم في مكة مخرجاً ، لأن النبي
ﷺ بشره بذلك ، والمؤمن الثابت لا يمكن أن يكون لديه أدنى ريب
في صدق ما يقوله الرسول ﷺ ، ولذلك عاد أبو جندل يرسف في
قيوده إلى سجنه الرهيب بمكة وهو قرير العين هادئ البال للبشرى التي

(١) سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٣١٨ ، والسيرة الحلبية ج ٢ ص ١٤٦ ، ومغازي
الواقدي ج ٢ ص ٦٠٨ .

بشره بها نبيه : « فإن الله جاعل لك ولن معك فرجاً ومخرجاً » ، وفعلًا
لم تمض سنة على مأساة أبي جندل المؤلة في الحديدية حتى كتب الخلاص
له ولسبعين من إخوته الشباب في مكة ، إذ تمكنوا (وبصورة لا يدرى
أحد كيف تمت) من الهرب من سجون الشرك في مكة ، وكونوا لهم
تجمعاً ثورياً إسلامياً في الساحل على طريق قوافل المشركين بين مكة
والشام ، كما سيأتي تفصيله في هذا الكتاب إن شاء الله .

ازدياد الكرب على المسلمين :

وبعد أن أعاد النبي ﷺ أبا جندل إلى أبيه سهيل بن عمرو تزايد
ضغط الكرب والهَم والغَم على نفوس المسلمين حتى كادوا يهلكون .
وقد بلغ الأَلَم النفسى بالمسلمين (للحالة المؤلة التى عاد عليها أبو
جندل إلى معتقل الشرك ومناخ الكفر) إلى درجة أنهم صاروا يَبْكُون
تَرَجَعاً لما حلَّ بأبى جندل ، الشاب الطيب المثالى المسلم ، الذى أخذه
أبوه المشرك الفظَّ يجره فى وحشية وقسوة أمامهم دون أن يقوموا بأى
عمل لإنقاذه ، مع قدرتهم التامة على ذلك .

سهيل بن عمرو يرفض شفاعة الرسول فى ابنه :

وكان الرسول الأعظم ﷺ - بعد أن سلَّم بحق سهيل بن عمرو
فى اعتقال ابنه ووافق على تسليمه - طلب من سهيل أن يتركه له ،
ويتنازل عن حقه فى اعتقاله ، لا سيما أنه جاء بمحض اختياره رغباً فى
الالتحاق بالمسلمين ، ولكن سهيلاً رفض هذا الطلب ، وأصرَّ على
استعادته فكان له ما أراد لأن ذلك حق له كفلته شروط الصلح .

عضوا الوفد القرشي يحيران أبا جندل :

غير أن العضوين في وفد قريش وهما (حويطب بن عبد العزى ، ومكرز بن حفص) لما رأيا إلحاح النبي ﷺ على سهيل بن عمرو في أن يترك ابنه ويعفيه خوفاً عليه من التعذيب ورأيا سهيلاً يرفض شفاعته النبي ﷺ استحميا ، فأبلغا النبي ﷺ بأن أبا جندل سيكون في حمايتهما من شر أبيه ، فقالا : يا محمد نحن نجيره لك ، وفعلنا أبلغا سهيل بن عمرو بأن ابنه أصبح في جوارهما ، ثم أدخلاه فسطاطاً ، فكف أبوه عن إيذائه^(١) وكان هذا أول فرج ينال أبا جندل مصداقاً لقول النبي ﷺ له : « فإن الله جاعل لك ولمن معك فرجاً ومخرجاً » .

وقد روى الإمام الواقدي قصة أبي جندل المؤثرة هذه فقال ؛ : - « فبينما الناس على ذلك قد أصطلحوا ، والكتاب لم يكتب ، أقبل أبو جندل بن سهيل ، قد أفلت يرسف في القيد متوشحاً السيف ، خلا له أسفل مكة ، فخرج من أسفلها ، حتى أتى رسول الله ﷺ وهو يكتب سهيلاً ، فرفع سهيل رأسه ، فإذا بابنه أبي جندل ، فقام إليه سهيل فضرب وجهه بغصن شوك ، وأخذ بلبته وصاح أبو جندل بأعلى صوته يا معشر المسلمين ، أردد إلى المشركين يفتنونني في ديني ؟ فزاد المسلمين ذلك شراً إلى ما بهم ، وجعلوا يبكون لكلام أبي جندل . فقال حويطب ابن عبد العزى لمكرز بن حفص : ما رأيت قوماً قط أشد حبا لمن دخل معهم من أصحاب محمد لمحمد وبعضهم لبعض أما إنني أقول لك لا تأخذ من محمد نصفاً أبداً بعد هذا اليوم حتى يدخلها عنة ! فقال مكرز : أنا أرى ذلك . قال الواقدي : وقال سهيل للنبي ﷺ : هذا

(١) انظر مغازي الواقدي ج ٢ ص ٦٠٨ والسيرة الحلبية ج ٢ ص ١٤٦ .

أول ما قاضيتك عليه ، ردّوه ، فقال رسول الله ﷺ : إنا لم نقض الكتاب بعد ، فقال سهيل : والله لا أكتبك على شيء حتى تردّه إلى فردّه رسول الله ﷺ ، فكلّم رسول الله ﷺ سهيلاً أن يتركه فأبى .
 فقال مكرز بن حفص وحويطب : يا محمد نحن نجيره لك .
 فأدخله فسطاطاً فأجاره ، وكفّ أبوه عنه . ثم رفع رسول الله ﷺ -
 صوته فقال : يا أبا جندل ، اصبر واحتسب فإنّ الله جاعل لك ولن معك فرجاً ومخرجاً ! إنا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحاً ، وأعطيناهم وأعطونا على ذلك عهداً ، وإنا لا نغدر .

تفجير المعارضة بين المسلمين من جديد :

وكان استحكام حلقات محنة أبي جندل وتعاضم مأساته بإعادته إلى أبيه رغماً عن إرادته سبباً في تفجير المعارضة للصالح من جديد داخل المعسكر الإسلامي ، فقد طغى الحزن والأسى على نفوس المسلمين واعتبروا ما نال أبا جندل من إهانة على يد أبيه المشرك دون أن يستطيع المسلمون حمايته ، بسبب التزامات نبيّهم في الصلح .. اعتبروا ذلك أول القطاف المرّ لثمار صلح الحديبية ، فعادوا إلى المعارضة من جديد ، وذهبت مجموعة منهم إلى رسول الله ﷺ وعاودوا مناقشته واستجوابه مبدين ألهم ومعارضتهم للصالح ، ومتسائلين : كيف ولماذا يعودون إلى المدينة دون أن يدخلوا مكة ، وقد وعدهم رسول الله ﷺ ذلك وهم بالمدينة ؟ .

التفكير في التمرد ولكن !

بل لقد فكّر بعضهم - لشدة ما ناله من الحزن والأسى - في التمرد والخروج لمقاتلة المشركين في الحديبية رغم اتفاقية الصلح ، لولا أن عصمه الله من الإقدام على هذا التمرد .

فقد روى عن كبير المعارضين للصلح (الفاروق عمر بن الخطاب) أنه قال في خلافته - فيما رواه عنه ابن عباس وكان يتحدث عن صلح الحديبية - ارتبت ارتياباً لم أرتبه منذ أسلمت إلا يومئذ ، ولو وجدت ذلك اليوم (يوم الصلح) شيعة تخرج عنهم رغبة عن القضية لخرجت ثم جعل الله تبارك وتعالى عاقبتها خيراً ورشداً ، وكان رسول الله ﷺ أعلم ^(١) وفي رواية أخرى أن عمر قال : ما زلت أصوم وأتصدق من الذي صنعت مخافة كلامي الذي تكلمت يومئذ .

وقال أبو سعيد الخدري : جلست إلى عمر بن الخطاب يوماً ، فذكر القضية (أى صلح الحديبية) فقال : لقد دخلني يومئذ من الشك ، وراجعت النبي ﷺ يومئذ مراجعة ما راجعته مثلها قط ؛ ولقد اعتقت فيما دخلني يومئذ رقاباً ، وصمت دهرأ ، وإني لأذكر ما صنعت خالياً فيكون أكبر همي ، ثم جعل الله عاقبة القضية خيراً ، فينبغي للعباد أن يتهموا الرأي ، والله لقد دخلني يومئذ من الشك حتى قلت في نفسي : لو كتبنا مائة رجل على مثل رأيي ما دخلنا فيه أبداً ، فلما وقعت القضية أسلم في الهدنة أكثر ممن كان أسلم من يوم دعا رسول الله ﷺ إلى يوم الحديبية وما كان في الإسلام فتح أعظم من الحديبية .

(١) مغازي الواقدي ج ٢ ص ٦٠٧ .

وروى البخارى فى صحيحه عن عمران بن حصين ^(١) قال : قال أبو وائل : لما قدم سهل بن حنيف ^(٢) من صفين أتيناہ نستخبره ، فقال : اتهموا الرأى ، فإلقد رأيتنى يوم أبى جندل ولو أستطيع أن أرد على رسول الله ﷺ أمره لرددت ، والله ورسوله أعلم ، وما وضعنا أسيفنا على عواتقنا لأمر يفظعنا إلا سهلن بنا إلى أمر نعرفه قبل هذا الأمر ، ما نسد منها خضماً إلا انفجر علينا خضم ، ما ندرى نأتى له ^(٣).

ابن الخطاب يغرى أبا جندل بقتل أبيه المشرك :

وبالرغم من تفكير بعض الصحابة - وعلى رأسهم الفاروق عمر - فى التمرّد بمقاتلة المشركين رغم الاتفاق على الصلح بين النبي ﷺ وسهيل بن عمرو - كما صرح بذلك إبن الخطاب وعمران بن حصين -

(١) هو عمران بن حصين بن عبيد بن خلف الخزاعى ، أسلم عام خيبر وغزا عدة غزوات ، كان حامل راية خزاعة يوم الفتح ، كان أحد رواة الحديث المشهورين عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كان مبعوث الخليفة عمر إلى أهل البصرة لتفقيهم فى الدين ، كان أحد العباد الزهاد المشهورين ، اعتزل الفتنة ولم يشارك أياً من المعسكرين القتال فى صفين والجمال قال أبو نعيم : كان مجاب الدعوة ، توفى سنة اثنين وخمسين من الهجرة .

(٢) هو سهل بن حنيف بن واهب بن العكيم الأنصارى الأوسى شهد بدرآ والمشاهد كلها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم كان أحد الأبطال الأفاض الذين ثبتوا إلى جانب رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد ساعة الهزيمة ، فدافع عن رسول الله صلى الله عليه وسلم دفاعاً مجيداً ، وكان من رماة الأنصار المشهورين ، فأوقفت سهامه الحادة هجمات المشركين عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم ساعة تكالب المشركين عليه يقول (وسهل ينافح عنه) ، (نبلوا سهلاً فإنه سهل) ، أخى النبي صلى الله عليه وسلم بين سهل وبين على بن أبى طالب ، شهد صفين إلى جانب أمير المؤمنين على ، توفى سهل بالكوفة سنة ثمان وثلاثين هـ .

(٣) صحيح البخارى ج ٥ ص ٢٧٠ ، الطبعة المنيرية المصرية .

فقد عصمهم الله من هذا الأمر الخطير ، فكظموا غيظهم وابتلعوا آلامهم
فظلوا عند أوامر النبي ﷺ القاضية بعدم محاربة المشركين .. والتزموا
بها .

غير أن عمر بن الخطاب قام بمحاولة لقتل رئيس الوفد القرشي
سهيل بن عمرو المشرك ، دون أن يكون ذلك مخللاً بالتزامات النبي ﷺ
المنصوص عليها في معاهدة الصلح ، وذلك بأن لجأ عمر إلى أبي جندل
وأخذ يشجعه على قتل أبيه المشرك ، ولكن أبا جندل مع رغبته في ذلك
أبلغ عمر بأنه كمسلم يلتزم بما التزم به نبيّه محمد ﷺ ، لا يمكنه
قتل سهيل ، لأن ذلك يعدّ خروجاً على أوامر النبي ﷺ ، وهذا
ما لا يرغب فيه أبو جندل .

فقد ذكر المؤرخون أن عمر بن الخطاب - حين كان في شدة
الانفعال - مشى إلى جنب أبي جندل ، وأبوه يترّعه ويدفعه ، فقال :
اصبر يا أبا جندل ، فإنما هم مشركون ، وإنما هم أحدهم دم كلب ،
وإنما هو رجل وأنت رجل ومعك السيف ، قال عمر : فرجوت أن يأخذ
السيف ويضرب أباه ، فضنّ الرجل بأبيه . فقال عمر : يا أبا جندل :
إن الرجل يقتل أباه في الله ، والله لو أدركنا آباءنا لقتلناهم في الله (١) ،
فرجل برجل ! قال : وأقبل أبو جندل على عمر فقال : مالك لا تقتله
أنت ؟ قال عمر : نهاني رسول الله ﷺ عن قتله وقتل غيره ، قال
عمر : فقال لي أبو جندل : ما أنت بأحق بطاعة رسول الله ﷺ (٢) .

(١) يحذر بالذكر هنا أن أبا عبيدة بن الجراح قتل أباه يوم بدر ، كما قتل عمر بن
الخطاب عمه كذلك :

(٢) سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٣١٨ ، ومغازي الواقدي ج ٢ ص ٦٠٨ ، ٦٠٩ :

يا عمر لعله يقوم مقاماً يحمد عليه :

وعندما بلغ النبي ﷺ أن عمر بن الخطاب أغرى أبا جندل بأبيه سهيل بن عمرو ليقنتله قال ﷺ : يا عمر لعله أن يقوم في الله مقاماً يحمد عليه (١) .

عودة المعارضة إلى مناقشة النبي صلى الله عليه وسلم :

وبعد حادثة أبي جندل المؤلة المؤثرة عاد الصحابة إلى تجديد المعارضة للصلح ، وذهبت مجموعة منهم إلى رسول الله ﷺ بينهم عمر بن الخطاب لمراجعته ، وإعلان معارضتهم مجدداً للصلح ، إلا أن النبي الأعظم ﷺ استطاع هذه المرة - بما أعطاه الله من صبر وحكمة وحلم وقوة حجة - أقنع المعارضين بوجاهة الصلح ، وأنه في صالح المسلمين وأنه نصر لهم ، لا نصراً لأعدائهم كما يتوهمون ، فسلموا نهائياً بوجهة نظر الرسول ﷺ وأنها الحق والصواب ، بمن فيهم كبير المعارضين عمر بن الخطاب ، الذي - بعد أن أفاق من الصدمة النفسية - ندم ندماً شديداً على ما بدر منه من معارضة ومجادلة شديدة للنبي ﷺ حتى صار (كما قال) : يتصدق ويُعتق الرقاب تكفيراً عن ما ردّ به على رسول الله ﷺ بهذا الصدد .

فقد قال الواقدي في مغازيه : إن عمر بن الخطاب ورجال معه من الصحابة ، قالوا (في استجوابهم) : يا رسول الله ، ألم تكن حدثتنا أنك ستدخل المسجد الحرام وتأخذ مفتاح الكعبة وتعرف مع المعرفين ؟ - وهذان لم يصل إلى البيت ولا نحن ! .

(١) جامع الأصول من أحاديث الرسول ج ٩ ص ٢٢٢ .

فقال رسول الله ﷺ : قلت لكم في سفركم هذا ؟ .

قال عمر : لا .

فقال رسول الله ﷺ : أما إنكم ستدخلونه وأخذ مفتاح الكعبة ، وأخلق رأسي ورؤوسكم ببطن مكة وأعرف مع المعرفين ، ثم أقبل على عمر فقال : أنسيتم يوم أحد إذ تضرعون ولا تلوون على أحد وأنا أدعوكم في أخراكم ؟ . أنسيتم يوم الأحزاب إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر ؟ . أنسيتم يوم كذا ؟ . وجعل رسول الله ﷺ يذكرهم أموراً - أنسيتم يوم كذا ؟ ، وجعل رسول الله ﷺ يذكرهم أموراً - أنسيتم يوم كذا ؟ ، فقال المسلمون : صدق الله ورسوله يا نبي الله ، ما فكرنا فيما فكرت فيه لأنك أعلم بالله وبأمره ، قال الواقدي : فلما دخل رسول الله ﷺ عام القضية وحلق رأسه قال :

هذا الذي وعدتكم . فلما كان يوم الفتح أخذ مفتاح الكعبة فقال : ادعوا لي عمر بن الخطاب ! فقال : هذا الذي قلت لكم . فلما كان في حجة الوداع بعرفة قال لعمر : أي عمر هذا الذي قلت لكم ؟ قال عمر : أي رسول الله ما كان في الإسلام فتح أعظم من صلح الحديبية ^(١) .

أبو عبيدة ينصح ابن الخطاب بالكف عن المعارضة :

نعود إلى موضوع المعارضة . واستمر ابن الخطاب في المعارضة ، وهاد يقول للنبي ﷺ : علام نعطي الدنيا في ديننا ؟ .

(١) مغازي الواقدي ج ٢ ص ٦٠٩ ،

قال الواقدي : ولقي عمر من القضية أمراً كبيراً ، وجعل يردّ على رسول الله ﷺ الكلام ويقول : علام نُعطى الدنية في ديننا ؟ فجعل رسول الله ﷺ يقول : أنا رسول الله ولن يضيّعني ! قال : فجعل (عمر) يردّ على النبي ﷺ الكلام حتى قال : يقول أبو عبيدة بن الجراح : ألا تسمع يا ابن الخطاب رسول الله ﷺ يقول ما يقول ؟ تعوذ بالله من الشيطان واتهم رأيك .

عمر يرجع عن المعارضة ويندم أشد الندم :

قال عمر : فجعلت أتعوذ بالله من الشيطان الرجيم حيّاً ، فما أصابني قط شيء مثل ذلك اليوم ، ما زلت أصوم وأنصدّق من الذي صنعت مخافة كلامي الذي تكلمت يومئذ .

فكان ابن عباس يقول : قال لي عمر في خلافته - وذكر قضية الحديبية - : ارتبت ارتياباً لم أرتبه منذ أسلمت ، ولو وجدت ذلك اليوم شيعة تخرج رغبة عن القضية لخرجت ، ثم جعل الله تبارك وتعالى عاقبتها خيراً ورشداً ، وكان رسول الله ﷺ أعلم^(١) .

وقال عمر (في رواية أخرى) : ما زلت أتصدّق وأصوم وأصلي وأعتق من الذي صنعت يومئذ مخافة كلامي الذي تكلمت به ، حتى رجوت أن يكون خيراً^(٢)

(١) مغازي الواقدي ج ٢ ص ٦٠٦ وما بعدها .

(٢) سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٣١٧ .

تسجيل المعاهدة وتبادل الوثائق :

وبعد أن انتهت عاصفة المعارضة في صفوف الجانب الإسلامي المصلح واقتنع المعارضون بأنهم كانوا على خطأ في معارضتهم - بعد ما شرح لهم الرسول ﷺ أبعاد المكاسب العظيمة التي سيظفر بها المعسكر الإسلامي نتيجة إبرام هذا الصلح - عاد الوفدان - الإسلامي برئاسة الرسول الأعظم ، والقرشى برئاسة سهيل بن عمرو - عادا إلى الاجتماع ، لوضع الصيغة النهائية المفصلة للصلح الذي اتفق الوفدان من حيث المبدأ على وضع خطوطه العريضة وقواعده الرئيسية .

الخلاف حول صيغة المعاهدة :

ولدى الشروع في وضع الصيغة النهائية للمعاهدة وكتابتها لتكون نافذة المفعول رسمياً ، حدث خلاف بين الوفدين حول بعض النقاط ، كاد يعود بالأزمة إلى ما كانت عليه ، فعندما شرع النبي ﷺ في إملاء الصيغة للمعاهدة المتفق على جوهرها أمر الكاتب بأن يبدأ المعاهدة بكلمة (بسم الله الرحمن الرحيم) وهنا اعترض رئيس الوفد القرشى سهيل بن عمرو وقال : لا أعرف الرحمن ، اكتب (باسمك اللهم) ، وعندها ثارت ثائرة الصحابة فضجوا محتجين على اعتراض سهيل ، وأصروا على رفض اعتراض سهيل بن عمرو ، وقالوا : هو الرحمن ، ولا تكتب إلا الرحمن ، ولكن النبي ﷺ - تمشيئاً مع سياسة الحكمة والمرونة والحلم - أجاب سهيل بن عمرو وقال للكاتب : (اكتب باسمك اللهم)^(١) ، واستمر في الإملاء فأمر الكاتب أن يكتب : (هذا

(١) تاريخ الطبري ج ٢ ص ٦٣٤ وسيرة ابن هشام ج ٢ ص ٣١٧ والسيرة الحلبية ج ٢ ص ١٤٣ ومغازي الواقدي ج ٢ ص ٦١٠ .

ما اصطلاح عليه رسول الله) وقبل أن يكمل الجملة نهض سهيل بن عمرو مرة أخرى واعترض على كلمة (رسول الله) وطلب شطبها من الوثيقة قائلاً: - لو أعلم أنك رسول الله ما خالفتك واتبعتك أفتدع عن اسمك واسم أبيك محمد بن عبد الله ، فقد ظلمناك إن كنت رسول ، وما منعناك أن تطوف بببيت الله . لو شهدت أنك رسول الله لم أقاتلك ، ولكن أكتب اسمك واسم أبيك ^(١) .

سيّد الانصار يتدخلان :

وعندما عارض سهيل بن عمرو وطالب بشطب كلمة (رسول الله) من صلب الوثيقة هاج المسلمون هياجاً شديداً لهذا التصلف القرشي ، وارتفعت أصواتهم بالاحتجاج الشديد وأصرّوا على أن لا تُمحى كلمة (رسول الله) وقالوا للكاتب : لا تكتب إلاّ محمداً رسول الله .

بل ذهب الغضب والإمتعاض بسيّد الأوس أُسيّد بن حضير وسيّد الخزرج سعد بن عبادَة إلى أن يتدخلوا (عملياً) في الأمر فيأخذوا بيد الكاتب ليكف عن الكتابة ، إلاّ إذا كتب في المعاهدة كلمة (رسول الله) وهدد المعارضون باستخدام السلاح واللجوء إلى الحرب لتأديب قريش المتعجرفة ، لأنهم اعتبروا ذلك إهانة لكرامة المسلمين حيث قالوا للكاتب بعد أن أمسكوا بيده ومنعوه من الكتابة - : لا تكتب إلاّ محمداً رسول الله ، وإلا فالسيف بيننا ! علام نُعطى الدنيّة في ديننا .

وهكذا تلبّد الجو بالغيوم وبدت تُذرّ الحرب تظهر في الأفق من

(١) سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٣١٧ وجوامع السيرة ص ٢٠٩ ، تاريخ الطبري ج ٢ ص ٦٣٤ .

جديد ، بعد أن عاد المسلمون إلى التهديد باستخدام القوة ، وأصرت قريش من جانبها - ممثلة في سهيل بن عمرو - على التمسك بموقفها من ضرورة شطب كلمة (رسول الله) من الوثيقة ، لأنها تعتبر توقيعها عليها وهي تحمل كلمة رسول الله - إقراراً رسمياً بأنه رسول الله لا سيما وأن هذه الوثيقة وثيقة رسمية دولية .

الرسول بحسم الخلاف :

غير أن الرسول الأعظم ﷺ - بحكمته وتسامحه وبعد نظره وعدم اهتمامه بالشكليات في مثل هذه المواقف المصيرية الخطيرة - حسم الخلاف وأنهى الأزمة حين أمر أصحابه بالسكوت والتزام الهدوء ليتصرف هو حسب ما تقتضيه مصلحة الإسلام والمسلمين ، فأطاع الصحابة أمره فسكتوا ، ثم أمر الكاتب - تحقيقاً لرغبة رئيس الوفد القرشي - أن يمحو كلمة (رسول الله) ويكتب بدلاً منها كلمة (باسمك اللهم) وبهذا انتهت آخر مرحلة من مراحل النزاع الخطير وكتبت المعاهدة من نسختين وتمّ التوقيع والإشهاد عليها من الجانبين .

قال الواقدي يروى هذا القصة : فلما حضرت الدواة والصحيفة بعد طول الكلام والمراجعة فيما بين رسول الله ﷺ وسهيل بن عمرو ، ولما التأم الأمر وتقارب ، دعا رسول الله ﷺ رجلاً يكتب الكتاب بينهم ، ودعا أوس بن خولى يكتب ، فقال سهيل : لا يكتب إلا أحد الرجلين ، إبن عمك على أو عثمان بن عفان ، فأمر النبي ﷺ ، علياً يكتب ، فقال رسول الله ﷺ : أكتب بسم الله الرحمن الرحيم . فقال سهيل بن عمرو : لا أعرف الرحمن ، أكتب كما كنا نكتب

باسمك اللهم . فضاق المسلمون من ذلك وقالوا : هو الرحمن . وقالوا : لا نكتب إلا الرحمن . قال سهيل : إذاً لا أقاضيه على شيء . فقال رسول الله ﷺ : اكتب باسمك اللهم ! هذا ما اصططح عليه رسول الله . فقال سهيل : لو أعلم أنك رسول الله ما خالفتك ، واتبعتك أفتربغ عن اسم أبيك محمد بن عبد الله ؟ .

فصبح المسلمون منها ضجة هي أشد من الأولى حتى ارتفعت الأصوات وقام رجال من أصحاب رسول الله ﷺ يقولون : لا نكتب إلا محمداً رسول الله .

وقال : فحدثني ابن أبي سبرة ، عن إسحاق بن عبد الله ، عن أبي فروة عن واقد بن عمر ، قال : حدثني من نظر إلى أسيد بن خضير وسعد بن عبادة أخذاً بيد الكاتب فأمسكاها وقالوا : لا تكتب إلا محمد رسول الله وإلا فالسيف بيننا ! علام نعطي هذه الدنية في ديننا ؟ فجعل رسول الله ﷺ يخفضهم ويومئ بيده إليهم : اسكتوا ، وجعل حويطب ابن عبد العزى يتعجب مما يصنعون ، ويقبل على مكرز بن حفص ويقول : ما رأيت قوماً أحوط لدينهم من هؤلاء القوم ! .

فقال رسول الله ﷺ اكتب باسمك اللهم . فنزلت هذه الآية في سهيل حين أبى أن يقر بالرحمن : ﴿ قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أياً ما تدعون فله الأسماء الحسنى ﴾ ^(١) فقال رسول الله ﷺ : أنا محمد ابن عبد الله فاكتب ! فكتب باسمك اللهم ^(٢) .

(١) سورة الإسراء الآية ١١٠ .

(٢) المغازي ج ٢ ص ٦١١ .

الصيغة النهائية لوثيقة الصلح :

وبعد أن تغلبت حكمة الرسول الأعظم ﷺ على كل العقبات التي اعترضت طريق إكمال المعاهدة وتوقيعها - سواءً من جانب الصحابة أو من جانب قريش - وبعد أن اختفت المعارضة نهائياً بين المسلمين ، ولم يعد للمشركين ما يعترضون به على نصوص المعاهدة بعد أن قبل النبي الحكيم كل اعتراضاتهم ، وُضِعَت الصيغة النهائية لهذه المعاهدة التاريخية ثم تمت كتابتها في نسختين ، نسخة أخذها النبي ﷺ ، ونسخة أخذها سهيل بن عمرو ، وهذه هي الصيغة الحرفية لهذه المعاهدة الدولية التاريخية :

(باسمك اللهم ؛ هذا ما اصطلاح عليه محمد بن عبد الله وسهيل بن عمرو اصطلاحاً على وضع الحرب عشر سنين ، يأمن فيها الناس ويكف بعضهم عن بعض ، على أنه لا إسلال ولا إغلال ^(١) وأن بيننا عيبة مكفوفة ^(٢) ، وأنه من أحب أن يدخل في عهد محمد وعقده دخل ، وأنه من أحب أن يدخل في عهد قريش وعقدها فعل ، وأنه من أتى محمداً منهم بغير إذن وليه رده إليه ، وأنه من أتى قريشاً من أصحاب محمد لم ترده ، وأن محمداً يرجع عنا عامه هذا بأصحابه ، ويدخل علينا قابل ^(٣) في أصحابه فيقيم ثلاثاً ، لا يدخل علينا بسلاح إلا سلاح المسافر ، السيوف في القرب ^(٤) .

(١) قال أبو ذر في شرحه ص ٣٤١ : الإسلال السرقة الخفية ، والإغلال الخيانة .
(٢) العيبة (بفتح العين) ، قال في الروض الأنف ، وأن بيننا وبينكم عيبة مكفوفة ، أي صدور منطوية على ما فيها ، لا نبدي عداوة .
(٣) قابل . أي العام القادم .

(٤) انظر سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٤١٧ وطبقات ابن سعد ج ٢ ص ١٠١ وجوامع السيرة ص ٢٠٨ ومغازي الواقدي ج ٢ ص ٦١١ والسيرة الحلبية ج ٢ ص ١٤٤ - ١٤٥ .

شهود الصلح من الجانبين :

وبعد الانتهاء من كتابة وثيقة الصلح ، وكانت نسخة واحدة فقط قال سهيل بن عمرو : تكون عندي ، وقال النبي ﷺ : بل عندي ، وقد حُلَّ هذا الخلاف ، بأنَّ أمر النبي ﷺ أن يكتب نسخة طبق الأصل ، ففعل ، فأعطاها سهيلاً .

وهنا استدعى تسعة شهود ليضعوا شهادتهم على وثيقة الصلح ، سبعة من المسلمين هم :

- ١- أبو بكر الصديق .
 - ٢- عمر بن الخطاب .
 - ٣- عثمان بن عفان .
 - ٤- عبد الرحمن بن عوف .
 - ٥- سعد بن أبي وقاص .
 - ٦- أبو عبيدة بن الجراح .
 - ٧- محمد بن مسلمة الأنصاري .
- واثنين من المشركين وهما :
- ١- حُويطب بن عبد العزى .
 - ٢- مكرز بن حفص بن الأخيف .

وبالتوقيع على معاهدة صلح الحديبية تقشّعت غيوم الحرب التي كانت تغطي جوَّ المنطقة نتيجة الأزمة الحادة الخطيرة التي افتعلتها قريش والتي كادت تؤدي إلى مصادمات دامية .

كما أن هذا الصلح لم يمهِّد أزمة الحديبية ، بل تناول النزاع الجوهرى القائم بين قريش والمسلمين منذ بزغت شمس الدعوة [

الإسلامية ، أو منذ بدأت حالة الحرب بين المعسكرين لخمس سنوات مضت ، حيث كان من أهم بنود الصلح إقامة هدنة بين الفريقين وإنهاء حالة الحرب لمدة عشر سنوات ، يَأْمَنُ فيها الناس بعضهم من بعض .

إنهاء حالة الحرب بين خزاعة وكنانة أيضاً :

كما لم تنحصر نتائج الصلح الإيجابية على المعسكرين ، الإسلامى والقرشى ، بل انعكست نتائج هذا الصلح على قبيلتين من أعظم القبائل العربية المجاورة للحرم ، وهما (خزاعة وكنانة) فأُنى هذا الصلح حالة الحرب القائمة بين هاتين القبيلتين لمدة عشر سنوات ، وذلك لالتزامهما بمقررات هذا الصلح ، بعد أن رضى كل منهما الدخول فى أحد المعسكرين ، كنانة فى عهد قريش ، وخزاعة فى عهد المسلمين .. وذلك نتيجة التخيير الذى تضمنه البند العاشر والحادى عشر من هذه المعاهدة التاريخية .

عداوة الإسلام جمعت بين كنانة وقريش :

فقد كانت قريش وبنو كنانة (ومنهم بنو بكر) ^(١) على نزاع دام مع قريش ، فكانت بينهم معارك فى الجاهلية ، وبقيت بينهم الثارات حتى ظهور الإسلام .. وقد عرفنا - كما فصلناه فى كتابنا الأول غزوة بدر الكبرى - كيف خافت قريش كنانة من أن تضربها من

(١) اسم (بكر) يطلق على قبائل كثيرة قحطانية وعدنانية .. (وبنو بكر هنا) هم بنو بكر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن نزار بن عدنان .

الخلف ، عندما تتحرك بقواتها من مكة للملاقاة المسلمين في بدر ، لأن القبيلتين كانتا في حالة حرب يوم ذاك ، حتى تعهد سُرَاقَة بن مالك ابن جعشم الكنانى لقريش بأن كنانة ستتوقف عن القيام بأى عمل حربى ضد قريش عندما تكون غائبة في حرب مع المسلمين .

وقد ظلت العداوة قائمة بين قريش وكنانة بالرغم من العهد المؤقت الذى أعطاه سُرَاقَة بن مالك لقريش ، بعدم التعرّض لها عندما تشتبك مع المسلمين في بدر .

خزاعة لم تكن عدوة لقريش :

أما خزاعة فلم تكن عدوة لقريش ، ومنذ عصور طويلة لم يكن بينها وبين قريش أى نزاع مسلّح ، بل كانت خزاعة على وئام مع قريش قبل الإسلام وبعده حتى صلح الحديبية .

فقد كانت خزاعة أحوال قريش ، وكان بُدَيْل بن ورقاء .. سيد خزاعة نفسه يقيم في مكة وله بها دار وعائلة .

إلا أنّ خزاعة منذ أن ظهر الإسلام كانت تبدي الولاء للنبي ﷺ ، بالرغم من عدم اعتناقها للإسلام .. وقد رأينا (كما في حملة حمراء الأسد المدرجة ضمن كتابنا الثانى - غزوة أحد) كيف أخلص معبد ابن أبى معبد الخزاعى للمسلمين - بالرغم من بقاءه على شركه يومها ^(١) .

(١) انظر تفاصيل موقف معبد بن أبى معبد في الصفحة ٢٥٥ من كتابنا (غزوة أحد) .

كيف انقلب العدو صديقاً :

وبالرغم من أن خزاعة في جمهورها صديقة للمسلمين أو بالأحرى على غير عداوة معهم ، فإنها لم تكن عدوة لقريش كذلك .

أما بنو بكر (من كنانة) فقد كانوا أعداء محاربين تقليديين لقريش ، ولكن يظهر أن عداوة الفريقين للإسلام قد جعلتهما يجمدان نزاعاتهما المسلحة ، بدليل اشتراك فضيلة من قبائل كنانة في معركة أحد إلى جانب قريش بقيادة الحليس بن زبّان الكناني ، وبدليل وجود عدة كتائب من كنانة أيضاً في التجمع القرشي المسلح أثناء أزمة الحديبية ، بقيادة الحليس بن زبّان أيضاً .

خزاعة في عهد المسلمين ؛ وكنانة في عهد قريش :

ولهذا لم يكن مفاجأة أن تدخل بنو بكر بن كنانة في عهد قريش ويدخل بنو خزاعة في عهد النبي ﷺ .

ويظهر أن بنى بكر وخزاعة ؛ كلاً منهما يعتبر نفسه ذا علاقة بالمفاوضات التي كانت جارية بين المسلمين والقرشيين في الحديبية . ولذلك كان هناك في الحديبية مندوبون من كل من خزاعة وبنى بكر حاضرين أثناء المفاوضات الجارية بين النبي ﷺ وقريش ، كمراقبين فقط .

ويظهر أن هؤلاء المندوبين المراقبين .. البكرين والخزاعيين ، قد كان لديهم التفويض الكامل كل من قبيلته ، ليتخذ الإجراء الذي يراه مناسباً حيال نتائج المفاوضات الدائرة بصفة رئيسية بين قريش والمسلمين .

وبناءً على ذلك قرر مندوبو خزاعة الدخول في عهد المسلمين وأن تدخل خزاعة (مسلمها وكافرها) في عهد المسلمين ، وأن تلتزم بمقررات الصلح كجزء من المعسكر الإسلامى .

كما قرر مندوبو بنى بكر أن يدخل بنو بكر بن كنانة في عهد قريش وأن يلتزموا بما التزمت به قريش في هذه المعاهدة .

وبدخول كل من القبيلتين في هذا الصلح أصبح كل منهما ملتزماً بما يلتزم به المعسكر الذى دخل في عهده ، كما صار هذا المعسكر مسؤولاً عن كل مخالفة ترتكبها القبيلة التى دخلت في عهده .

غضب قريش على خزاعة لدخولها في عهد المسلمين :

وقد غضبت قريش على خزاعة وأضمرت لها الشر لدخولها في عهد المسلمين الذين يفصلهم عن منازلها عدة مئات من الأميال ، بينما قريش تختلط منازلها بمنازل خزاعة لقرب تجاورهما الشديد .

وقد تجسّد هذا الغضب القرشى في تصريح أدلى به أحد أركان المفاوضة في الحديبية ، وهو (حويطب بن عبد العزى) قال - مخاطباً رئيس الوفد سهيل بن عمرو - الذى خزاعة أخواله - : بادأنا أخوالك بالعداوة وقد كانوا يستترون منا ، قد دخلوا في عهد محمد وعقده .

فقال له سهيل : ما هم إلاّ كغيرهم ، هؤلاء أقاربنا ولحمنا قد دخلوا مع محمد ، قوم اختاروا لأنفسهم أمراً فما نصنع بهم ؟ .

قال حويطب : نصنع بهم أن ننصر عليهم حلفاءنا بنى بكر . قال سهيل : إياك أن تسمع هذا منك بنو بكر فإنهم أهل شؤم ، فيقعوا

بخرافة فيغضب محمد لحلفائه ، فينقض العهد بيننا وبينه ، قال
حويطب : حظوت والله أخوالك بكل وجه .

فقال سهيل : ترى أخوالى أعزَّ على من بنى بكر ؟ ولكن والله
لا تفعل قريش شيئاً إلا فعلته ، فإذا أعانت بنى بكر على خزاعة فإنما
أنا رجل من قريش ، وبنو بكر أقرب إلى فى قدم النسب ، وإن كان
لهؤلاء الخؤولة ، وبنو بكر من قد عرفت لنا منهم مواطن كلها ليست
بحسنة منها يوم عكاظ ^(١) .

النبي يرفض تسليم لاجئين من العبيد والشباب القرشى :

وقد واجهت النبي ﷺ مشكلة بعد توقيع الصلح ، وهى أن بعضاً
من عبيد المشركين وبعضاً من المستضعفين من أبناء قريش جاءوا إلى
النبي ﷺ وطلبوا حق اللجوء وذلك قبل أن يتم عقد الصلح بين
الفرقيقين .

وقد كتب موالى هؤلاء العبيد وآباء الشباب القرشيين اللاجئين ..
كتبوا إلى النبي ﷺ يطلبون إعادتهم إلى مكة ، كما أن رئيس الوفد
القرشى المفاوض طالب النبي ﷺ بتسليم هؤلاء اللاجئين ، ولكن النبي
ﷺ أبى أن يعيدهم إليهم لأنه غير ملزم بإعادتهم ، ذلك أنهم قد
أعطوا حق اللجوء فى الحديبية قبل عقد الصلح ، ولذلك رفض النبي
ﷺ تسليمهم إلى قريش قائلاً : (هم عتقاء الله) .

فقد قال سهيل بن عمرو للنبي ﷺ : قد خرج إليك ناس من
أبنائنا وأرقائنا وليس بهم فقه فى الدين ، وإنما خرجوا فراراً من أموالنا

وضياعنا فارددهم إلينا .. وفي رواية أخرى كتب أهل مكة : يا محمد ،
والله ما خرجوا إليك رغبة في دينك وإنما خرجوا هرباً من الرق . فقال
ناس : صدقوا يا رسول الله ردهم إليهم ، فغضب رسول الله ﷺ من
ذلك وقال : ما أراكم تنتهون يا معشر قريش حتى يبعث الله عليكم من
يضرب رقابكم على هذا وأبى أن يردهم ، قال : هم عتقاء الله ^(١) .

من ذبول أزمة الحديدية :

وبالرغم من إبرام الصلح بالتوقيع على وثيقته وتبادل الوثائق بين
الوثائق بين الفريقين فإن عناصر من القرشيين ذات مصلحة خاصة
حاولت تعكير الجو من جديد بغية إعادة الأزمة إلى سابق عهدها ..
حيث أخذت هذه العناصر (بعد الصلح) تتحرش بالمسلمين وتشتم النبي
ﷺ بغية استفزاز المسلمين لعلمهم يقومون من جانبهم بنقض الصلح
وهم لما يزلوا في الحديدية .

فقد جاء في جامع الأصول (ج ٩ ص ٣٢٥) أن سلمة بن الأكوع
قال : لما اصطلحنا نحن وأهل مكة واختلط بعضنا ببعض ، أتيت شجرة
فكسحت شوكة فاضطجعت في أصلها فأتانا أربعة من المشركين من
أهل مكة ، فجعلوا يقعون في رسول الله ﷺ فأبغضتهم ، فتحولت
إلى شجرة أخرى ، وعلقوا سلاحهم واضطجعوا ، فبينما هم كذلك إذ
نادى مناد من أسفل الوادي : يا للمهاجرين ، قتل ابن زنيم ، قال :
فاخترطت سيفي ، ثم شددت على أولئك الأربعة وهم رقود ، فأخذت

(١) جامع الأصول من أحاديث الرسول ج ٩ ص ٢٢٣ .

سلاحهم ، فجعلته ضغناً^(١) في يدي ، قال : قلت : والذي كرم وجه محمد ﷺ ، لا يرفع أحد منكم رأسه إلا ضربت الذي فيه عيناه . قال : ثم جئت بهم أسوقهم إلى رسول الله ﷺ قال : وجاء عمي عامر برجل من العبلات يقال له : مكرز ، يقوده إلى رسول ﷺ على فرس مجفف في سبعين من المشركين فنظر إليهم رسول الله ﷺ ، دعوهم ، يكن لهم بدء الفجور وثناه ، فعفى عنهم رسول الله ﷺ^(٢) .

النبي يحل الإحرام في الحديبية :

كان النبي ﷺ منذ قرر تحاشي الصدام المسلح مع قومه وسلوك كل السبل المؤدية إلى تجنب الحرب ، وهو مخيم في الحديبية خارج حدود الحرم ، إلا أنه كان طيلة إقامته بالحديبية (عشرين يوماً) وهو يؤدى وأصحابه الصلوات المفروضة داخل الحرم^(٣) ، لأنه كان مُعسكراً بأصحابه على أطراف الحرم .

من روايب المعارضة للصلح :

وبعد أن تمت إجراءات الصلح النهائية ، فأخذ كل من الفريقين نسخة من وثيقة الصلح التاريخية ، وانصرف الوفد القرشي راجعاً إلى مكة ، قرر النبي ﷺ الانصراف إلى المدينة بأصحابه ، لذلك أمر أصحابه بأن يحلوا إحرامهم فينحروا بئذهم ويحلقوا رؤوسهم .

(١) الضغث : الحزمة : ومعناه الحزمة في يده .

(٢) سبقت إشارة إلى هذا في ذكر عدوان المتسللين من قريش :

(٣) مغازي الواقدي ج ٢ ص ٦١٤ .

غير أن رواسب من المعارضة الشديدة للمصلح بقيت في نفوسهم ،
فغز عليهم أن يعودوا دون أن يقضوا مناسكهم فيطوفوا بالبيت وينحروا
هديهم ويحلقوا رؤوسهم داخل مكة ، ولذلك عصوا الرسول ﷺ أول
الأمم ، فلم يمتثلوا أمره حيث التزموا الصمت فلم يجبه أحد إلى ما أمر
به من نحر البدن وحلق الرؤوس .

النبي يعمل بمشورة امرأة :

وقد اغتنم النبي ﷺ لموقف الصحابة من أوامره التي لم ينفذوها ،
فدخل خيمته غاضباً ، وكانت زوجته أم سلمة موجودة معه في خيمته ،
فرأت عليه علامات الاستياء والغضب عندما دخل عليها ، وكزوجة
يهمها أن تشارك زوجها همومه وأحزانه ، سألته عن سبب ما هو عليه
من الغضب ، فأخبرها بعدم استجابة أصحابه حين أمرهم بأن يحلوا
إحرامهم فينحروا ويحلقوا .

وهنا تجلّت مشاركة المرأة المسلمة بعقلها الراجح ورأيها الصائب
إبداء المشورة لحل المشكلات الكبيرة .. هذه المشورة التي لم يتردد حتى
من هو في مقام النبوة من قبولها والعمل بها ، الأمر الذي يثبت إلى أي
مدى من العمق والبعد كانت روح الشورى تضرب بجذورها في أصول
التعاليم الإسلامية ، وكيف كانت روح تعاليم هذا الدين العظيم عندما
تكون لها السيادة تجعل القائد - حتى وإن كان في أعلى مراتب القيادة
والسيادة - يلتزم العمل بالمشورة الصائبة حتى وإن كانت هذه المشورة
قد جاءت من امرأة . بل لا فرق في نظر الإسلام بين أن تأتي هذه المشورة
من رجل أو امرأة طالما أنها مشورة صائبة .. وهذا عين التكريم للمرأة

التي يزعم أعداء الإسلام أنه قد غمطها حقها وتجاهل وجودها .. وهل هناك اعتراف بوجود المرأة واحترام لرأيها أكثر من أن يستصوب نبي مرسل مشورتها ويعمل بتوجيهها لحل مشكلة اصطدم بها وأغضبه نشؤها ، وهو الذي قل أن يغضب ؟ .

أم سلمة تشير على النبي ، فتنجح في المشورة :

فقد روى المؤرخون وأصحاب الحديث والمفسرون ، أن النبي ﷺ لما دخل على زوجته أم سلمة غاضباً مغتماً ، وعرفت أن مصدر غضبه وغمه هو إضراب أصحابه وامتناعهم عن النحر والحلق ، وهو الأمر الذي به يحلّون من إحرامهم في الحديبية ، أشارت عليه بأن لا يفاتحهم مرة أخرى بهذا الشأن وإنما يسلك طريقاً آخر باتباعه يجدون أنفسهم مضطرين لتنفيذ أمره .. وهو أن يبدأ نفسه (عملياً) بنحر هذيه ، حيث قالت له : يا رسول الله انطلق أنت إلى هذيك فانحره ، فإنهم سيقنتون بك .

وقد استحسن النبي ﷺ فكرة أم سلمة هذه فعمل بمشورتها فشرع (فعلأ) في نحر هذيه بيده الكريمة ، وقد كان لعمل النبي ﷺ بمشورة أم سلمة أحسن الثمار ، حيث - كما توقعت أم سلمة - لم يكذب يشرع في نحر هذيه بيده حتى أخذ أصحابه يتسابقون كل إلى نحر هذيه لينحره اقتداءً بالنبي ﷺ .

قال الطبري - بسنده إلى المسور بن مخرمة - : فلما فرغ رسول الله ﷺ من قضيتّه (أى الصلح) قال لأصحابه : قوموا فانحروا ، ثم

احلقوا ، قال : فو الله ما قام منهم أحد حتى قال ذلك ثلاث مرّات ، فلما لم يقيم منهم أحد ، قام فدخل على أم سلمة ، فذكر لها ما لقي من الناس ، فقالت أم سلمة : يا نبي الله ، أتحب ذلك ! أخرج ثم لا تكلم أحداً منهم حتى تنحر بُدنتك ، وتدعو حالقك فيحلقك ، فقام فخرج ، فلم يكلم أحداً منهم كلمة حتى فعل ذلك ، نحر بُدنه ودعا حالقه فحلقه فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا ، وجعل بعضهم يحلق بعضاً ، حتى كاد بعضهم يقتل بعضاً غمّاً . وكان الذي حلقه خراش ابن أمية بن الفضل الخزاعي .

وقال الواقدي : إن رسول الله ﷺ دخل على أم سلمة زوجته مغضباً شديد الغضب ، وكانت معه في سفره ذلك - فاضطجع فقالت : مالك يا رسول الله ؟ مراراً لا تجيبني . فقال : عجباً يا أم سلمة ! إني قلت للناس انحروا واحلقوا وحلوا مراراً ، فلم يجيبني أحد من الناس إلى ذلك ، وهم يسمعون كلامي وينظرون في وجهي !! .

قالت ، فقلت : يا رسول الله انطلق أنت إلى هديك فانحره فإنهم سيقصدون بك . قالت : فاضطجع ^(١) رسول الله ﷺ بثوبه ، ثم خرج وأخذ الحربة ينهم ^(٢) هديه . قالت أم سلمة ، فكأنني أنظر إليه حين يهوى بالحربة إلى البُدنة رافعاً صوته : بسم الله والله أكبر . قالت : فما هذا إلا أن زأوه نحر ، فتواثبوا إلى الهدى ، فازدحموا حتى خشيت أن يغم بعضهم بعضاً .

(١) اضطجع : أخذ ثوبه فجعل وسطه تحت إبطه الأيمن ، وألقى طرفه على كتفه الأيسر من جهتي صدره .. كذا قال في النهاية غريب الحديث ج ٣ ، ص ١٢ .
(٢) نهم الرجل دابته ، إذا زجرها .

وفي الحديبية قال النبي ﷺ عند التحلل من الإحرام - : رحم الله المخلّقين . وقالوا : والمقصرين يا رسول الله ؟ قال : يرحم المخلّقين . قالوا يا رسول الله : والمقصرين ؟ قال : والمقصرين .
ولما سأل الصحابة : يا رسول الله ، فلمَ ظهرت الترحم للمخلّقين دون المقصرين ؟ أجاب قائلاً : لأنهم لم يشكّوا ^(١) .

قصة جمل أبي جهل :

وكان لأبى جهل بن هشام جمل مَهْرَى ^(٢) نجيب كان معه في معركة بدر الكبرى ، وقد غنمه المسلمون فيما غنموا عقب انتصارهم الحاسم في تلك المعركة التاريخية .

وقد بقى هذا الجمل النجيب ضمن السلاح العام للدولة يغزو عليه المسلمون المغازى ، كما كان هذا الجمل الفحل يضرب في لقاح رسول الله ﷺ ، فاستاقه (معها) عيينة بن حصن الفزارى حينما أغارت غطفان على الغابة في غزوة ذات قرد ^(٣) .

وإغاظة لمشركى مكة .. ساق النبي ﷺ جمل أبى جهل هذا ضمن الهدى الذى تقرر نحره في مكة في عمرة الحديبية .

وفي الحديبية ، وبينما كان هذا الجمل المهرى النجيب يرعى مع

(١) تاريخ الطبرى ج ٢ ص ٦٣٧ ومغازى الواقدى ج ٢ ص ٦١٢ .

(٢) مهري : نسبة إلى المهرة ، وهم ينتسبون إلى مهرة بن حيدان من قضاة يسكنون أقصى جنوب الجزيرة العربية شرق حضر موت ، اشتهرت بلادهم بإنجاب أجود أنواع الجمال .

(٣) انظر تفاصيل غزوة « ذات قرد » في هذا الكتاب (الفصل الأول) .

الهدى المحصور خارج الحرم ، قاده الشوق إلى موطنه الأصلي مكة ،
فهرب من الحديبية ، وبالرغم من أن المسافة بين الحديبية ومكة لا تقل
عن خمسة عشر ميلاً ، وبالرغم من مضى خمس سنوات على غيابه عن
دار مالكة أبي جهل في مكة ، فقد امتدى تماماً إلى دار أبي جهل حيث
لم يشعر أهل مكة إلا وهو بارك أمام هذه الدار فعرفوه فتمسكوا به ..
وكان شروده من الحديبية قبل عقد الصلح .

مائة ناقة ثمناً لجمل أبي جهل :

إلا أن هذا الجمل ذا الذكري المؤلة جداً لمشركي مكة ، لم يقع في
أيدي أهل مكة إلا بعد أن تمَّ عقد الصلح في الحديبية ، وبعد وصول
الوفد القرشي المفاوض عائداً إلى مكة .

وقد خرج في أثر الجمل عمر بن غنمة السلمى^(١) يطلبه ليعيده
إلى الحديبية لأنه من جملة الهدى المطلوب نحره في الحديبية .

إلا أن المتعصبين من سفهاء المشركين رفضوا تسليم الجمل لابن
غنمة ، فاتصل الأخير بسهيل بن عمرو - بصفته المسؤول عن تنفيذ
شروط صلح الحديبية وطلب منه إعادة الجمل ، فلم يتردد سهيل
في إصدار الأوامر إلى المتعصبين بإعادة الجمل إلى المسلمين تنفيذاً
لاتفاقية صلح الحديبية .

(١) قال في الإصابة : هو عمرو بن غنمة بن عدي بن ثابى بن عمرو ، من بني سلمة
(الأنصار) ذكره موسى بن عقبة فيمن شهد بدرأ ، وفي البكائين وكلذا ذكره ابن
إسحاق .

فلم يجد هؤلاء السفهاء المتعصبون بداً من إطاعة أوامر قطب قريش في مفاوضة الصلح سهيل بن عمرو ، غير أنهم عرضوا على المسلمين مائة ناقة مقابل التخلي عن هذا الجمل لقيمتها المعنوية (في نظرهم) لأنه يعود لقائد عام جيشهم في معركة بدر الكبرى أبى جهل بن هشام . وقد أبلغ النبي ﷺ بهذا العرض القرشي السخى ، فأبلغهم أنه يمكنه قبول هذا العرض أولاً أن الجمل المذكور قد سبق وسُمي في الهدى فقال ﷺ : لولا أننا سمّيناه في الهدى فعلنا ، فأعيد الجمل إلى الحديبية فنُحر هناك عن سبعة ، أحدهم أبو بكر وعمر (١) .

نحر عشرين بدنة عند المروة :

ولما كانت الحرب قد انتهت بين المسلمين وقريش نتيجة صلح الحديبية ، بعث النبي ﷺ بعشرين بدنة من الهدى لتنحر في مكة لإطعام أهلها منها . وكان الذى دخل بها مكة رجل من أسلم ، نحرها عند المروة وقسم لحمها هناك حسب تعليمات الرسول الأعظم ﷺ .

مدة الإقامة في الحديبية :

وقد أقام النبي ﷺ محصوراً في الحديبية عشرين يوماً وبعضهم يقول : إنها خمسة عشر يوماً ، بعدها حل النبي ﷺ وأصحابه إخراجهم خارج الحرم ثم عادوا إلى المدينة .

(١) مغازى الواقدي ج ٢ ص ٦١٤ وزاد المعاد ج ٢ ص ٣١١ وتاريخ الطبرى ج ٤ ص ٦٣٨ .

العودة إلى المدينة :

وبعد أن انتهت مشكلة الحديبية بعقد الصلح التاريخي بين المسلمين وقريش ، قفل النبي ﷺ وأصحابه راجعين إلى المدينة . وقد سلك النبي ﷺ في عودته إلى المدينة نفس الطريق الذي سلكه في مجيئه إلى الحديبية ، ما عدا الطريق الفرعي الذي اضطر إلى سلوكه عندما قرر تحاشي الصدام المسلح مع فرسان خالد بن الوليد . فقد مرّ بمرّ الظهران (المسمّى اليوم : وادي فاطمة) ثم عسفان حتى وصل المدينة سالكاً الطريق الرئيسي المعتاد وهو الطريق الغربي .

المجاعة في طريق العودة :

وكان المسلمون - نتيجة طول احتباسهم بالحديبية - قد نفدت أزوادهم ، فلم يصلوا عسفان حتى فشت المجاعة بينهم ، وكانوا ألفاً وأربعمائة .

فشكوا حالهم إلى رسول الله ﷺ من الذي هم عليه من الجوع ، وكان معهم ظهر (أى جمال للركوب والنقل) فاستأذنوا رسول الله ﷺ في نحرها ليدفعوا بلحمها الجوع فأذن لهم .

النبي يعمل بمشورة ابن الخطاب :

وقد بلغ عمر بن الخطاب إذن النبي ﷺ بنحر ظهر القوم ، فجاء إلى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله لا تفعل ، فإن يك في الناس بقية ظهر يكن أمثل ، ولكن ادعهم بأزوادهم ثم ادع الله فيها .

فأمر رسول الله ﷺ بالانقطاع فبسطت ، ثم نادى مناديه : من كان عنده بقية من زاد فليشره على الانقطاع . قال أبو شريح الكعبي (١) فلقد رأيت من يأتي بالتمر الواحد وأكثره لا يأتي بشيء ، ويأتي بالكف من الدقيق ، والكف من السويق ، وذلك كله قليل ، فلما اجتمعت أزوادهم وانقطعت موادهم مشى رسول الله ﷺ إليها فدعا فيها بالبركة ، ثم قال : قربوا أو عيتكم فجاؤوا بأوعيتهم . قال أبو شريح : فأننا حاضر ، فيأتي الرجل فيأخذ ما شاء من الزاد حتى إن الرجل ليأخذ ما لا يجد له محملاً ، فلما ارتحلوا مطروا ما شاؤوا وهم صائفون ، فنزل رسول الله ﷺ ونزلوا معه ، فشربوا من الماء ، فقام رسول الله ﷺ فخطبهم ، فجاء ثلاثة نفر ، فجلس اثنان مع النبي ﷺ ، وذهب واحد معرضاً ، فاستحيا ، فاستحيا الله منه ، وأما الآخر فتاب الله عليه ، وأما الثالث فأعرض الله عنه .

(١) أبو شريح : اسمه خويلد بن عمرو بن صخر الخزاعي ثم الكعبي ، قال ابن حجر في الإصابة : أسلم قبل الفتح ، كان يحمل لواء خزاعة يوم الفتح ، وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم وله أحاديث ، وروى أيضاً عن ابن مسعود ، وهو الذي نصح عمرو بن سعيد الأشدق بأن لا يسفك دماً في الحرم ، لأنه روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : لا يحمل لأحد أن يسفك بها دماً - يعني مكة - فقال له عمرو : إن الحرم لا يعيد عاصياً ، رواه البخاري في صحيحه .. مات أبو شريح بالمدينة سنة ثمان وستين .

الفصل الرابع

- * القرآن يتحدث عن صلح الحديبية ويصفه بالفتح المبين .
- * القرآن يبشر أهل الحديبية بفتح خيبر .
- * فضل أصحاب بيعة الرضوان في القرآن والحديث .
- * الدروس المستفادة من صلح الحديبية .
- * مكاسب الصلح العظيمة للمسلمين .
- * كيف اعترفت قريش بكيان المسلمين رسمياً .
- * كيف وضع النبي أسس احترام المعارضة النزيهة .
- * قصة أبي جندل المؤثرة .
- * ثوار العيص ضد قريش .
- * حكومة المستضعفين في الساحل .
- * قريش تطلب إلغاء أهم شرط فرضته في المعاهدة .

القرآن و صلح الحديبية :

وقد تحدّث القرآن الكريم عن صلح الحديبية فأشاد بهذا الصلح التاريخي . وأشار إلى مكاسبه العظيمة . والتي لم يدركها عامة الصحابة على حقيقتها كما أدركها النبي ﷺ . فعارضوا الصلح (لذلك) معارضة شديدة (١) .

(١) انظر مغازي الواقدي ج ٢ ص ٦١٦ نشر جامعة أكسفورد ، وطبعة دار المعارف المصرية ١٩٦٥ م .

كما أن القرآن الكريم أعلن أن صلح الحديبية ، هو أعظم نصر يحققه المسلمون ، لذلك وصفه تعالى بالفتح المبين وذلك في سورة الفتح التي نزلت على النبي ﷺ وهو في طريقه عائد من الحديبية فقال تعالى مشيداً بصلح الحديبية وواصفاً إيّاه بالفتح المبين :

﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيَتِمَّ نِعْمَتُهُ عَلَيْكَ ، وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴾ (١) .. وعامة المفسرين والمحدثين - كما في صحيح البخارى على أن سورة الفتح نزلت في صلح الحديبية ، وأن المراد بالفتح في هذه السورة هو صلح الحديبية التاريخي (٢) .

ثناء الله على أهل الحديبية :

وفي هذه السورة أثني الله تعالى على أصحاب الشجرة الذين بايعوا النبي في الحديبية على الموت وأعلن رضاه عنهم ، فقال تعالى : ﴿ لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما في قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحاً قريباً ﴾ (٣) .

السكينة هنا (كما قاله المفسرون) : الطمأنينة وهي بيعة الرضوان . والفتح القريب : الصلح .

وأشاد تعالى بعظمة عمل المبايعين في الحديبية ، معتبراً مبايعتهم لرسوله ، مبايعة لذاته تعالى وهذا أعلى مراتب التكريم فقال تعالى :

(١) سورة الفتح الآية ١ .

(٢) انظر صحيح البخارى ج ٥ ص ٢٦٥ وما بعدها .

(٣) سورة الفتح الآية ١٨ .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ ، يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَمِثْقَلُ ذَرَّةٍ مِنْهُ لَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾ (١) .

وفي سورة الفتح ندد القرآن بالمنافقين والمشركين من الأعراب الذين مرّ عليهم النبي ﷺ بين مكة والمدينة ، فدعاهم إلى مصاحبتهم في رحلته التاريخية تلك ، فتأقلوا ثم امتنعوا ظانين أن النبي ﷺ ، وأصحابه ينهزمون أمام قريش ، قائلين : إنما خرج محمد وأكلة رأس (٢) يقدم على قوم موتورين فأبوا أن ينفروا معه لذلك فقال تعالى مندداً بهؤلاء المنافقين والمشركين : ﴿ وَيُعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتُ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتُ الظَّانِينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴾ (٣) .

كما فضح فئة أخرى من المنافقين الذين أغرقوا في النفاق إذ طلبوا من الرسول أن يستغفر لهم بعد أن رأوه يعود منتصباً وأصحابه معافين ، وهم (أي المنافقون) قد خذاوه وتخلّوا عنه حين استعان بهم واستنصرهم فاعتذروا بانشغالهم بأموالهم وأولادهم ، بينما هم في الحقيقة يظنون أن النبي وأصحابه ستكون مقبرتهم هناك في الحرم على أيدي قريش ، لذلك امتنعوا عن مرافقتهم في هذه الرحلة التاريخية التي انتهت بهذا الصلح العظيم .. فقد فضح الله النوايا الخبيثة وكشفها لرسوله ليكون على حذر منهم ومن دسائسهم فقال تعالى : ﴿ سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنْ

(١) سورة الفتح الآية ١٠ .

(٢) أكلة رأس : تعبير عن قتلهم .

(٣) سورة الفتح الآية ٦ .

الأعراب شغلنا أموالنا وأهلونا فاستغفر لنا يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم ، قل فمن يملك لكم من الله شيئاً إن أراد بكم ضرراً أو أراد بكم نفعاً بل كان الله بما تعملون خبير ﴿١﴾ ، « بل ظننتم أن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهلهم أبداً وزُين ذلك في قلوبكم وظننتم ظن السوء وكنتم قوماً بوراً » ﴿٢﴾ .

كما أشار القرآن في سورة الفتح إلى تعنت قريش وتعصبها الجاهلي في صدّها المسلمين عن الحرم وإلى الحكمة الخفية التي غابت عن البعض في صلح الحديبية فعارضوه ، كما أشار إلى أن من أسباب اتباع نبيّه طريق الصلح بدلاً من الحرب ، هو أن هناك مسلمين بين المشركين في مكة ، أو سلك النبي ﷺ طريق الحرب فانتصر لأبيد كثير من هؤلاء المسلمين المستضعفين على أيدي الجيش النبوي دونما علم منه فيصيبهم من ذلك بلاء عظيم ، فقال تعالى : ﴿ هم الذين كفروا وصدّوكم عن المسجد الحرام ، والهدى معكروا أن يبلغ محله ﴾ (أي محبوساً بالحديبية) وأولاً رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لم تعلموهم أن تطأوهم فتصيبكم منهم معرة بغير علم ليدخل الله في رحمته من يشاء أو تزيّلوا - يقول : لو خرجوا من عند المشركين - لعذبنا الذين كفروا منهم عذاباً أليماً ﴿٣﴾ أي لسلطناكم عليهم فاقتحمتم عليهم مكة بالسيف ولكن الحكمة - لا تعلمونها جعلنا القضية تسري عن طريق الصلح بدلاً من الحرب التي لو خضتموها لانتصرتم فيها على قريش ، ومن هذه الحكمة ، حماية المستضعفين المسلمين من معرة الجيش الإسلامي المنتصر الذي لا يمكنه

(١) سورة الفتح الآية ١١ .

(٢) سورة الفتح الآية ١٢ .

(٣) سورة الفتح الآية ٢٥ .

التمييز (ساعات الالتحام) بين المسلم والمشرِك . كما أشار القرآن إلى نجاح هذا الصلح بحقن دماء الفريقين وكف بعضهم عن بعض فقال تعالى :

﴿وهو الذي كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم وكان الله بما تعملون بصيراً﴾ ^(١) .

كما أكد القرآن في هذه السورة للمسلمين بأنهم لو قاتلوا أهل مكة عام الحديبية لهزموهم وانتغلبوا عليهم ، ولكن لحكمة يجهلها المسلمون وبنات لهم فيما بعد - حال الله تعالى دون نشوب القتال بين الفريقين فقال تعالى :

﴿ولو قاتلكم الذين كفروا لولوا الأدبار ثم لا يجدون ولياً ولا نصيراً﴾ ^(٢) .

كما ندّد القرآن بتعنّت قريش واستفزازها للمسلمين ، وتصلف مذلوها في المفاوضة شهيل بن عمرو وسيره في المفاوضة بروح جاهلية وحمية وثنية حين رفض كتابة اسم (الرحمن الرحيم) في افتتاحية وثيقة الصلح . كما أشاد القرآن في الوقت نفسه بحكمة النبي ﷺ وصبره أمام استفزازات قريش وتحدياتها الجاهلية . وأثنى على المسامحة لكتبهم لمواطنهم الفؤارة والتزامهم السكينة وإطاعتهم أمر نبيهم رغم كرههم للصلح ، فقال تعالى :

﴿إذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحمية حمية الجاهلية فأنزل

(١) سورة الفتح الآية ٢٤ .

(٢) سورة الفتح الآية ٢٢ .

الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وألزمهم كلمة التقوى وكانوا أحق بها وأهلها وكان الله بكل شئ عليماً ﴿١﴾ .

وكذلك أكد القرآن الكريم للمسلمين وهم عائدون من الحديبية . أكد لهم أن ما أخبرهم به نبيهم من أنهم سيدخلون مكة حق ولا شك في وقوعه .. وأنهم لا بد وأن يدخلوا مكة معتمرين رافعي رؤوسهم (تماماً) كما أخبرهم نبيهم ، فقال تعالى :

﴿ لقد صدق الله ورسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين ، مخلقين رؤوسكم ومقصرين لا تخافون ﴾ (٢)

كما لفت نظر الذين لم يدركوا الحكمة من هذا الصلح فكرهوه وعارضوه .. لفت نظرهم إلى أن هذا الذي كرهوا حدوثه له مكاسب عظيمة وأنه فتح وانتصار للجماعة الإسلامية فقال تعالى :

﴿ فعلم ما لم تعلموا فجعل من دون ذلك فتحاً قريباً ﴾ (٣) .

تبشير المسلمين بفتح خيبر :

كذلك أنزل الله تعالى قرآناً يبشر فيه المسلمين بفتح خيبر وأنهم سيظفرون بغنائم عظيمة في خيبر .

وأشار القرآن إلى أن المخلفين من المنافقين والأعراب سيحاولون الانخراط في سلك الجيش النبوي الذي سيتحرك (ولابد) لفتح خيبر ، وذلك محاولة منهم للمشاركة في المغنم لا في الأجر والثواب وتثبيت

(١) سورة الفتح الآية ٢٦ .

(٢) سورة الفتح الآية ٢٧ .

دعائم الإسلام ، وحذر القرآن النبي ﷺ أن يسمح لهؤلاء المخلفين بالاشتراك في غزوة خيبر ، وأن لا يسمح إلا لمن خاطر بحياته وأتبع النبي ﷺ وخرج معه إلى الحديبية غير هيّاب ولا وجل .

فقال تعالى مبشراً بفتح خيبر وكاشفاً وقع المنافقين المشركين : ﴿ وعدكم الله مغنم كثيرة تأخذونها فعجل لكم هذه (أى خيبر) ^(١) وكف أيدي الناس عنكم ولتكون آية للمؤمنين ^(٢) 》 .

وقال تعالى مشيراً إلى الذين سيحاولون (من الذين تخلفوا عن الحديبية) الاشتراك في حملة خيبر من أجل الحصول على الغنيمة فقط : ﴿ سيقول المخلفون إذا انطلقتم إلى مغنم لتأخذوها ذرونا نتبعكم يريدون أن يبدلوا كلام الله ، قل : لن تتبعونا كذلكم قال الله من قبل فسيقولون : بل تحسدوننا بل كانوا لا يفقهون إلا قايلاً ^(٣) 》 . قال ابن كثير في تفسيره :

هذه الآية خاصة بالأعراب الذين تخلفوا عن رسول الله ﷺ في عمرة الحديبية أخبر الله فيها نبيّه بأن هؤلاء المخلفين عند ذهاب المسلمين لفتح خيبر سيسألون أن يخرجوا معهم إلى المغنم وقد تخلفوا عن وقت محاربة الأعداء ومجالدتهم ومصابرتهم فأمر الله تعالى رسوله أن لا يأذن لهم في ذلك معاقبة لهم من جنس ذنبهم فإن الله تعالى قد وعد أهل الحديبية بمغنم خيبر وحدهم لا شاركهم فيها غيرهم من الأعراب المتخلفين فلا يقع ذلك شرعاً ولا قدراً .

(١) انظر بهجة المحافل ص ٣٢٤ .

(٢) سورة الفتح الآية ٢٠ .

(٣) سورة الفتح الآية ١٥ .

وبعد أن أمر الله تعالى نبيّه بأن يمنع المخلفين من الأعراب عن الحديبية من المشاركة في غزو خيبر ، وأن لا يسمح بالاشتراك في غزو خيبر إلا للذين استجابوا له وخرجوا معه إلى الحديبية - على ما في ذلك الخروج من مخاطرة - أمره أن يدعو هؤلاء الأعراب المخلفين بأن يستعدوا لمعارك شديدة ليشاركوا فيها (غير خيبر) إن كانوا صادقين في الجهاد ، فقال تعالى : ﴿ قُلْ للمخلفين من الأعراب ستدعون إلى قوم أولى بأس شديد تقاتلونهم أو يسلمون فإن تطيعوا يؤتكم أجراً حسناً وإن تنأوا كما من قبل^{تدعون} - أى أيام الحديبية التى تقاتلهم وتخلفتم عنها - يعذبكم عذاباً أليماً ﴾ (١).

وفى هذه الآية الكريمة تصريح بأن معارك عنيفة ستدور (بعد خيبر) بين المسلمين وبين أقوام شداد البأس .. وقد حدثت هذه المعارك الرهيبة فى حنين واليمامة وفارس والروم وقد فاز فوزاً عظيماً من خاضها من المسلمين إيماناً واحتساباً .

فضل أصحاب الشجرة :

لا شك أن الصحابة الذين رافقوا النبي ﷺ فى رحلته التاريخية هذه قد أثبتوا بفعالهم هذا أنهم على أعلى مستويات الإيمان واليقين ، وأنهم أصحاب إيمان لا تشوبه أية شائبة ، وأنهم على درجة من الشجاعة لم يبلغها غيرهم ممن يعاصروهم .

ذلك أنهم رافقوا نبيهم فى هذه الرحلة وهم على يقين بأنهم سيلاقون متاعب شديدة ومصاعب عديدة ، وأن رحلتهم هذه قد تقودهم إلى

(١) سورة الفتح الآية ١٦ .

حرب ضروس يخوضونها مع قريش ، بل كانوا وهم يتأهبون الخروج من المدينة على ما يشبه اليقين بأن هذه الحرب سينداع لها بينهم وبين قريش التي هي في حالة حرب معهم .. تتحيز الفرص للانتقام منهم لما أصابها في بدر على أيديهم .

ولكن ذلك لم يفت في عضدهم ولم يكن - بأي حال من الأحوال - باعث تردد في نفوسهم يجعلهم (كغيرهم من ضعاف الإيمان) يفكرون في القعود عن مرافقة رسول الله ﷺ في هذه الرحلة المحفوفة بالأخطار جداً .

بذلك استحقوا أن يوصفوا بأنهم خير أمة وأشجع عصابة ، وزاد هؤلاء الأصحاب شرفاً ورفعة عند الله ورسوله أن تسابقوا وهم في الحديبية إلى مبايعة الرسول ﷺ على الموت تحت الشجرة عندما بلغ طغيان قريش وتصلفها حداً لم يترك للنبي ﷺ اختياراً في استنفار أصحابه وإعلان عزمه على خوض الحرب ضد قريش لوضع حد لبغيها وطغيانها .

ثناء الله على أصحاب الشجرة :

وفد نزلت آيات وجاءت أحاديث نبوية كلها تشيد بمواقف هؤلاء الأصحاب المشرفة وتبشرهم بالسعادة الأبدية جزاء أعمالهم المجيدة التي بها أثبتوا (في ساعة العسرة) عمق إيمانهم وصدق إسلامهم وشدة - إخلاصهم ووفائهم في وقت ثخاظات فيه فئات منتسبة إلى الإسلام تحت تأثير خوفها من أن يدخل المسلمون في حرب مع قريش في هذه الرحلة التي كانت (فعلاً) محفوفة بأخطار هذه الحرب .

ففي القرآن الكريم قال الله تعالى مشيداً بهذه الصفوة المختارة من

أهل الحديبية - : ﴿ اقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما فى قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحاً قريباً ﴾ (١).

وقال تعالى - وصفاً مبايعة أهل الحديبية بأنها مبايعة له تعالى - : ﴿ إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتية أجراً عظيماً ﴾ (٢).

وفى صحيح البخارى قال جابر بن عبد الله : قال لنا رسول الله ﷺ أنتم خير أهل الأرض وكنا - أى يوم الحديبية - ألفاً وأربعمائة ، ولو كنت أبصر اليوم لأريتكم مكان الشجرة (٣) .

وعن جابر أيضاً قال : قال رسول الله ﷺ : لا يدخل النار أحد ممن بايع تحت الشجرة ، رواه الشعبي مسنداً .

أهل الحديبية مثل أهل بدر :

وفى حديث آخر قال النبى ﷺ : « يا أيها الناس إن الله غفر لأهل بدر والحديبية » . وقال ابن عبد البر فى غزواته : ما يعدل بدرأً أو يقرب منها إلا غزوة الحديبية .

وقال الشعبي فى قوله تعالى : ﴿ والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار ﴾ : هم الذين شهدوا بيعة الرضوان .

(١) سورة الفتح الآية ١٨ .

(٢) سورة الفتح الآية ١٠ .

(٣) ذكر الإمام ابن سعد فى طبقاته الكبرى أن الخليفة الفاروق عمر قطع هذه الشجرة وأزالها فى خلافته :

دروس في قضية الحديبية :

وقبل اختتام الحديث عن صلح الحديبية ولما لهذه القضية التاريخية من أثر مصيرى في تاريخ الإسلام ، فإنه يجدر بنا أن نشير إلى ما يمكن أن يكون دروساً يستفيد منها في دينه ودنياه كل من ينظر فيها ويعيها كما يجب .

فقد تلقى الصحابة عن الرسول الأعظم ﷺ - ضمن تصرفاته في قضية الحديبية المعقّلة - دروساً في الحكمة والحلم والصبر وضبط النفس والسياسة الصائبة وبُعد النظر ، والوفاء بالعهد والحيطة والحزم والحذر والتسامح والشورى وعلم الاستبداد مع احترام المعارضة .

لإنها دروس لعمر والله جليلة بأن يتدبرها ويعيها ويسير على ضوئها الرادة والقادة من أمة الإسلام ، في معالجة المشاكل ومواجهة الأزمات وحل المشكلات .

١ - الحيطة والحذر :

ولعل أول درس تعلمه الصحابة من النبي ﷺ في هذه القضية هو الحيطة والحذر ، فبالرغم من أنه ﷺ قد خرج معتمراً لا يريد حرباً ، وبالرغم من إعلانه ذلك لثلاث تظن قريش أنه يريد غزوها ، وبالرغم من أنه وعامة أصحابه قد تجردوا من كل مخطط وارتدوا لباس الإحرام بالعمرة ، فقد قنم بين يديه طلائع من الفرسان بقيادة عبّاد ابن بشر حسباناً للطوارئ وللقيام بأعمال الاستكشاف ؛ كما زرد أصحابه بكافة الأمطحة اللازمة .

كما أنه بحث له عيناً - رجل استخبارات - إلى مكة ليوافيه أثناء الطريق مدى تأثير خروجه بين القرشيين ، ورد الفعل بينهم ليتخذ لكل أمر عدته ويرسم لكل شيء خطته .

وفعلاً لم يكذب بصل بأصحابه منطقة أشطاط بعسفان قرب مكة حتى عرف - عن طريق استخباراته - كل ما يجب أن يعرف عن أهل مكة الذين هو معهم في حالة حرب منذ معركة بدر الكبرى .

وقد استفاد ﷺ من المعلومات الهامة التي تلقاها من رجل استخباراته ، فاستطاع (كما تقدم) تجنب الاصطدام المسلح مع طلائع فرسان قريش بقيادة خالد بن الوليد في كراع الغميم بعد أن غير وجهته ناحية اليممين ، وبهذا تفادى إشعال نار حرب لم يكن راغباً في إشعالها .

٢ - ضبط النفس ساعة الاستفزاز :

والدرس الثاني الذي ألقاه النبي ﷺ على أصحابه عملياً فوعوه ، والذي يجب أن يعينه كل من هو في مركز المسؤولية ومرتبة القيادة والريادة ، هو خلق ضبط النفس والسيطرة على الأعصاب والصبر - والتحمل عند تحدى الجهلاء واستفزاز السفهاء هذا الخلق الذي تحلى به النبي القائد والتزمه في أشد الساعات حرجاً وتجنّباً على المسلمين ، مع أنه كان قادراً على أن يكيل الصاع صاعين للمستفزين المتهورين ؛ ولكنه لم يفعل لأن ذلك لم يكن ضرورياً .

لقد خرج النبي ﷺ من المدينة (خروجه ذاك) وهدفه الأول

والأخير هو زيارة البيت الحرام وهو هدف سلمى محض عَلِمَتْه قريش وتبلغته من المسلمين رسمياً للإعذار .

ولكن قريشاً التي كانت كلمة الفصل في كل أمورها (يوم ذاك) للعقلية الوثنية الحمقى ، أبت إلا أن تصدّ النبي ﷺ وأصحابه عن زيارة البيت .

فبمجرد علمها بخروج النبي ﷺ وأصحابه من المدينة نفخ الشيطان في مناخر زعمائها المشركين ، فأعلنوا التعبئة العامة واستنفروا كل ما لديهم من قوات عسكرية ثم خرجوا بها إلى ما وراء حدود مكة استعداداً لمحاربة المسلمين ومنعهم (بحدّ السيف) من زيارة البيت .

فعلوا ذلك بالرغم من أن المعلومات التي حصلت عليها استخباراتهم ، أكدت لهم أن النبي ﷺ وأصحابه لم يجيشوا لحربهم وإنما جاؤوا زائرين ومعظمين للبيت العتيق يسوقون الهدى بين أيديهم قد ارتدوا ملابس الإحرام ... ولكنها الجاهلية العمياء حادّت بالمشركين عن جادة الصواب .

لقد كان خروج قريش بجيوشها ومرابطة خالد بن الوليد بفرساتها على الطريق الرئيسي في كراع الغميم تحدياً مثيراً واستفزازاً خطيراً في الإمكان أن يتسبب بسهولة في إشعال نار حرب ضروس بين المسلمين والمشركين على حدود أو داخل الحرم ، تسفك فيها دماء غزيرة لا يرغب النبي ﷺ في سفكها وتزهق فيها أرواح كثيرة كان ﷺ حريصاً كل الحرص على أن لا يزهق شيء منها .

لقد كان باستطاعة النبي القائد ﷺ أن يتخذ من طغيان قريش وتحديها واستفزازها مبرراً للدخول معها في ضدام مسلح فيمّر حيث

يعسكر فرسان خالد بن الوليد ويقتحم عليه حدود الحرم بحدّ السيف
لا سيما وأنّ قريشاً تعرف (سلفاً) أنّ قواتها ستكون هي الخاسرة إذا
ما هاجمها النبي ﷺ ليشق طريقه نحو مكة بالقوة .

لأنّ وراءه ألفاً وأربعمائة من نوع أولئك المغاوير الأشاوس الذين
عرفهم مشركو مكة في ساحات الوغى حق المعرفة ، حيث حطم ثلاثمائة
منهم يوم بدر جيش مكة الضخم المؤلف من ألف مقاتل يمثلون صفوة
فرسان وصناديد قريش ومحاربينا .. كما أنزل سبعمائة منهم (يوم
أُخذ) تلك الهزيمة المخجلة بثلاثة آلاف مقاتل أعدتهم قريش لاجتثاث
الإسلام ومحو كيانه من الوجود .

غير أنّ النبي ﷺ - مع قدرته على كل ذلك - قابل استفزاز
قريش وتحديّها بالحلم والصبر ، ورد على سفهها وشططها بالرزانة
والتعقل حتى إنه عندما بلغه أنّ قريشاً قد ركبت رأسها وأبت إلا
محاربته قال في أسف بالغ كلمته التاريخية الخالدة تلك : « يا ويح
قريش لقد أكلتهم الحرب ، ماذا عليهم لو خلّوا بيني وبين سائر العرب
فإن هم أصابوني كان الذي أرادوا ، وإن أظهرني الله عليهم دخلوا في
الإسلام وافرّين ، وإن يفعلوا قاتلوا وبهم قوة » .

ثم أمر أصحابه بأن يسلكوا طريقاً لا يمر على عسكر قريش المرابطين
في كراع الغميم ، لا جبناً ولا خوفاً من الحرب ، ولكن ضناً بالأرواح
من أن تزهد وحرصاً على الدماء من أن تراق في غير ما ضرورة موجبة .
وفعلاً ، كم - بهذا التصرف النبوي الحكيم - أرواح حفظت كان
يمكن أن تزهد المئات منها ، لو لم يتصرّف النبي القائد هذا التصرف

الذى به تحاشى الاصطدام مع عسكر قريش .. أرواح كان الكثير من أصحابها على رأس جيش المشركين ، ثم صاروا فيما بعد قادة لجيوش الإسلام دكّوا عروش كسرى وعصفوا بكراسى قيصر مثل : خالد بن الوليد وعكرمة بن أبى جهل وصفوان بن أمية وعمرو بن العاص وسهيل ابن عمرو ، الذين - وأمثالهم من صناديد قريش - كان يمكن أن يخرّوا صرعى فى المعركة لو لم يغيّر النبي ﷺ اتجاهه بأصحابه وينزل بهم على الحديبية .

وهكذا فإن كل قائد مسؤول يجب عليه أن يقف عند هذا التصرف النبوى ليستخلص منه الدروس فى ضبط النفس وعدم التسرع فى مثل هذه المواقف ووزن الأمور بموازين مصلحة الأمة والدين لا بموازين - العاطفة والعنجهية والهوى والعنتریات الفارغة .

٣ - احترام المعارضة التزيهية :

والدرس الثالث المستخلص من قضية الحديبية هو أن النبي ﷺ وضع قواعد احترام المعارضة ، وعدم التعرض للمعارض بأى أذى مهما كانت منزلة هذا المعارض .. شريطة أن تتوفر سلامة النية لدى هذا المعارض ، وأن يكون باعث معارضته الحرص على مصلحة الإسلام والمسلمين .

أما إذا كانت المعارضة باعثها الهوى أو المصلحة الشخصية أو العمل على ترسيخ قواعد مبدل يخالف الإسلام ومصلحة الأمة فإنها معارضة يجب قمعها فليست جديرة بأى احترام .

والدرس المستفاد هنا بصفة رئيسية هو في قصة معارضة الفاروق
عمر الصريحة بل القوية لبعض بنود معاهدة الصلح التي أبرمها النبي
الأعظم ﷺ بينه وبين المشركين .

لقد كان ابن الخطاب يرى - في قرارة نفسه ساعة عقد الصلح -
أن بعض الشروط التي اشترطها المندوب القرشي سهيل بن عمرو في
المعاهدة ، وقبل بها النبي ﷺ فيها مساس بكرامة الأئمة الإسلامية
تسجل عليها شيئاً من الدنيّة .. كان ذلك مبلغ فهمه وإحساسه وشعوره
كإنسان عادي - بالنسبة للنبي ﷺ - لم يكن (بالتأكيد) على مستواه
في إصابة الرأي وبعد النظر والإحاطة بغوامض الأمور .. وبالتالي ،
تلقيّه الوحي من السماء وعدم صدوره إلا عن أمر الله تعالى .

لذلك فإن ابن الخطاب لم يكذب يطلع على بنود وشروط المعاهدة -
التي اتفق عليها ولم يبقَ غير التوقيع والإشهاد عليها - حتى نهض معلناً
عن معارضته الشديدة وذهب إلى النبي ﷺ ، وبصراحته المعهودة
أفصح لسيد الحكماء وإمام العلماء ﷺ عن هذه المعارضة ، مستنكراً
بعض الشروط التي تضمنتها هذه المعاهدة ، وخاصة المتعلقة باشتراط
قريش رجوع المسلمين عن مكة ذلك العام دون أداء مناسك العمرة ..
وتعهد النبي ﷺ برّد كل من جاءه من أبناء قريش إليهم حتى ولو
كان مسلماً .. وعدم تعهد قريش (مقابل ذلك) بأن يردوا من جاء إليهم
مفارقاً جماعة المسلمين مرتدداً عن الإسلام .

فرائنا كيف أن عمر بن الخطاب جاء إلى النبي ﷺ معلناً معارضته
لهذه الشروط قائلاً : أأست رسول الله حقاً ؟ قال : بلى . فقال ابن
الخطاب : أألسنا على الحق وعدونا على الباطل ؟ قال النبي ﷺ : بلى .

فقال عمر : فلم تعطِ الدنيا في ديننا إذن ؟ .

فلم ينكر النبي الأعظم ﷺ على ابن الخطاب معارضته القوية الصريحة ولم يعتقه على هذه المعارضة بل حاول إقناعه بسلامة تصرفه ﷺ حينما وافق على هذه الشروط التي تراءى للفاروق أنها مجحفة بالمسلمين ، فقد أبلغ النبي ﷺ عمر بأنه لا يفعل إلا ما فيه مصلحة الإسلام والمسلمين وبالتالي لا يتصرف إلا بأمر من الله حيث قال ﷺ جواباً على معارضة الفاروق : « إني رسول الله ولست أعصيه وهو ناصري » .

وحق بعد ذلك الجواب النبوي الرفيع المقتضب ، على تلك المعارضة الفاروقية العنيفة ، لم يضق صدر سيد البشر لاستمرار ابن الخطاب في المعارضة ومناقشة الرسول واستجوابه ، حيث واصل المناقشة حول الموضوع نفسه قائلاً ؛ وبذلك الصراحة التي كان النبي ﷺ يكبرها في عمر لنزاهة الدافع لها في كل مناسبة : « أو ليس يا رسول الله كنت تحدثنا أنا سنأتي البيت ونطوف به » ؟ .

فقال النبي ﷺ - في هدوئه المعروف - : بلى . أفأخبرتكم أنا نأتيه هذا العام ؟ .

فقال عمر : لا .

فقال ﷺ : فإنك آتية ومطوف به .

وكان الفاروق قد اتصل بوزير النبي الأول أبي بكر الصديق وأعرب له عن معارضته لتلك الشروط وعدم استساغته لها حيث قال لأبي بكر كما تقدم :

أليس هذا نبي الله حقاً ؟ .

قال : بلى .

فقال : ألسنا على الحق وعدونا على الباطل ؟ .

قال : بلى .

قال : فلم نعظ الدنيّة في ديننا ؟ .

وهنا قال الصديقّ للفاروق (ملفتاً نظره إلى وجوب التسليم بكل ما يقوله أو يفعله النبي ﷺ) : أيها الرجل إنه لرسول الله وليس يعصى الله ربه ، وهو ناصره ، فقال عمر : وأنا أعلم أنه رسول الله .
فقال أبو بكر : فاستمسك بغرزه فوالله إنه على الحق .

ندم الفاروق على المعارضة :

وقد أعلن الفاروق - وبالصراحة المعروفة عنه - ندمه على تلك المعارضة التي أبدّاها . وحدث عمر عن نفسه .. أنه كان يصوم ويتصدق ويعتق ، تكفيراً عما صدر منه من تلك المعارضة التي صارع بها النبي الأعظم ﷺ .

٤ - إيضاح أهم نقطة إشكال :

لقد كان البند الذي يتضمن تعهد النبي ﷺ بأن يرد إلى - المشركين من جاءه من أبنائهم حتى ولو كان مسلماً ، ولا تتعهد قريش برّد من جاءها من المسلمين إليهم .

كان هذا البند - على وجه الخصوص - مصدر تضايق للمسلمين لأنهم لم يهضموه ولم يستسيغوه كبشر ، حتى قال قائلهم - عندما سمعوا

موافقة النبي ﷺ - : سبحانه الله كيف يرد إلى المشركين وقد جاء مسلماً ؟؟ .

وقد أصاب المسلمون (لقبول هذا الشرط) هم عظيم .

غير أن النبي ﷺ بأسلوبه الحكيم وبمنطق واقعي سليم بلد كل غيوم الهم تلك التي خيمت على نفوس المسلمين فلجأهم بصدد هذا الشرط الذي استنكروا قبوله بقوله ﷺ :

« أما من أراد أن يلحق بنا منهم (أى مسلماً وتعهدهنا بعدم السماح له بالإقامة بيننا) فسيجعل الله تعالى له مخرجاً ولنا .. ومن أتاها منا فأبعده الله (أى مرتداً) وهم أولى بمن كفر » .

وكان التفسير النبوي تفسيراً واقعياً ومعقولاً أعاد للنفوس القلقة طمأنينتها .. حتى أن عمر بن الخطاب - وهو أشد أصحابه معارضة لقبول هذا الشرط - اقتنع بهذا القول النبوي وأدرك أن فعل الرسول ﷺ هو الصواب .

وهذا درس مهم ألقاه النبي ﷺ على أصحابه يجب الاستضاءة بنوره في الثأني وعدم التسرع في تفسير الأمور واستخراج النتائج أثناء الانفعال وفورة العاطفة ، لأن استخلاص النتائج (حينئذ) يكون مغلوطاً كما حدث حينما تسرع بعض المسلمين في تفسير قبول النبي ﷺ ، بهذا الشرط ، بأنه يحمل المساس بكرامة المسلمين ودينهم .. ثم يأن لهم خطأ هذا التفسير عندما أكد لهم النبي ﷺ بلغة العقل لا (العاطفة) عدم وجود أية دنية عليهم في قبول هذا الشرط الذي كاجوا يهلكون غماً لدى سماعهم موافقة النبي ﷺ على قبوله .

• - الوفاء بالعهد :

ولعل من أبلغ الدروس في صلح الحديبية درس ألقاه النبي القائد والحاكم في الوفاء بالعهد والتقيد بما يفرضه شرف الكلمة من الوفاء بالالتزامات التي يعطيها المسؤول الشريف في كلمته مهما ترتب على هذا الوفاء من خسائر وآلام تصيب الموفى بالعهد .

هذا الدرس الرائع نستخرجه من حادثة أبي جندل التاريخية المؤثرة .

لقد كان لرئيس وفد الشرك في مفاوضة الحديبية (سهيل بن عمرو) ابن شاب كان قد هداه الله للإسلام في مكة فاعتقله أبوه وأودعه السجن وقام بتعذيبه لحمله على العودة إلى دين الوثنية ، ولكنه صبر وتحمل وظل على دينه الصحيح مسلماً .

وصادف أن أبا جندل هذا (كما تقدم) تمكن من الفرار من سجن أبيه ووصل إلى معسكر المسلمين وهو يرسف في قيوده فرمى بنفسه فاراً بدينه بين أظهرهم طالباً حمايتهم لأنه أصبح مسلماً منهم وإليهم .

فرحب به المسلمون وهنأوه . غير أن أباه سهيل بن عمرو لم يكد يراه بين المسلمين حتى صرخ في وجهه وانهال ضرباً على وجهه ثم أخذ يحجره بتلابيبه ويدفع به أمامه ليعود به إلى معسكر الشرك ، حتى صاح أبو جندل (مستغيثاً بالمسلمين) : يامعشر المسلمين أأرد إلى المشركين يفتنوني عن ديني ألا ترون ما لقيت . .

ويظهر أن المسلمين سارعوا بالتدخل لحماية أبي جندل وانتزعوه من يد أبيه المشرك ليبقى معهم لأن تلك هي رغبته . ولأنه أصبح منهم عضواً في أسرة الإسلام .

لم يلجأ سهيل بن عمرو إلى القوة لإلقاء القبض على ابنه المسلم بل لجأ إلى الاحتجاج لدى النبي القائد ﷺ وطالبه بأن يسلم إليه ابنه أبا جندل وفقاً لاتفاقية الصلح التي ينص البند الثامن منها على التزام النبي ﷺ بأن يرد من جاء إليه من قريش بغير إذن أهله .

فقد قال سهيل في احتجاجه هذا - أي موضوع ابنه - أول ما أفاضيك عليه ، لقد لجت القضية بيني وبينك قبل أن يأتي هذا - يعني لابنه - .

ولم يسمع النبي القائد - وهو أبرّ من أوفى بالعهد - إلا أن يقف عند كلمته ويطبق الاتفاقية نصاً وروحاً ، فقال لسهيل بن عمرو : صدقت ، وسمح لسهيل بن عمرو ، المشرك باعتقال ابنه المسلم وإعادته إلى مكة ، رغم علمه بما في هذا التصرف من إيذاء شديد لعواطف المسلمين إلا أن النبي ﷺ - مع ذلك طلب من سهيل بن عمرو أن يسمح لابنه بالبقاء مع المسلمين قائلاً : فأجره لي ، أي أتركه في جوارى وأمانى وهي عادة متبعة عند العرب .

فقال سهيل : ما أنا مجير لك ذلك .

فكرر النبي الطلب قائلاً : بلى ، فافعل .

فكرر سهيل الرفض قائلاً : ما أنا بفاعل .

وهنا تدخل عضوا الوفد القرشي (حويطب بن عبد العزى ومكرز ابن عمرو) فلجأراً أبا جندل ، وتعهدا بأن لا يمسّه العذاب في مكة ، حيث قالوا للنبي ﷺ : قد أجرناه لك (يا محمد) لا نعتبه .

وقد استلم سهيل بن عمرو ابنه الشاب المسلم ليزج به في السجن مع أمثاله من شباب قريش المسلمين الذين حال طغيان أهلهم بينهم وبين اللحاق بالنبي ﷺ مهاجرين .

النبي يعتذر لأبي جندل :

وقد اعتذر النبي الأعظم ﷺ لأبي جندل عندما صاح بأعلى صوته - وأبوه يجره بتلابيبه - يامعشر المسلمين أأرد إلى المشركين يفتنونني في ديني ؟ . اعتذر النبي ﷺ لهذا الشاب المسلم بأنه لا يستطيع أن يقوم بأي عمل يخلصه من أسر أبيه المشرك لأن ذلك يعنى النقص للعهد الذي أعطاه النبي ﷺ لقريش قبل قليل .

فقد قال ﷺ لأبي جندل : إنا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحاً وأعطيناهم على ذلك وأعطونا عهداً وإننا لا نغدر بهم .

غير أن النبي ﷺ إزاء هذه المأساة التي حالت بنود معاهدة الصلح بينه وبين أن يجد مخرجاً منها لأبي جندل المسلم ، طمأن أبا جندل وبشره بقرب الفرج له ولمن على شاكلته من الشباب المسلم الذين تضيق بهم سجون أهاليهم المشركين في مكة فقد قال ﷺ لأبي جندل - وهو يواسيه - : يا أبا جندل اصبر واحتسب . فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً .

فاقتنع أبو جندل بالبيان النبوي واطمأن إلى البشرى التي بشره بها ، فاستسلم لأبيه المشرك الذي عاد به إلى مكة . حتى جعل الله له فرجاً ومخرجاً - كما بشره الرسول ﷺ - بعد أقل من سنة . كما سيأتى تفصيله إن شاء الله .

درس رائع واختبار قاس :

حقاً إنه لاختبار قاس وامتحان شديد .. شاب مسلم فرّ بدينه إلى المسلمين ثم ينتزع انتزاعاً ليرى به مرة أخرى في جحيم الشرك بعد أن خرج منه والتجأ إلى أسرة الإسلام في الحديبية .

لقد تأذى المسلمون لهذا المنظر وتألّوا أشدّ الألم حتى إن الكثير منهم بكى لإشفاقاً على هذا الشاب الطيب المسلم وهم يرون أباه المشرك يسحبه في جلافة الوثني الفظّ .

لقد كانت الرغبة ملحةً في نفوسهم - بل وفي مقدورهم - أن يخلصوا هذا الشاب الصادق الإيمان من وحشية أبيه الوثني الفظ .. فقد كانت قلوبهم وكأنّها تتمزق وهم يرون سهيل بن عمرو المشرك يسحب في وحشية وقسوة من بين أيديهم - ابنه المؤمن والدعاء تسيل من شدة ضغط مقابض السلاسل على قدميه .

حقاً لقد كان منظرًا تبيكى له القلوب قبل العيون .. ولكن ماذا عسى أن يصنع المسلمون القادرون على تخليص هذا الفتى المسلم .. ماذا عسى أن يصنعوا ؟ .

إنهم أمام هذا المنظر الذي بكت له قلوبهم قبل عيونهم يشعرون وكأنّ أيديهم مشدودة إلى الوراء .. شدها الوفاء بالعهد الذي أعطاه النبي ﷺ ، قريشاً . وشرف الكلمة التي التزم تنفيذها ضمن نصوص معاهدة الصلح ، الذي جعلهم يقفون مكتوفي الأيدي لا يجرأون على التعرض لسهيل بن عمرو الذي صادر حرية ابنه الشاب المسلم وأجبره على العودة ليعيش في مجتمع الوثنية الذي لا يريد العيش فيه .

وقد أشار ابن إسحاق إلى أن ما حدث لأبى جندل قد ثقل على المسلمين ودخل عليهم منه أمر عظيم ، حتى كادوا أن يهلكوا غماً : حتى بلغ الأمر بالكثير منهم إلى أن يستفسروا في ألم وحرقة - لعدم إحاطتهم بما أحاط به علم النبي ﷺ ولقصر إدراكهم للأبعاد والمرامى العميقة التي يدركها النبي ﷺ وهو يقبل ذلك الشرط الذي أملاه سهيل بن عمرو أثناء كتابة المعاهدة والذي بموجبه أعاد النبي ﷺ إلى سهيل المشرك ابنه الالاجئ المسلم - استفسروا : لماذا يردون إلى قريش من جاء إليهم مسلماً ولا ترد قريش إليهم من هرب إليها منهم مرتداً ؟ .

وجاء الجواب من الذات النبوية على هذا الاستفسار .. حكيماً منطقياً وواقعياً ، فلامس القلوب المؤمنة فصار لها كالبلسم .. شفاها من الغم الذي ألم بها وخاصة بعد الذي حدث لأبى جندل .. جاء الجواب من النبي الحكيم الحليم بأن من ذهب من المسلمين إلى قريش مرتداً ، فلا رده الله .. إذ لا خير فيه .. وماذا يستفيد المسلمون من إنسان فارق دينهم ؟ .

أما المستضعفون من المسلمين الذين قد يطلبون حق اللجوء عند المسلمين فيعيدهم النبي ﷺ إلى كفار مكة . فسيجعل الله لهم مخرجاً - ما في ذلك شك - ما داموا ثابتين على دينهم .

وماذا عليهم لو دفعوا ضريبة الإيمان في سجون مكة ؟ لقد سبق لهم إخوة ذاقوا - في سبيل التمسك بعقيدتهم - أشد مما يذوقون هم ، من التعذيب . حتى إن بعضهم مات تحت التعذيب الوحشي الرهيب فصاروا في الذروة بين السابقين الأولين . أمثال : عمار وأُم عمار - وبلال - ومصعب بن عمير الذين لم يكن ما تعرضوا له من قسوة الإرهاب -

والتجويع ووحشية التعذيب في سجون المشركين بمكة إلا أوسمة - إن
صح هذا التعبير - جعلتهم حديث الدنيا وملء سمعها وبصرها ، يلهج
التاريخ بذكرهم العطرة في التضحية والفداء في سبيل العقيدة أبد -
الآبدين .

فكانَ لسان حال النبي الأعظم - وهو يعيد أبا جندل إلى أبيه المشرك
وفاءً بالعهد - يقول : فليثبت إذن أبو جندل وإخوة أبي جندل وليحتسبوا
ما ينالهم في سجون مكة من بلاء وتنكيل في سبيل الاحتفاظ بعقيدتهم ،
قاله منجّيهم وجاعل لهم من محنتهم مخرجاً .

أليس الله سبحانه هو القائل في حق المؤمنين الصادقين المتقين :
﴿ ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب ﴾ ^(١) .؟

ولقد صدق الله وعده فقد جعل لأبي جندل وإخوته من المسلمين
المستضعفين في سجون أهاليهم بمكة مخرجاً ، فلم تمرّ أقلّ من سنة حتى
تمكنوا من الإفلات من سجون مكة وأصبحوا قوة صار كفار مكة يخشونها
بعد أن سيطرت على طرق قوافل المشركين الآتية من الشام ، كما سيأتي
تفصيله فيما يلي من هذا الفصل إن شاء الله .

مكاسب الصلح العظيمة :

بالرغم من تضايق عامة المسلمين لما تحمله (في الظاهر) شروط صلح
الحديبية التي قبلها النبي ﷺ واغتم لها عامة المسلمين ، فإن هذا
الصلح نتج عنه مكاسب عظيمة للمسلمين بل نصر كبير للدعوة الإسلام
ظهرت جلية واضحة فيما بعد للذين تضايقوا من شروط هذا الصلح .

(١) سورة الطلاق الآية ٢ - ٣ .

وقد تساءل البعض في حينه - عن حسن نية - أين هي المكاسب الملموسة التي حققها صلح الحديبية بشروطه القاسية على المسلمين وقد أقرّ النبي ﷺ صد المسلمين عن الحرم فحلّوا إحرامهم خارجه ، وعادوا من حيث أتوا دون أن يطوفوا بالبيت ، وهو الهدن الرئيسي الذي لم يخرجوا من المدينة بقضهم وقضيضهم إلا من أجل تحقيقه ؟؟ .

والجواب على هذا التساؤل ، هو أن النبي الأعظم ﷺ لم يقرّ في هذا الصلح ويوافق سهيل بن عمرو على صد المسلمين عن الحرم ومنعهم من الطواف أبداً الأبد .

وإنما وافق فقط ، على أن يؤجل المسلمون دخولهم الحرم معتمريين من عامهم ذاك إلى العام الذي يليه مباشرة . وهو ما أشار إليه النبي ﷺ وهو يحاول إقناع المعارضين للصلح من أصحابه .

وهذا يدل على (دبلوماسية) رفيعة وسياسة عسكرية غاية في الحصافة إن صح هذا التعبير - (دبلوماسية) حقق باتباعها النبي ﷺ حقن دماء كثيرة لم تكن له أية رغبة في إراقتها بل يكره كل الكره أن تراق داخل الحرم .. وكان يمكن أن تراق بسهولة وبغزارة ، أولاً أن النبي ﷺ فعل كما القادة المتجربون القادرون على تحقيق أهدافهم بحدّ السيف .. وقد كان قادراً على اقتحام مكة بحدّ السيف .

ولكنه - وهو الذي أرسله الله رحمة للعالمين - فضّل أن يحلّ محل هذا الاقتحام الدامي ، عودة سليمة للمسلمين لزيارة البيت بعد عام واحد فقط .. فقبل (لذلك) الشرط الذي أملاه المندوب القرشي والذي يقضى بأن يرجع المسلمون هذا العام دون أن يدخلوا مكة ، على أن يكون من حقهم دخولها في العام القادم .

وأى إجحاف بحق المسلمين في الموافقة على هذا التأجيل ، لا سيما إذا أخذنا بعين الاعتبار أن هذا التأجيل البسيط كان سبباً رئيسياً في حفظ مئات - بل آلاف الأرواح - يمكن أن تُزهق من الفريقين لو لم يوافق النبي ﷺ على هذا التأجيل وأصرَّ على اقتحام مكة بالقوة .

ثم ما هو الفرق بين أن يحصل الإنسان على حقه اليوم أو غداً ، ما دام أنه قد ضمن الحصول على هذا الحق ؟ .

وقد تضمنت معاهدة صلح الحديبية وجوب حصول المسلمين على حقهم وهو الطواف بالبيت في العام القادم .

فهل من الحكمة أو هل من مصلحة الإسلام والمسلمين أن يخاطر النبي ﷺ بأرواح المئات من أصحابه الذين هو في أمس الحاجة إليهم وخاصة في تلك المرحلة المصيرية من بناء الدولة الإسلامية الوليدة التي هي أخرج ما تكون إلى الرجال لحماية الدعوة التي أخذت جنورها في الرسوخ والانسياب في الأعماق هل من الحكمة أو من المصلحة أن يقدم على مخاطرة قد لا تكون مأمونة الجانب فيعرض أصحابه للموت في حرب ستكون لا شك ضروساً طاحنة ، من أجل التعجيل بمطلب هو قادر على تحقيقه بعد عام واحد ، دون أن يضطر إلى إراقة قطرة دم واحدة من دم أصحابه ؟؟ .

إنه كنبى أرسله الله رحمة للعالمين ، وكرسول جاء يحمل شعار الحب والتسامح ، وكرائد ومصلح جاء لحقن الدماء وصيانتها ، لا لسفكها وإضاعتها ما وجد إلى ذلك سبيلاً ، حتى ولو كانت هذه الدماء غير دماء المسلمين .. لهذا كله ولأنه - كقائد مسؤول عن سلامة أرواح أصحابه - لا يمكن أن يقدم على تلك المخاطرة فيخوض حرباً مدمرة ضروساً

لا ضرورة لها إلا الاستجابة لعواطف بعض الأصحاب التي عند جيشائها
قصرت مداركهم عن فهم وإدراك ما فهمه وأدركه القائد الفذ المحنك
المسؤول ، والرسول الموحى إليه من عند الله والذي لا يصدر إلا عن أمره
تعالى .

شرط سطحي :

لقد قبل النبي ﷺ ذلك الشرط الذي اشترطته قريش في المعاهدة
والذي بموجبه قبل النبي ﷺ الامتناع عن دخول مكة ذلك العام على
أن يدخلها وأصحابه في العام القادم .

لقد تظاهرت قريش أنها بإملاء هذا الشرط قد انتصرت على المسلمين .
بينما ذلك الشرط (في حقيقته) ليس أكثر من غطاء رقيق شفاف ، حاولت
قريش - أمام السطحيين العاطفيين - أن تغطي به هزيمتها الكبيرة في
هذا النزاع الخطير الذي أثاره تصلّفها وكبرياؤها الجاهلي .. هذه -
الهزيمة المتمثلة في انحنائها للعاصفة بقبولها مبدأ دخول المسلمين مكة
واعترافها بحقهم في الطواف بالبيت ، الأمر الذي كانت ترفضه وتمانع
في الاعتراف به حتى توقيع مندوبها على معاهدة الصلح التي اعترفت فيها
بهذا الحق .

إن كل ما كسبته قريش من هذا الشرط - الذي استعظم عامة
الأصحاب الموافقة عليه - هو أن النبي قبل أن يؤجل دخول مكة للعمرة
عاماً واحداً .

وهذا أبرز ما ظن قادة قريش ، أو أوهموا السطحيين من مشركي
العرب أن فيه نصراً عظيماً لقريش على المسلمين .

بينما هو في الحقيقة لا يعدو أكثر من موافقة الرسول القائد على تأجيل مباشرة حق سنة واحدة .. حق كانت قريش - إلى ما قبل إبرام هذا الصلح - ترفض الاعتراف به .

فكان قريشاً بإبرامها هذا الصلح قد وقّعت على الاعتراف بحق للمسلمين كانت ترفض الاعتراف به وتقسم الأيمان الغليظة بأنها لن تمكّنهم من مباشرته أبد الأبدين .

ولهذا خرجت من مكة إلى منطقة الحديبية بكل ما لديها من قوة لتبرّ هذا القسم الآثم وتجبر المسلمين على العودة من حيث أتوا دونما أي قيد أو شرط أو دخول في أية مفاوضة .

ولكنها عندما رأت تصميم المسلمين على البقاء في الحديبية وأن ذلك قد يؤدّي إلى صدام مسلح قد يكون فيه تحطيم كيائها إلى الأبد ، وخاصة بعد المبايعة تحت الشجرة والتي لا تعنى سوى الاستنفار العام واستعداد المسلمين لخوض المعركة إذا لم يكن منها بدّ . ورأت قريش - كما هو قرارة نفسها - أن لا طاقة لها بمقاومة المسلمين إذا ما اضطروا للهجوم ، لذلك انحنت للعاصفة ، فرجعت عن يمينها ، فوافقت على أن يدخل المسلمون مكة للعمرة ، ولكنها - كستار لتراجعها الذي هو عين الاندحار طلبت أن يكون ذلك في العام القادم .

فصح بهذا يقيناً أن الذي حصل على الكسب الحقيقي والنصر المؤزّر في هذه القضية الخطيرة التاريخية المعقدة إنما هم المسلمون - لا المشركين .

ولقد اعتبر الخبراء العسكريون والسياسيون القدامى والمعاصرون . اعتبروا رجوع النبي ﷺ بأصحابه على تلك الصورة وبعد الظفر بتلك

المعاهدة هو من أحكم وأقوم ما يمكن أن يُقدم عليه قائد مسؤول عن الأمة ، يقدر النتائج ويحسب حسابها قبل الإقدام على العمل .

كما أن الباحثين وفلاسفة التاريخ اعتبروا صلح الحديبية نصراً عظيماً أحرزه النبي ﷺ للإسلام والمسلمين .

بل إن الناظر بتفهّم وإمعان في قضية الحديبية والصلح التاريخي الذي كان خاتمة المطاف فيها ، يجد أنه قد نتج عن هذه القضية مكاسب عقائدية وسياسية وأدبية وإعلامية عادت بالنفع العظيم على الإسلام ودعوة الإسلام .. ويمكننا الإشارة إلى بعض هذه المكاسب :

١ - اعتراف قريش بكيان المسلمين :

لقد كانت قريش - منذ ظهور دعوة الإسلام في مكة ومنذ خمس عشرة سنة وحتى يوم صلح الحديبية - تعتبر النبي وأصحابه المسلمين شرذمة لا كيان لها .. لا تنظر إليهم إلا كما تنظر إلى الصعاليك من قطاع الطرق والخارجين على القانون الذين يجب إخضاعهم لسلطانها وإعادتهم إلى حظيرة طاعة كهنتها الوثني أو التخلّص منهم بأيّة وسيلة من الوسائل .. وما كانت قريش تفكر أنها في يوم من الأيام ستقعد معهم على مائدة واحدة لتفاوضهم الند للند وتتعترف بهم في معاهدة مسجلة كأمة لها كيانها بل كدولة لها هيبتها ونفوذها ، الأمر الذي ترفض قريش الاعتراف (رسمياً) بشئٍ منه كل الرفض حتى جاء يوم الحديبية فاعترفت فيه المسلمون بكل ذلك ووقع مندوبها على وثيقة تاريخية دولية ، تتضمن هذا الاعتراف .

وهكذا تكون أولى مكاسب صلح الحديبية السياسية - بل أهمها -
اعتراف قريش رسمياً بأن النبي ﷺ وأصحابه أصبحوا أمة لها كيائها
بل دولة لها خطرهما .

وقد جاء هذا الاعتراف مجسداً في وثيقة معاهدة هذا الصلح التي
تضمنت اثني عشر بنداً من بينها البند الذي ينص على عقد هدنة بين
المسلمين وقريش لمدة عشر سنوات .

والهدنة لا تعقد إلا بين فئتين متكافئتين - عسكرياً وسياسياً على
الأقل .

والتكافؤ عسكرياً ودولياً بين المسلمين وقريش ، ظلت قريش ترفض
الاعتراف به طيلة خمس عشرة سنة حتى وقعت على الاعتراف به رسمياً
(مرغمة) في معاهدة الحديبية .

فكان النبي الأعظم ﷺ بنجاحه في عقد هذا الصلح التاريخي
مع قريش قد انتزع منها هذا الاعتراف انتزاعاً ، الأمر الذي ما كانت
قريش لترغب فيه أو تتوقع حدوثه لولا صبر النبي ﷺ وجلده -
وتحليه بضبط النفس وقدرته الفذة على المناورة باتباعه إزاء قريش
في قضية الحديبية سياسة اللين في غير ضعف ، والشدة في غير
عنف .. بينما ركب سادات قريش رؤوسهم في هذه القضية ، فاتبعوا -
إزاء المسلمين - سياسة العناد والمكابرة والشدة والعنف والتهديد والوعيد
وأعلنوا أنهم سيشنون حرباً كاملة على المسلمين في الحديبية وأن يرجعوا من
حيث أتوا دونما قيد أو شرط ، وأن قريشاً لن تسمح لهم بدخول مكة في
أى وقت وتحت أى ظرف .. ثم تراجعت بل وتخاذلت وأرسلت
بوفدها إلى الحديبية ليوقع وثيقة هذا الصلح الذي ظنت قريش أنه

نصر لها ، بينما هو في الواقع قد تجسدت فيه هزيمة سياسية كبرى نزلت بقريش التي قبلت صاغرة مبدأ دخول المسلمين مكة وقيامهم بأداء العمرة التي حلفت قريش أنهم لن يؤتوها مهما كانت النتائج المترتبة على منعهم من أدائها .

٢ - تفهم المشركين لحقيقة الإسلام :

ومن المكاسب الكبرى التي جنته الدعوة الإسلامية أثناء المفاوضات في الحديبية هو أن تصرف المسلمين - وخاصة نبيهم العظيم - طيلة الأيام التي قضوها في الحديبية قد جعلتهم محل احترام وإكبار كل الزعماء . والسادة الذين بعثت بهم قريش كوسطاء لحل المشكلة القائمة بينها وبين المسلمين .

فقد كانت وسائل قريش الإعلامية تصوّر المسلمين بين العرب على أنهم دعاة حرب ومصاصي دماء معتدون . وأنهم لم يأتوا هذه المرة بهذا العدد الضخم إلا للمعدوان وسفك الدم الحرام داخل البلد الحرام . غير أنه سرعان ما ينكشف زيف هذه الدعاية القرشية الكاذبة وتأتي لقريش بعكس النتائج التي كانت قريش تسعى - من وراء هذه الدعاية الكاذبة - لتحقيقها .

فلا يأتي زعيم من حلفاء أو أصدقاء قريش - وسيطاً إلى الحديبية - إلا وهو يحمل في ذهنه عن المسلمين تلك الصورة المشوهة التي رسمتها الدعاية القرشية الكاذبة المغرضة

ولكن سرعان ما تنكشف له الحقيقة بمجرد أن يتصل بهؤلاء المسلمين فيعود إلى قريش وقد زالت من ذهنه عن المسلمين تلك الصورة

الخاطئة المعتمدة وتحل محلها صورة مشرقة مضيئة لهؤلاء المسلمين ، ترتسم في ذهنه من واقعهم المشرف الذي منه يتبين له أنهم ليسوا - كما تصورهم قريش - طلاب شر وإنما هم دعاة خير ليس من باعث لمجيئهم سوى تعظيم حرمان الله وزيارة بيته الحرام .

فيعود هؤلاء الوسطاء وهم يلقون بكل اللوم على قريش ويحملونها وحدها مسؤولية تعقيد الموقف وما قد ينتج عنه من صدام دام ، وذلك بعد أن يلمس هؤلاء الوسطاء بأنفسهم شرف المقصد وحسن النية الصادقة بين المسلمين ؛ كما حدث من الوسيط الثاني عروة بن مسعود الثقفي والوسيط الثالث الحليم بن زبآن .

وهذه كلها مكاسب أدبية وسياسية حصل عليها المسلمون نتيجة تصرفات نبيهم الحكيمة إزاء استفزازات قريش وتحدياتها الجاهلية ، وهي مكاسب إعلامية عظيمة ، ما كان المسلمون يحصلون عليها لولا التزام نبيهم العظيم سياسة الحلم وضبط النفس في هذه القضية المعقدة .

٣ - انشقاق معسكر الشرك :

ومن المكاسب التي صاحبت صلح الحديبية الانشقاق الخطير الذي حدث داخل معسكر الشرك بين قريش وحلفائها الذين لامها قادتهم من الوسطاء على عنادها ومكابرتها عندما وجهوا إليها اللوم وأسلموا إليها النصيح بأن لا تحول بين المسلمين وبين مباشرة حقهم الطبيعي في الطواف بالبيت بعد أن نقلوا إلى مسامع زعمائها أن المسلمين ليسوا مخطئين في إصرارهم على دخول مكة لأداء مناسك العمرة كغيرهم من فئات العرب الأخرى .

فقد رأينا فيما مضى كيف غضبت قريش على سيد الأحابيش (الحليس بن زبّان) وهو أقوى حليف لها عندما صارحها بالحقيقة وأنها تتصرف تصرفاً سيئاً عندما تحول بين المسلمين وبين الطواف بالبيت ، الأمر الذى - كما أشار الحليس - لا يمكن لأى عربى استساغته أو إقراره لأنه بغى وظلم ، ما سبق وأن أقدم على مثله أحد من سادوا أرض الحرم عبر العصور .

ورأينا كيف أن زعيم الأحابيش عندما جبهته قريش وسفّته رأيه ، عندما أسمعها كلمة الحق بشأن المسلمين - بعد أن لمس بنفسه نزاهة مقصدهم وسلامة موقفهم - هدد قريشاً بأنه سيلغى الحلف الذى بينه وبينها ، وينسحب برجاله من تجمعها إذا لم تصغ لصوت الحق فتخلّى بين المسلمين وبين البيت ليطوفوا به .

الأمر الذى أزعج قريشاً وجعلها تتوسل إلى حليفها القوى بأن - لا ينفذ تهديده حتى تجد لها مخرجاً من ورطتها ، بعد أن وعدته بأنّها ستسعى لإيجاد مخرج يكون فيه رضاه ويحفظ لها شيئاً من ماء وجهها ويضمن السماح للمسلمين بزيارة البيت الذى كان صدق قريش المسلمين عنه أساس المشكلة ومصدر غضب سيد الأحابيش .

وتهديد الحليس بن زبّان كان ثانى انشقاق خطير يواجهه التجمع الوثنى فى الحرم ، مما حمل سادات قريش على التفكير جدياً فى الرجوع إلى طريق الاعتدال والتخلّى عن سياسة العنجهية والحماقة والسفه . الأمر الذى وصل فى النهاية بقريش (مكرهة) إلى التوقيع على معاهدة هذا الصلح التاريخي .

انسحاب سيد ثقيف :

كذلك رأينا فيما مضى كيف انسحب سيد ثقيف وحليف قريش وصهرها (عروة بن مسعود) من التجمع الوثني ، بعد أن شجب تصرفات قريش القاضية بمنع المسلمين من زيارة البيت ، ووصف تصرف النبي ﷺ بالرشد والاعتدال حين لمس ذلك فيه عندما قابله في الحديبية يوم أرسلته قريش وسيطاً يفاوض النبي ﷺ ويقنعه بالعودة إلى المدينة .

فقد قال عروة بن مسعود لقريش : إن محمداً قد عرض عليكم خطة رشداً فاقبلوا ما عرض عليكم فإنني ناصح لكم ، ثم صارحهم بأنه يرجع أن تكون الهزيمة من نصيبهم إذا ما حاربوا النبي ﷺ قائلاً : (مع أنني أخاف أن لا تنصروا عليه) .

ولما أبت قريش أن تستجيب إلى نصح حليفها القوي الثاني (عروة) قال غاضباً ومحملهم مسؤولية هذا العناد : (ما أراكم إلا ستصيبكم قارعة يامعشر قريش) أي بسبب محاولتكم منع المسلمين من زيارة البيت .. ثم ترك التجمع الوثني وانصرف بقومه إلى الطائف .

وما لا جدال فيه أن هذا الانشقاق الخطير الذي حدث في معسكر الشرك هو من المكاسب التي جناها المسلمون في هذا الصلح .. فهذا - الانشقاق كان عاملاً ضعفاً في جانب القرشيين بقدر ما كان عاملاً تقوية وتدعيم لمركز المسلمين .. الأمر الذي حدا بقريش بل أجبرها - على أن تقبل مبدأ الاعتراف بحق المسلمين في الطواف بالبيت ، بل وتوقع على الاعتراف بهذا الحق في وثيقة صلح الحديبية الذي أثبتت الأحداث - فيما بعد - أنه من أعظم الانتصارات التي حققها الإسلام على الشرك والمشركين .

٤ - تأثير المشركين بواقع المسلمين :

ولعل من أكبر المكاسب التي جناها الاسلام والمسلمون من صلح الحديبية . هو أن هذا الصلح قد أتاح الفرصة للمسلمين والمشركين على السواء بأن يختلطوا بعضهم ببعض .

ولقد كان من نتيجة ذلك الاختلاط الذي حدث بعد أن أمن الناس بعضهم بعضاً - نتيجة هذا الصلح - أن عرف المشركون المسلمين على حقيقتهم والاسلام كما هو .. لا كما كانت تصوّره لهم أبواق الوثنية المغرضة في مكة .

وقد تأثر كثير من عقلاء المشركين بواقع المسلمين المشرف الذي لمسوه وشهدوه عن كثب .. تأثر كثير من هؤلاء العقلاء الوثنيين تأثراً بالغاً ... حتى أنه لم تمض على صلح الحديبية - الذي أتاح للفريقين بأن يختلط بعضهم ببعض آمناً - بضعة عشر شهراً حتى دخل في الاسلام من الوثنيين وخجاسة القرشيين أكثر من الذين دانوا بالاسلام خلال خمس عشرة سنة .

ويكفي للتدليل على صحة هذا الرأي ، هو أن عدد المسلمين يوم أبرم صلح الحديبية لم يزد على ألفين - في أكبر تقدير - .. بينما بلغ عددهم في السنة الثامنة - وقبل فتح مكة بقليل - أكثر من عشرة آلاف

صلح الحديبية هو الفتح العظيم :

وقد دخل أكثر هؤلاء في الإسلام بفضل الله ثم بفضل ما أتاحه صلح الحديبية خلال سنتين من اختلاط وتعارف ومناقشة ومفاوضة

حرة بين الفريقين .. ولهذا أطلق فيما بعد على هذا الصلح اسم الفتح العظيم .

قال ابن إسحاق ، عن الزهري : ما فتح في الإسلام فتح قبل صلح الحديبية كان أعظم منه .. إنما كان القتال حيث التقى الناس ، فلما كانت الهدنة هدنة الحديبية « ووضعت الحرب وأمن الناس بعضهم بعضاً ، والتقوا فتفاوضوا في الحديث والمنازعة ، فلم يكلم أحد بالإسلام يعقل شيئاً إلا دخل فيه .. ولقد دخل في تينك السنتين مثل من كان في الإسلام قبل ذلك أو أكثر ^(١) .

فقد أتاح هذا الاختلاط والتعارف للمشركين ، أن يروا هذا الجيل - جيل الإسلام - على حقيقته .

فقد دهش المشركون لهذا التحول السريع العجيب في المسلمين الذين تحولوا من كل شيء - كانوا عليه أيام شركهم - إلى ضده .

لقد كانوا - قبل أيام قليلة - مثل هؤلاء المشركين : تحكمهم الفوضى وتستبد بهم رغبات الجسد . عبدة أصنام .. منتهكى حرمت .. مرتكبي جرائم ، لا فرق بينهم وبين الحيوان السائم .

ولكنهم اليوم أصبحوا يتفوقون عليهم في كل شيء .. يتفوقون عليهم في الصدق والوفاء والطاعة والتقيد بالنظام ، وبالجملة أصبحوا خلقاً جديداً يتحلون بفضائل ومحاسن ما كان للمجتمع القرشي بها من عهد .. كانت محل دهشة هؤلاء المشركين القرشيين وتساؤلهم !! . ترى ما هو السر الذي قفز بهؤلاء المسلمين إلى هذه المنزلة الرفيعة

(١) سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٣٢٢ .

من السمو الإنساني التي جعلتهم محلّ احترام وإكبار ، حتى هؤلاء الذين خرجوا من مكة لقتالهم ومنعهم من دخول مكة بحدّ السيف ؟ .

سؤال كبير ظل يجول - في إلحاح - بخاطر عقلاء قريش منذ أتاح صلح الحديبية الاختلاط بهؤلاء المسلمين ، ولمسوا فيهم ذلك التبدّل المذهل الذي جعل منهم أرقى مثل حيّ للإنسان الكامل الذي لا يعرف السير إلا في طريق الخير .

لقد كان القرشيون خاصة - لكثرة دعايات ساداتهم المضلّة - لا ينظرون إلى أصحاب محمد إلّا كما ينظرون إلى الحيوان الضار الذي لا يستحق الحياة وتلك الصورة المشوهة التي ترسمها للمسلمين في أذهان هؤلاء القرشيين أبواق دعاية سادات دار الندوة في مكة .

ولكن ها هي الحقيقة تنسخ تلك الصورة المختلقة المشوهة ، وتحل محلها الصورة الحقيقية المشرقة لهؤلاء المسلمين الذين لا يكاد أحدهم يفارق دين الوثنية ويعتنق الإسلام حتى يتبدّل فيه كل شيء : أخلاقه .. سلوكه .. نفسيته .. الأمر الذي كان مصدر الدهشة والتساؤل لدى عامة المشركين الذين أتاح لهم صلح الحديبية الاختلاط بهؤلاء المسلمين ومعرفتهم على حقيقتهم .

رأى سيد ثقيف في المسلمين :

ولقد أفصح الكثير من أتيح لهم الاختلاط بهؤلاء المسلمين أثناء مفاوضة صلح الحديبية وطيلة أيام الهدنة .. أفصحوا عن هذه الدهشة لذلك التغيّر المذهل السريع الذي يحدثه الإسلام في نفوس معتنقيه ،

وعلى تلك الصورة من الوضاعة والإشراق . وحتى الذين كانوا بالأمس
سفاكي دماء وقطّاع طرق .. بمجرد أن لامس هدى الإسلام قلوبهم ،
قفزوا إلى أعلى درجات السمو الإنساني والانضباط الأخلاقي المستقيم .
فهذا المغيرة بن شعبه (مثلاً) كان شاباً صعلوكاً طائشاً فاتكاً من
قطّاع الطرق ، لا يرعوى - قبل اعتناقه الإسلام - عن قتل أو سلب
أو نهب .. تعرف ذلك عنه قبائل ثقيف كلها أيام كان على دين الوثنية .
وآخر جرائمه الجاهلية البشعة إقدامه - قبل أن يعتنق الإسلام
بأيام قلائل - على قتل إثني عشر رجلاً من بني مالك غدرًا ، وكانوا
زملاء له في رحلة كانوا فيها عائدين من مصر .

هذا الشاب الذي كان (أيام شركه) رمزاً للطيش والتهور والوحشية
وقطع الطريق ، رآه وسيط قريش في قضية الحديبية واقفاً على رأس
النبي ﷺ يحرسه أميناً على حياته بل مسؤولاً عن حمايته ، بعد أن
حوّله الإسلام من وحش كاسر إلى إنسان مضبوط السلوك يشعر بالمسؤولية
وعلى المستوى الرفيع من الشهامة والتبيل والتقيد بأوامر قائده الأعلى
النبي ﷺ .

لقد غير الإسلام فيه كل شيء كان يعرف به في الجاهلية .
وكم كانت دهشة زعيم ثقيف أن يكون ابن أخيه ذلك الفاتك
القاطع للطريق في الماضي ، أميناً على حياة نبي المسلمين .
وليس تغير أحوال ابن أخيه مثار دهشته ومبعث تساؤله فحسب ،
بل إن اختلاط سيد ثقيف بالمسلمين ، والذي أتاحته له سفارته لقريش
إلى النبي ﷺ في الحديبية ، قد مكّنه من الإلمام بأمور كثيرة عن
أحوال المسلمين كانت محل دهشته واستغرابه أيضاً ، وكان لها الأثر

الكبير العميق في نفسه . مما جعله في النهاية يدخل في الإسلام ويموت شهيداً وهو يدعو قومه ثقيفاً في الطائف إلى الإسلام .

مصارحة قريش :

ولقد كان من مكاسب صلح الحديبية أن تأثر عروة بن مسعود بواقع المسلمين المدهش الذي أحاط به أثناء تفاوضه مع النبي ﷺ كسفير لقريش .. فقد عاد إلى حلفائه القرشيين من الحديبية وهو يحمل الانطباع الصحيح عن المسلمين .

ولم يخف عن حلفائه القرشيين هذا الانطباع المدهش . بل - صارحهم بالتغيير الخطير والتحول المدهش الذي لحظه يحدث في حياة وسلوك كل من يدخل في الإسلام ، ولقت نظر القرشيين (بكل صراحة) إلى التطورات التي قد تحدث في غير صالحهم وتشهدها المنطقة نتيجة هذا التغيير الكامل الذي يحمله الإسلام معه إلى نفس كل إنسان يدين به ويتبع نبيّه .

فقد قال لسادات مكة - عندما عاد من الحديبية - : يا معشر قريش إني قد جئت كسرى في ملكه وقيصر في ملكه والنجاشي في ملكه . وإني والله ما رأيت ملكاً في قوم قط ، مثل محمد في أصحابه ، ولقد رأيت قوماً لا يسلمونه لشيء ، أبداً فرأوا رأيكم .

وما لا شك فيه أنَّ الانطباعات الصحيحة التي نقلها عن المسلمين عروة بن مسعود - بكل صدق وأمانة - إلى حلفائه من سادات مكة ، كان لها أثرها البالغ في نفوس الكثير منهم .

من مكاسب الصلح : اختصار الإسلام في النفوس :

ولم يكن الزعماء والوسطاء وغيرهم من المشركين الذين أناحت لهم قضية الحديبية - وبالتالي عقد الصلح - الاختلاط بالمسلمين ومعرفتهم على حقيقتهم ، أقل تأثراً من عروة بن مسعود بما لمسوا وشاهدوا من واقع المسلمين الحيّ المدهش ، الذي انعقدت له ألسنتهم دهشة وإعجاباً .

لقد كان من طبيعة العرب الصراحة واستقباح الكذب - حتى وإن كانوا مشركين .. ولهذا فقد نقل المشركون الذين زاروا المسلمين في الحديبية واختلطوا بهم وعاملوهم بعد إبرام الصلح .. نقلوا إلى الجمهور القرشي كامل انطباعاتهم عن حالة المسلمين ومجتمعهم الجديد ، والذي بُنى على أساس من التوحيد والذي رأوا فيه نموذجاً حياً للخير والصفاء والمحبة والتسامح والتآلف والتكاتف وضبط هذا الدين الجديد لسلوكهم .

وأشد ما أدهشهم ذلك الضبط الإداري العجيب ، الذي يلتزمه المسلمون كجزء أساسي من تعاليم الدين الجديد .. هذا الضبط الذي بالتزامه خلعوا من نفوسهم عنجهية الجاهلية البغيضة ، وعصبية القبيلة الضيقة المقيتة ، التي طالما كانت الاستجابة العاطفية لنزواتها سبباً في إثارة حروب ظلمة تأكل الأخضر واليابس .

لقد حلّ محل كل تلك الفوضى الجاهلية انضباط إسلامي رائع عجيب مدهش ، تكفى لتنفيذه والتقيد به كلمة هادئة تصدر من محمد ابن عبد الله ، النبي الذي آمن وصدق به هؤلاء المسلمون واتبعوه - طائعين مختارين .

نموذجاً حياً للانضباط الإسلامى :

ولعل أروع مثال حتى للانضباط الإسلامى وكبت المسلمين لعواطفهم تقيداً بهذا الانضباط والذي شاهده بعض سادات قريش فى الحديبية فأخذوا به ، ودهشوا له ، يتمثل فى قصة أبى جندل بن سهيل بن عمرو - الذى كان أشد الناس تأثراً - فى أعماق نفسه - بهذا الانضباط .

فقد رأى سهيل بن عمرو وبقية أعضاء الوفد القرشى فى المفاوضة . رأوا كيف تفجر الغضب فى نفوس المسلمين ، وهاجت عواطفهم عندما رأوا سهيل بن عمرو هذا يأخذ بتلابيب ابنه المسلم ويلطمه على وجهه ، ليرده إلى قريش المشركة وهو مسلم جاء يرسف فى قيوده ملتجئاً إلى المسلمين فى الحديبية ، لينقذوه ويحموه من إرهاب أهله الوثنيين وتعذيبهم .. رأى سهيل بن عمرو وبقية أعضاء وفده وكل من كان حاضراً من المشركين .. رأوا أن كلمة واحدة هادئة قالها نبيهم ﷺ قد جعلتهم يكظمون غيظهم ويلجمون عواطفهم الشائرة .. نعم كلمة هادئة واحدة قالها محمد بن عبد الله ﷺ لأبى جندل :

«إنا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحاً ، وأعطيناهم على ذلك وأعطونا عهد الله ، وإننا لا نغدر بهم » .

هذه الكلمة الهادئة التى قالها النبي ﷺ لأبى جندل عندما طلب حق اللجوء إلى المسلمين ، رأى سهيل بن عمرو وباقي أعضاء وفده من المشركين كيف قيدت ألفاً وأربعمائة من أصحاب النبي ﷺ إذ رأوا جميعهم أن العهد الذى أعطاه نبيهم فى وثيقة الصلح لا يسمح لهم بأن يتخذوا أى إجراء يحول بين سهيل بن عمرو المشرك ، وبين استلام ابنه المسلم ، فلم يحركوا ساكناً لحماية أبى جندل ، مع -

ما يغتلم في نفوسهم من غيظ وحنق على المشركين . وعلى سهيل بن عمرو بالذات ، وبالرغم من قدرتهم الكاملة على حماية أبي جندل الذي لم يستطيعوا أن يصنعوا له شيئاً سوى تشييعه بالدموع وهو يغادر معسكرهم وأبوه يأخذ بتلابيبه ويلطم وجهه في وحشية المشرك الغليظ الفظ .

لأن تلك الكلمة النبوية الهادئة التي أسمعها النبي ﷺ أبا جندل - وهو يوصيه بالصبر - قد جعلت هؤلاء المسلمين حدوداً يقفون عندها في تصرفاتهم إزاء مأساة أخيه في الإسلام أبي جندل .

فقد اعتبروا تلك الكلمة النبوية الهادئة بمثابة أمر لهم بأن لا يتخطوا في مساعدتهم أخاهم في الإسلام أبا جندل حدود المواصلة بالتشجيع والحث على الصبر والثبات حتى يكشف الله عنه الغمة ويجعل له مخرجاً . ولقد وقفوا - بالفعل - عند هذا الحد نزولاً عند رغبة قائدهم ونبيهم الذي حرص كل الحرص على أن يقوم المسلمون بتطبيق معاهدة ذلك الصلح نصاً وروحاً .

كل هذه الانطباعات المشرقة المدهشة عن المسلمين ومجتمعهم الجديد ، قد نقلها حاضرو صلح الحديبية من أعضاء الوفد القرشي وغيرهم إلى الجماهير القرشية في مكة ، وإلى جيران مكة من كنانة وخزاعة كما هي ، فثأثروا بها غاية التأثير .

وازداد ذلك السؤال الكبير إلحاحاً في نفوس العقلاء من قريش وجيران الحرم .. ترى ما هو السر في هذا كله ؟؟ .

وما هو التفسير الحقيقي لقيام هذا المجتمع المتناسك المتحد الفاضل الذي قوامه هؤلاء الأصحاب من أتباع محمد ﷺ الذين تطلق عليهم أبواق

الدعاية القرشية - تبغيضاً فيهم وتحقيراً لشأنهم - اسم الصباة ؟ .
هذا المجتمع الذى لا يسمع أى عاقل - مهما كان مذهبه وعقيدته - إلا
أن يجلّ أعضائه ويحترمهم ، بل ويود أن يكون أحد أفراد هذا المجتمع
العظيم ؟؟ .

وعلى ضوء البحث الحر والمقارنة النزيهة ، وجد العقلاء من مشركى
مكة وغيرهم ، الجواب الصحيح على هذا السؤال الكبير ، وتوصلوا إلى
التفسير الصحيح لسبب قيام هذا المجتمع الفاضل المتكامل .

وهو أن الإسلام ، ولاشئ سوى الإسلام ، هو الذى أقام هذا المجتمع
وضار الالتزام بتعاليمه والقيام بتكاليفه ، مصدر كل ما يتحلى به
أفراد هذا المجتمع المحمدى من فضائل الاستقامة وضبط السلوك وسمو
الأخلاق وانتظام الشمل واتحاد الكلمة .

وهنا ، واقتناعاً بهذا التفسير الصحيح - والنبي ﷺ لما يزل في
طريقه من الحديبية إلى المدينة - تأثر ذوو العقول الكبيرة من سادات
مكة بما نقل إليهم من انطباعات صحيحة عن هذا المجتمع الإسلامى
الفاضل الجديد .. فاختمت في نفوس هؤلاء العقلاء فكرة الدخول في
الإسلام والانخراط في سلك الأسرة الإسلامية التى كان حسن بنائها
وفضائل شمائل أفرادها - التى شهد بها العائدون إلى مكة من شاهدى
صلح الحديبية - حديث مكة كلها .

وظل هؤلاء العقلاء القرشيون ينتظرون الفرصة السانحة لإعلان
دخولهم في الإسلام وانضمامهم إلى هذا المجتمع الإسلامى الفاضل ، الذى
لم يغادر أفراده الحديبية إلا بعد أن تركوا عنهم الانطباعات الخيرة

التي فعلت في نفوس عقلاء المشركين من قرشيين وغيرهم ما يشبه
فعل السحر .

وكان من الزعماء والقادة الذين تأثروا بواقع المسلمين الحيّ المشرف
في الحديبية . فاختمرت في نفوسهم فكرة اعتناق الإسلام .. خالد بن
الوليد ، وعمرو بن العاص ، وعثمان بن طلحة .

فلم تمر سنة واحدة على أحداث الحديبية المشيرة حتى وقف فارس
قريش وقائد أعنة خيلها خالد بن الوليد - الذي خرج أيام أزمة
الحديبية يقود المئات من فرسان قريش لمنع المسلمين من دخول الحرم
أو إبادتهم - رقف على الصفا وصك بها قريشاً صك الجندل حيث
صارحهم بأن محمداً ﷺ حامل رسالة صدق وصاحب دعوة حق . وأن
على كل ذي عقل مستنير أن يتبعه .

فقد صاح خالد بأعلى صوته : يامعشر قريش ، لقد استبان لكل
ذی لب أن محمداً ﷺ ليس بساحر ولا كذاب . وأن على كل ذي
عقل أن يتبعه .

ثم أخذ سلاحه وركب فرسه واتجه نحو المدينة ليعلن إسلامه
يرافقه أصحابه وصديقه عثمان بن طلحة العبدري وعمرو بن العاص
السهمي اللذين كانا على رأيه .

وهكذا كان صلح الحديبية - وما صاحبه من أحداث ، وترتب
عليه من أمور - مشار إحساسات عميقة . وتحريك مشاعر بعيدة الأغوار
في نفوس العقلاء ممن كانوا على الشرك . فقادتهم هذه الإحساسات إلى
الإسلام فدخلوا فيه ... وليس بعيداً عن الحقيقة .. بل هو عينها - ،

ذلك القول : إن صلح الحديبية من أعظم الانتصارات ذات الأثر البعيد
الفعال في توطيد دعائم الإسلام وبناء دولته ^(١)

(١) قال الإمام ابن القيم في كتابه زاد المعاد (ج ٢ ص ٣١٨) - يصف بعض مكاسب صلح الحديبية - : « فصل في الإشارة إلى بعض الحكم التي تضمنتها هذه الهدنة » .

وهي أكبر وأجل من أن يحيط بها إلا الله الذي أحكم أسبابها ، فوقعت الغاية على الوجه الذي اقتضته حكمته وحمده .

فمنها : أنها كانت مقدمة بين يدي الفتح الأعظم ، الذي أعز الله به رسوله وجنده ، ودخل الناس به في دين الله أفواجا فكانت هذه الهدنة باباً له ومفتاحاً ومؤذناً بين يديه ، وهذه عادة الله في الأمور العظام التي يقضيها قديراً وشرعاً أن يوطئ لها بين يديها بمقدمات وتوطيئات تؤذن بها وتدل عليها .

ومنها : أن هذه الهدنة كانت من أعظم الفتوح ، فإن الناس آمن بعضهم بعضاً ، واختلط المسلمون بالكفار ، ونادوهم بالدعوة وأسمعوهم القرآن ، وناظروهم على الإسلام جهرة آمين . وظهر من كان مختفياً بالإسلام ، ودخل في مدة الهدنة من شاء الله أن يدخل . ولهذا سماه الله فتحاً مبيناً . قال ابن قتيبة : قضينا لك قضاء عظيماً . وقال مجاهد : هو ما قضى الله له بالحديبية .

وحقيقة هذا الأمر : أن الفتح في اللغة : هو فتح الملقق . والصلح الذي حصل مع المشركين بالحديبية كان بابه مسلوذاً مغلقاً حتى فتحه الله ، وكان من أسباب فتحه صد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه عن البيت ، وكان في الصورة الظاهرة : ضيماً وهضماً للمسلمين ، وفي الباطن : عزاً وفتحاً ونصراً . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم ينظر إلى ما وراءه من الفتح العظيم ، والعز والنصر ، من وراء ستر رقيق ، وكان يعطى المشركين كل ما سألوه من الشروط التي لم يحتملها أكثر الصحابة ورؤوسهم ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يعلم ما في ضمن هذا المكروه من محبوب ، وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم .

وربما كان مكروه النفوس إلى محبوبها ، ما مثله سبب

فدخل على تلك الشروط دخول واثق بنصر الله له وتأنيده ، وأن العاقبة له ، وأن تلك الشروط واحتمالها : هو عين النصر ، وهو من أكبر الجند الذي أقامه المشركون ونصبوه لحربهم ، وهم لا يشعرون . فذلوا من حيث طلبوا العزة ، وقهروا من حيث أظهروا القدرة والفخر والغلبة . وعز رسول الله صلى الله عليه وسلم وعساكر الإسلام =

التفرغ ليهود خيبر والشمال :

كذلك من مكاسب صلح الحديبية - بل ولعله من أهم هذه المكاسب السياسية - هو تفرغ النبي ﷺ لتصفية الحساب عسكرياً مع يهود خيبر الذين يعتبرون (بحق) أخطر عنصر محارب عدو للمسلمين في جزيرة العرب .

فقد كانت تقيع في خيبر (قبل صلح الحديبية) أشد العناصر اليهودية حقداً على النبي ﷺ تدعمها عشرة آلاف مقاتل من اليهود ، لديهم جميعاً الرغبة الشديدة الملحة في الانقضاض على المسلمين ومحوهم من الوجود .

= من حيث أنكروا الله ، واحتملوا الضيم له وفيه . فدار الدور وانعكس الأمر ، وانقلب العز بالباطل ذلاً بحق . وانقلبت الكسرة لله عزاً بالله ، وظهرت حكمة الله وآياته ، وتصديق وعده ، ونصرة رسوله على أتم الوجوه وأكملها التي لا اقتراح للعقول وراءها . ومنها : ما سببه الله سبحانه للمؤمنين من زيادة الإيمان والإذعان ، والانقياد على ما أحبوا وكرهوا ، وما حصل لهم في ذلك من الرضاء بقضاء الله وتصديق موعوده ، وانتظار ما وعدوا به ، وشهود منة الله ونعمته عليهم بالسكينة التي أنزلها في قلوبهم أحوج ما كانوا إليها ، في تلك الحال التي ترزعزع لها الجبال ، فأنزل الله عليهم من سكينته ما اطمأنت به قلوبهم ، وقويت به نفوسهم ، وازدادوا به إيماناً .

ومنها : أنه سبحانه جعل هذا الحكم الذي حكم به لرسوله وللمؤمنين سبباً لما ذكره من المغفرة لرسوله ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، وإتمام نعمته عليه وهدايته إلى الصراط المستقيم ، ونصره النصر العزيز ورضاه به ، ودخوله تحته ، وانشراح صدره به ، مع ما فيه من الضيم ، وإعطاء ما سأله كان من الأسباب التي نال بها الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه ذلك . ولهذا ذكر الله سبحانه جزاء وغاية . وإنما يكون ذلك على فعل قام بالرسول والمؤمنين عند حكمه تعالى وفتح .

وتأمل كيف وصف سبحانه النصر بأنه (عزيزاً) في هذا الموطن ؟ ثم ذكر إنزال السكينة في قلوب المؤمنين في هذا الموطن الذي اضطربت فيه التلوب ، وقلقت أشد اللقلق ، فهي أحوج ما كانت إلى السكينة ، فازدادوا بها إيماناً إلى إيمانهم . ا.هـ .

الأمر الذى يحتم على المسلمين العمل بحزم على إزالة هذا الخطر اليهودى الذى يهدد وجودهم بالزوال وذلك يستدعى نقل المعركة إلى عقر دار اليهود فى خيبر لإنهاء الوجود اليهودى فى الجزيرة كلها .

وهو ما حدث بالفعل فى غزوة خيبر ، التى هى موضوع كتابنا السادس (من سلسلة معارك الإسلام الفاصلة) وهو الكتاب التالى لكتابنا الخامس هذا .

فقد زحف النبى ﷺ بألف وأربعمئة مقاتل نحو خيبر . ونقل المعركة إلى عقر دار اليهود ، مسافة خمسة أيام تقريباً ، وفى هذه المعركة قضى على الوجود اليهودى الدخيل الذى كانت تدافع عنه أقوى قوة ضاربة فى جزيرة العرب .

وحسب مقياس العلوم العسكرية - ما كان النبى ﷺ - ليتمكن من نقل المعركة خارج المدينة مسافة خمسة أيام ليصار على امتداد هذه المسافة عشرة آلاف مقاتل من اليهود ودون أن يترك أية قوة حربية لحراسة المدينة ، لولا أنه - فى ظل صالح الحديبية - قد أمّن جانب أعظم خصم وألد عدوّ تقليدى هو (قريش) التى لم تكن أقل رغبة من اليهود فى القضاء على الكيان الإسلامى والتى تدعمها قوة حربية لا تقل عن ثمانية آلاف مقاتل .

فبالرغم من أن قريشاً كانت بعواطفها ومشاعرها مع يهود خيبر تتمنى لهم النصر على المسلمين ، إلا أن إبراهيم صلح الحديبية مع المسلمين قد ألزمها بأن تقف موقف الحياد من القتال الذى ظل يدور بين المسلمين واليهود فى خيبر والشمال حوالى شهرين اثنين حتى انتهى بانتصار

المسلمين الساحق على العناصر اليهودية جميعاً في خيبر ووادي القرى
وفدك وتيماء وكل مناطق الشمال .

ومن هنا صح (يقيناً) القول : إن تفرغ القوات الإسلامية الكامل
الذي مكّنها من أن ترمي بكامل ثقلها لمحاربة اليهود في خيبر والشمال .
والتغلب عليهم ، هو من المكاسب والثمرات السياسية العظيمة التي
جناها المسلمون نتيجة إبرامهم الصلح مع مشركي قريش وحلفائها
الكنانيين في الحديبية .

نقل المعركة إلى الشام :

كذلك تمكن النبي ﷺ - في ظل صلح الحديبية - من أن يقوم
بأول وأعظم حملة عسكرية في حياته خارج حدود الجزيرة العربية .
لإشعار الإمبراطورية البيزنطية بقدرة المسلمين العسكرية ، التي ما كانت
هذه الإمبراطورية تحسب لها حساباً قبل أن تجتاز حدود الشام وتتوغل
مسافة ثمانين ميلاً داخل الأراضي الرومانية في منطقة الأردن .

ففي خلال الهدنة بين المسلمين وقريش ، جهّز النبي ﷺ حملة
عسكرية قوامها ثلاثة آلاف مقاتل - وهي أعظم جيش تمّ حشده في
العهد النبوي حتى ذلك الوقت - .. وأمر النبي ﷺ هذا الجيش بأن
يطأ بلاد الروم في الشام ويتوغل فيها ما أمكنه التوغل .

فتوغل الجيش النبوي حتى وصل إلى قرية يقال لها (مؤتة) .
وهناك دارت أعنف وأول معركة بين المسلمين والجيوش الرومانية ، وقد
سميت هذه المعركة الخالدة باسم هذه القرية

لم ينتصر المسلمون عسكرياً في هذه المعركة الطاحنة .. ولكنهم حققوا انتصارات معنوية وسياسية عظيمة ، بها صححوا ما كان مرتسماً في أذهان قادة الجيوش الرومانية من فهم خاطئ عن حقيقة الجندى الإسلامى . حيث أذهلت شجاعة وبسالة هذا الجندى قادة الرومان - وجعلتهم يزيلون من أذهانهم - وإلى الأبد - الفكرة المخاطئة المرتسمة عن قصور وضعف الجندى المسلم .

حيث صمد في هذه المعركة ثلاثة آلاف جندى من المسلمين في وجه ألف مقاتل من الرومان ، وتمكنوا من الانسحاب بانتظام ودونما أى فوضى أو اضطراب ، بعد أن فقدوا قادتهم الثلاثة وأنزلوا بالجيوش الرومانية أفدح الخسائر .. الأمر الذى أربع الرومان وجعلهم يعدلون عن غزو الجزيرة العربية ، بعد أن كان هذا الغزو مقرراً لقيام لدى القيادة الرومانية في دمشق .

دعوة ملوك الشرق الأوسط إلى الإسلام :

كما أن قيام الهدنة الحديبية مكّن النبي ﷺ من التفرّع للعمل على إيصال دعوته - بطريق رسمى - إلى خارج حدود جزيرة العرب . حيث قام في فترة الهدنة بالاتصال بملوك وأمراء الشرق الأوسط ودعوتهم إلى الدخول في الإسلام . وذلك عن طريق رسائل خاصة بعث بها إليهم في السنة السابعة من الهجرة حيث بعث إلى كل ملك أو أمير واحداً من أصحابه برسالة يدعوه فيها وشعبه إلى الدخول في الإسلام .. وقد كان لهذه الرسائل آثارها المختلفة في الأقطار التي تلقى ملوكها

أو أمراؤها هذه الرسائل : ورغم اختلاف تأثير هذه الرسائل ، فقد كان وصولها وانتشار خبرها بين الشعوب لصالح الدعوة الإسلامية دونما شك.

ثوار العيص ، وحكومة المستضعفين في الساحل :

في حديثنا عن قضية الحديبية أشرنا إلى أن هناك الكثير من الشباب المسلم يعانون أشد أنواع الإذلال والتعذيب والإرهاب في سجون أهاليهم بمكة ومنهم أبو جندل بن سهيل بن عمرو صاحب القصة المشهورة في الحديبية .

وكان النبي ﷺ - كما أشرنا في معالجتنا لقضية الحديبية - قد تعهد لقريش في المعاهدة بأن يمتنع عن إعطاء حق اللجوء لمن جاء إليه من أبناء مكة وأن يردده ولا يسمح له بالإقامة في المدينة حتى وإن كان مسلماً ، وهو الشرط الذي أملاه سهيل بن عمرو فقبله النبي ﷺ وتضايق المسلمون من قبوله أشد التضايق .

ولم يكن حادث أبي جندل ومأساته في الحديبية الامتحان الأول الذي اجتازه المسلمون فوفوا بالعهد حين أعادوا أبا جندل المسلم إلى أبيه المشرك تنفيذاً لبنود المعاهدة كما تقدم .

ثورة المستضعفين ضد قريش :

من آثار صالح الحديبية العائدة على الجانب الإسلامي بأعظم المكاسب ، وعلى الجانب القرشي بأشد الأضرار . هو أن مندوب قريش في معاهدة الصلح سهيل بن عمرو العامري أملى - أثناء المفاوضة -

شرطاً قاسياً قبل به النبي ﷺ وكان مثار معارضة شديدة بين جماهير أصحابه في الحديبية .. وهو أن يتعهد النبي ﷺ بأن يعيد إلى قريش من أبنائها إليها كل من جاء إلى المسلمين بغير إذن أهله .. يعيده إلى المشركين حتى ولو كان مسلماً .

العمل بهذا الشرط الذي أمّنته قريش سبب لها أعظم النكبات وأفدح الخسائر إلى درجة اضطرت قريش معها إلى أن تلجأ إلى النبي ﷺ وتناشده الرحم بأن يقبل بإسقاط هذا الشرط من بتود المعاهدة فيقبل كل من جاءه من أبناء قريش ولا يرده .

وذلك بعد أن تسبب قيام النبي ﷺ بتنفيذ هذا الشرط في التجاء أبناء قريش المسلمين المتمردين عليها والفارين من سجونها إلى منطقة العيص في الساحل ، حيث تجمع منهم ومن أبناء القبائل الأخرى ثلاثمائة مقاتل ، قاموا بالثورة ضد مشركي قريش . وصاروا - بقيادة أبي بصير - يهاجمون القوافل التجارية العائدة لها . والتي تحمل السلع دائماً من الشام إلى مكة . ويقومون بقتل الذين يصاحبون هذه القوافل من القرشيين .

الأمر الذي أنزل بقريش أفدح الخسائر في الأموال والأرواح ... ولما كان هؤلاء الثوار المسلمون هم - بحكم رابطة العقيدة - مواليين للنبي وأصحابه في المدينة . ولا يستطيع السماح لهم بالإقامة فيه . تنفيذاً لذلك الشرط الذي أمّنته قريش وأدرج ضمن بنود المعاهدة .. فقد لجأت قريش إلى النبي ﷺ وبعثت إليه تناشده الرحم أن يطلب من ثوار العيص المسلمين إنهاء ثورتهم ضد قريش ، ويسمح لهم ولكل

من جاءه من أبناء قريش باستيطان المدينة .. وذلك لتنجو قوافل قريش التجارية - والتجارة عمود قريش الفقري - من هجمات هؤلاء الثوار الشباب .

وقد استجاب النبي ﷺ لرجاء قومه - بالرغم من كونهم مشركين - وبعث إلى قائد الثوار أبي بصير ونائبه أبي جندل بأن يقدموا وإخوانهم الثوار إلى المدينة ويتركوا مواقعهم في العيص ، فاستجاب الثوار لأوامر النبي ﷺ وعادوا إلى المدينة .. كما سيأتي تفصيله في كتابنا السابع من هذه السلسلة قريباً إن شاء الله .

أهم مراجع هذا الكتاب

اسم المؤلف	اسم الكتاب
ابن كثير	تفسير ابن كثير
محمد بن علي الشوكاني	فتح القدير (تفسير)
سيد قطب	في ظلال القرآن (تفسير)
الزمخشري	الكشاف
البخاري	صحيح البخاري
مسلم	صحيح مسلم
ابن القيم	زاد المعاد
الدكتور جواد علي	تاريخ العرب قبل الإسلام
محمد بن إسحاق	سيرة ابن هشام
أبو الفرج الأصبهاني	الأغانى
أبو حيان اللطو حيدى	الصدقة والصديق
أحمد بن علي القلقشندي	صبح الأعشى
ابن قدامة	المغنى في الفقه
علاء الدين المرداوى	الإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف
منصور بن يونس البهوتي	كشاف القناع
محمد قطب	شبهات حول الإسلام
محمد بن محمد بن سليمان	جمع الفوائد
ابن الجوزي	زاد المسلم (تفسير)
خليل مصطفى	سقوط الجولان
الشيخ مصطفى السيوط الرحياني	غاية المنتهى
محمد بن جابر الطبري	الطبرى (تاريخ)
الدكتور سموحي فوق العادة	القانون الدولي العام
الدكتور موتجمرى وات	محمد نبى ورجل دولة
عباس محمود العقاد	حقائق الإسلام وأباطيل خصومه

اسم الكتاب

ما يقال عن الإسلام

فقه السنة

الرسول القائد

تفسير الإمام محمد عبده

حياء محمد ورسائله

السيرة الحلبية

فقه السيرة

سمط النجوم العوالى

البداية والنهاية

الكامل فى التاريخ

جوامع السيرة

آثار المدينة

وفاء الوفاء

دائرة معارف القرن الرابع عشر - العشرين

لسان العرب

نيل الأوطار

اليهود فى القرآن

الطبقات الكبرى

معجم البلدان

مرصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع

معجم النساء

الأعلام

ديوان الحماسة

العرب قبل الإسلام

الأبطال

حضارة العرب

التشريع الجنائى فى الإسلام

الإصابة

الاستيعاب

أيام العرب فى الإسلام

اسم المؤلف

عباس محمود العقاد

السيد سابق

اللواء الركن محمود شيت خطاب

السيد رشيد رضا

مولانا محمد على

ابن برهان الدين

محمد الغزالى

عبد الملك بن حسين العصافى

إسماعيل بن كثير

محمد بن الأثير

على بن حزم

عبد القدوس الأنصارى

على بن أحمد السهمودى

محمد فريد وجدى

ابن منظور الإفريقى المصرى

محمد بن على الشوكانى

عفيف عبد الفتاح طيارة

ابن سعد

ياقوت الحموى

صنى الدين عبد المؤمن بن عبد الحق

عمر رضا كحالة

خير الدين الزركلى

أبو تمام الطائى

جورجى زيدان

توماس كارليل

جوستاف لوبون

الشهيد عبد القادر عودة

ابن حجر العسقلانى

ابن عبد البر

محمد أبو الفضل - على النجاوى

اسم المؤلف	اسم الكتاب
السهيلي	الروض الأنف
القلقشندی	نهاية الأرب
عبد العزيز الثعالبي	معجزة محمد رسول الله
عبد الوهاب النجار	قصص الأنبياء
عبد الرحمن بن خلدون	تاريخ ابن خلدون
المسعودي	مروج الذهب
عمر رضا كحالة	معجم قبائل العرب
البكري	معجم البكري
الدكتور حسن ابراهيم حسن	تاريخ الإسلام السياسي
محمد أسعد طلس	تاريخ الأمة العربية
محمد بن موسى الخوارزمي	عجائب الأقاليم السبعة
محمد حسين هيكل	حياة محمد
يحيى بن أبي بكر العامري	بهجة المحافل
المقريزي	إمتاع الأسماع
عبد القادر بن أحمد بن مصطفى	تهذيب تاريخ ابن عساكر
الدمشقي	
محمد عزة دروزة	عصر النبي
أبو زيد أحمد بن سهل البلخي	البدء والتاريخ
محمد بن عمر بن واقد	مغازي الواقدي
ابن حوقل	صورة الأرض
محمد بن أحمد البيروني	الآثار الباقية من القرون الخالية
المقدسي المعروف بالبشاري	أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم
أحمد بن يحيى البلاذري	أنساب الأشراف
علي بن أحمد بن حزم	جمهرة أنساب العرب
أحمد زكي صفوت	جمهرة رسائل العرب
الفضل بن الحسن الطبرسي	مجمع البيان في تفسير القرآن
المباوك بن محمد بن الأثير الجزري	جامع الأصول من أحاديث الرسول
زيد بن علي بن الحسين	مسند الإمام زيد
عبد الله بن يوسف الحنفي الزيلعي	نصب الراية

اسم الكتاب

النهاية في غريب الحديث

منهاج للسنة النبوية

جزيرة العرب

صفة جزيرة العرب

نسب قريش

المجتمعات الإسلامية في القرن الأول

فتوح البلدان

الحرية عند العرب

تاريخ اليعقوبي

جزيرة العرب

الوثائق السياسية في العهد النبوي

والخلافة الراشدة

لمحات من تاريخ العالم

المحبر

قصة الحضارة

فجر الإسلام

عيون الأخبار

معالم تاريخ الإنسانية

تاريخ الشعوب الإسلامية

شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام

تاريخ الأمم الإسلامية

المختصر في تاريخ البشر

نخبة الدهر في عجائب البر والبحر

عبقريّة محمد

غزوة بدر الكبرى

غزوة أحد

غزوة الأحزاب

غزوة بني قريظة

تهذيب الصحاح

اسم المؤلف

المبارك بن محمد بن الأثير الجزري

أحمد بن تيمية

حافظ وهبة

الهمداني

المصعب بن عبد الله الزبيري

شكري فيصل

أبو الحسن البلاذري

إبراهيم حداد

أحمد بن أبي يعقوب

جان جاك بيربي

الدكتور محمد حميد الله

جواهر لال نهرو

محمد بن حبيب بن أمية الهاشمي

ول . ديورانت

أحمد أمين

محمد بن عبد الله بن مسلم بن قتيبة

ه . ج . ولز

كارل بروكلمان

محمد بن أحمد بن علي الفاسي

محمد الحضري

شمس الدين محمد بن أبي طالب

الأنصاري

عباس محمود العقاد

المؤلف

المؤلف

المؤلف

المؤلف

محمود بن أحمد الزنجاني

اسم المؤلف	اسم الكتاب
علي بن أبي بكر الهيثمي	مجمع الزوائد
الإمام السيوطي	الجامع الصغير
محمد بن عبد الله بن بليهد	صحيح الأخبار عما في بلاد العرب
الإمام الترمذي	من الآثار
الإمام أبو داود	صحيح الترمذي
محمود شيت خطاب	سنن أبي داود
محمد مرتضى الزبيدي	الفاروق القائد
	تاج العروس من جوامع القاموس

تصويب

وقع خطأ مطبعي في ص ١١٦ عنوان أول الصفحة صوابه - النساء المعتمرات

فهرس الاعلام

(أ)

- أبان بن سعيد بن العاص بن أبي العاص
ابن أمية بن عبد شمس : ١٩٣ ،
١٩٤ ، ١٩٦ ، ١٩٧ .
إبراهيم الخليل عليه السلام : ١٠٨
أبو العاص بن الربيع بن أمية بن عبد
شمس : ٤٧ ، ٤٨
أبو بكر الصديق : ٣٤ ، ٥٧ ، ٦٢ ،
٦٤ ، ٦٦ ، ١٠٢ ، ١١٥ ، ١٢٩ ،
١٣٠ ، ١٦٧ ، ٢٢٦ ، ٢٤٦ ،
٢٥٩ ، ٢٧٩ .
أبو حاطب بن عمرو بن عبد شمس :
٢٠٧ هـ .
أبو جندل : ٢٢٩ ، ٢٣٠ ، ٢٣١ ، ٢٣٢ ،
٢٣٣ ، ٢٣٤ ، ٢٣٦ ، ٢٣٧ ،
٢٣٨ ، ٢٨٢ .
أبو الروم بن عمرو : ٢٠٧ هـ .
أبو الحباب : ١٥١ ، ١٥٢ هـ .
أبو ذر الغفاري : ٣٧ ، ٢١١ هـ .
أبو سعيد الخدري : ١٤١ ، ٢٢٧ ، ٢٣٥ هـ .
أبو سفيان بن حرب : ٢٢ ، ٤٤ ، ٧٠ هـ .
٧١ ، ٧٢ ، ٧٣ ، ١٦٨ هـ .
١٧٠ هـ ، ١٩٧ هـ .
أبو شريح الكعبي : ٢٦١ هـ .
أبو عياش الزرق : ١١٨ هـ .
أبو عبيدة بن الجراح : ١٠ ، ٤٣ هـ ،
٢٣٧ هـ ، ٢٣٩ ، ٢٤٠ ، ٢٤٦ هـ .
أبو عبيد الله السكوني : ٥٦ هـ .
أبو فروة : ٢٤٤ هـ .
أبو قتادة : ١٢٠ ، ١٥٢ ، ١٥٣ هـ .
أبو هريرة : ١٢٩ هـ .
أبو وائل : ٢٣٦ هـ .
أبو أيوب الأنصاري : ٣٥ هـ .
ابن بليهد : ٢٢٢ هـ ، ٢٧ هـ ، ٤٤ هـ .
ابن إسحاق : ٣٥ ، ٧٣ ، ٨٧ ، ٨٨ هـ .
٩٣ ، ١٤٠ ، ١٩٤ هـ ، ٢٥٨ هـ .
ابن الأكوع : ٣٨ هـ .
ابن برهان الدين : ٤١ ، ٦٤ هـ .
ابن حجر : ٥٤ ، ٢٠٩ هـ ، ٢٦١ هـ .
ابن حصن : ٣٨ هـ .
ابن حزم : ٦٣ هـ .
ابن ذبيان بن بغيض بن ريث بن غطفان :
٦١ هـ .
ابن زعيم : ٢٥٢ هـ .
ابن سعد (صاحب الطبقات) : ٢٣ هـ ،
٢٨ هـ ، ٣٤ ، ٤٠ هـ ، ٥٥ هـ ، ٦٢ هـ ،
٦٤ ، ٦٥ ، ٦٨ هـ ، ٧٣ هـ ، ٩٠ هـ ،
٩٥ هـ ، ٢٧٢ هـ .
ابن السكيت : ٥٥ هـ .
ابن عارض : ٥١ هـ .

ابن عباس : ١٣٦ ، ٢٣٥ ، ٢٤٠ .
ابن عبد المطلب : ١٧٩
ابن عبد البر : ٢٧ ، ١١٦ ، ١٥٦ .
٢٧٢

ابن عساكر : ١١٦ هـ
الإمام ابن كثير : ٩٢ ، ٢٦٩
ابن أم مكتوم : ١١٣
ابن هشام : ٨٩
أبى بن كعب : ٩٣

إسحاق بن عبد الله : ٢٤٢
أسيد بن الحضير : ٧١ ، ٧٢ ، ١٣٠
٢٢٥ ، ٢٤٢ ، ٢٤٤ .
أسير بن زارم : ٩٥ ، ٩٦ ، ٩٧ ، ٩٨ ،
٩٩ ، ١٠٠ .

أسد بن ربيعة بن نزار : ٤٢ هـ
الأصمغ بن عمرو الكلبي : ٥٧ هـ ، ٥٨ :
أكيدر بن عبد الملك السكوني الكندي :
٥٧ هـ .

أوس بن خولى : ١٤٨ ، ١٥١ ، ١٥٢ .
٢٤٣ .

أم سلمة : ١١٦ ، ٢٥٤ ، ٢٥٥ ، ٢٥٦
أم عامر : ١١٦
أم عمارة : ١١٦ ، ٢٠٨ هـ
أم قرفة : ٦٣ ، ٦٤ ، ٦٥ ، ٦٦ ،
أم منيع : ١١٦
انجلز : ١٠
إياس بن مسلمة : ١٨٨

(ب)

البخارى (الإمام) : ٨٧ ، ٩٠ ،
٩٣ ، ٩٤ ، ١٢٠ ، ٢٦١ هـ

بدليل بن ورقاء : ١٣٠ ، ١٥٧ ، ١٥٨ .
١٥٩ ، ١٦٠ ، ١٦١ ، ١٦٢ .
١٧٣ هـ ، ١٧٦ ، ١٧٧ ، ١٨٤ .
٢٤٨ .

بريدة بن الحصيب الأسلمي : ١٣٨ .
١٣٩
بسر بن سفيان : ١١٤ ، ١١٧ ، ١٢٧ .
١٢٨ ، ١٥٤ .

بشر بن البراء بن معرور : ١٥٣

(ت)

تماضر بنت الأصمغ : ٥٩
تماضر الكلبيية : ٥٩

(ث)

ثمالة بن أثال الحنفي : ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٥ .
٢٦ ، ٢٧

(ج)

جابر بن عبد الله : ١٣٦ ، ٢٠٨ ، ٢٧٢
جارية بنت مالك بن حذيفة : ٦٤
جبار بن صخر الأنصاري : ٧٢
جيريل عليه السلام : ٥١ هـ
جياة بن الأيهم : ٢٨ هـ
الجد بن قيس : ١١٦ ، ١٥١ ، ١٥٢
١٥٣ ، ١٥٤ ، ٢٠٨ .

جذام : ١٧٩

جندب بن عمرو : ١٧٠ هـ .

(ح)

الحارث أبو زينب : ٩٥
الحارث بن ربيعي أبو قتادة : ٨١
الحارث بن هشام : ١٦٠ ، ١٦١ هـ

(ر)

رافع بن مكيث الجهني : ٥٤
رباح : ٣٨

(ز)

زيد بن حارثة : ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٦ ، ٤٧
٤٨ ، ٤٩ ، ٥٠ ، ٥١ ، ٥٢ ، ٥٣ ، ٥٤
٥٥ ، ٦٢ ، ٦٩
زيد بن رفاعه : ٥٣ ، ٥٤
زيد بن مالك : ٣٩
زينب : ٤٧ ، ٤٩

(س)

سعد بن أبي وقاص : ٩ ، ٢٤٦
سعد بن زيد بن مالك : ٣٩ ، ١١٨
سعد بن عبادة : ١١٣ ، ١١٥ ، ١٥٤
٢٢٥ ، ٢٤٢ ، ٢٤٤
سعيد بن عمرو بن نفيل : ١٤١
سعيد بن عقبة : ٥٢ هـ
سراقة بن مالك بن جعشم الكنانى : ٢٤٨
سلام بن أبي الحقيق : ٢٠ ، ٢١ ، ٧٥
٧٦ ، ٧٧ ، ٧٨ ، ٨١ ، ٩٤
٩٦

سلمة بن أسلم : ٧٠ ، ٧٢
سلمة بن الأكوع : ٣٧ ، ٣٨ ، ٤٠
٦٤ ، ٦٥ ، ٦٨ هـ ، ٢٠٧ ، ٢٥٢

سلمة بن سلمة : ٢٢٠
سهيل بن حنيف : ٢٣٦
سهيل بن عمرو العامري : ١٢٣ ، ١٢٧
٢٠٨ ، ٢١١ ، ٢١٢ ، ٢١٣
٢١٤ ، ٢١٥ ، ٢١٦ ، ٢١٨
٢١٩ ، ٢٢٠ ، ٢٢١ ، ٢٢٥
٢٢٨ ، ٢٢٩ ، ٢٣٠ ، ٢٣٢

٢٢٣

حاطب بن أبى بلتعة : ٢٠٧ هـ

الحباب بن المنذر : ١٢٨
حبيب بن عينه بن حصن الفزاري : ٤٠
حبيش بن الأشعر الخزاعي : ٦٧ هـ
الحسن : ١٦٨ هـ
الحكم بن عبد مناف : ١٢٦ ، ١٢٧
الحكم بن العاص : ١٦٠
الحليس بن زبان : ١٢٥ ، ١٣٢ ، ١٦٤
١٧٧ ، ١٧٨ ، ١٧٩ ، ١٨٠ ، ١٨٢
١٨٤ ، ١٨٦ ، ٢٤٩
حليمة : ٤٥

حمزة بن عمرو الأسلمي : ١٣٩
حويطب بن عبد العزى : ١٢٧ ، ٢٠٨
٢١١ ، ٢١٣ ، ٢١٤ ، ٢٣٣
٢٣٤ ، ٢٤٤ ، ٢٤٦ ، ٢٥٠
حي بن أخطب النضري : ٢٠ ، ٧٦
٧٧ ، ٩٦

(خ)

خالد بن الوليد : ٩ ، ١٧ ، ٥٥٧ ، ٦٦
١٠١ ، ١٢٤ ، ١٢٦ ، ١٢٨
١٢٩ ، ١٣٣ ، ١٣٤ ، ١٣٥
١٣٦ ، ١٣٧ ، ١٣٨ ، ١٤٢
٢٦٠ ، ٢٧٤ ، ٢٧٥ ، ٢٧٦
٢٧٧

خبيب بن عدى : ٧٤
خراش بن أمية بن الفضل الخزاعي : ٢٥٦
خراش بن أمية الكعبي : ١٥٦ ، ١٥٧
١٩٠ ، ١٩١ ، ١٩٢
خزاعي بن أسود : ٨١ ، ١٩٠

(د)

دحية بن خليفة الكلبي : ٥١

٢٣٣ ، ٢٣٤ ، ٢٣٦ ، ٢٤١ ،

٢٤٢ ، ٢٤٣ ، ٢٤٤ ، ٢٤٥ ،

٢٤٦ ، ٢٥٠ ، ٢٥١ ، ٢٥٩ ،

٢٦٧ ، ٢٧٧ ، ٢٨٢ ، ٢٨٣ .

سنان بن أبي سنان بن محسن : ٢٠٩

سعية بنت عبد شمس بن عبد مناف : ١٦٣

(ش)

الشافعي (الإمام) : ٦٩

الشتيم بن عبد مناف التيمي : ٢١٩

شجاع بن وهب الأسدي : ٢٨

الشعبي : ٢٧٢

شعيب عليه السلام : ٦٩

(ص)

صفوان بن أمية الجمحي : ١٢٣ ، ١٢٧

١٦٠ ، ١٩٧ ، ٢٧٧ .

صلاح الدين الأيوبي : ١٠

(ط)

طلحة بن عبد الله : ٣٨ ، ١١٥

طليحة بن خويلد : ٢٧ ، ٦٦ ، ٢٠٩ هـ

(ع)

عارض بن الهنيد : ٥٢

عاصم بن ثابت : ٣٠

عامر بن لؤي : ١٢٨ ، ١٥٧ ، ١٦٦

١٨٨

عباد بن بشر : ١١٨ ، ١٣٥ ، ١٤٨ ،

٢٢٠ ، ٢٢١ ، ٢٧٣

عامر بن ربيعة : ١١٨

عبد الرحمن بن عوف الزهري : ٥٦ ،

٥٧ ، ٥٨ ، ١١٥ ، ٢٤٦ .

عبد الرحمن بن عيينة بن حصن : ٣٧

٦١ ، ٤٠

عبد الله بن أبي بن سلول : ١١٦ ،

١٥١ ، ١٥٢

عبد الله بن أبي أمية بن وهب : ٢٠٧ هـ

عبد الله بن أنيس : ٨١ ، ٨٩ ، ٩٠

٩٣ ، ١٠٠

عبد الله بن حذافة : ٢٠٧ هـ

عبد الله بن رواحة : ٩٧ ، ٩٨ ، ٩٩

١٠٠

عبد الله بن عتيك : ٨١ ، ٨٢ هـ ، ٨٣ ،

٨٦ ، ٨٧ ، ٨٩ ، ٩٠ ، ٩٣ ،

٩٤

عبدة بن الجراح : ١٩٤ هـ

عثمان بن عفان : ١٨ ، ٥٩ ، ١١٥ ،

١٩٢ ، ١٩٣ ، ١٩٤ ، ١٩٥ ،

١٩٦ ، ١٩٧ ، ١٩٨ ، ١٩٩ ،

٢٠٠ ، ٢٠٦ ، ٢٠٧ ، ٢٠٨ ،

٢٠٩ ، ٢١٠ ، ٢١٨ ، ٢١٩ ،

٢٢٢ ، ٢٤٣ ، ٢٤٦

عروة بن مسعود الثقفي : ١٠٢ ، ١٢٥ ،

١٣١ ، ١٦٠ ، ١٦٢ ، ١٦٣ ،

١٦٤ ، ١٦٥ ، ١٦٦ ، ١٦٧ ،

١٦٨ ، ١٦٩ ، ١٧٠ هـ ، ١٧١ ،

١٧٢ ، ١٧٣ ، ١٧٤ ، ١٧٦ ،

١٧٧ ، ١٨٦

عمار : ١٧٩

عمر بن عبدنهم الأسلمي : ١٣٩

عمر بن الخطاب : ٥٤ هـ ، ١١٣ ، ١٦١

١٦٨ هـ ، ١٨٥ ، ١٩١ ، ١٩٢ ،

١٩٣ ، ٢٠٨ ، ٢٢٥ ، ٢٢٦ .

(ق)

- قبيصة بن جابر : ١٦٨ هـ
قتادة بن النعمان : ١٤١
قيصر (ملك الروم) : ٥١

(ك)

- كاسترو : ١٠
كرز بن جابر الفهري : ٦٨، ٦٧، ٢٠٧ هـ
كسرى : ١٧٢
كعب بن الأشرف : ١٦٠ هـ
كعب بن لؤى : ١٢٨، ١٥٧، ١٦٦
كنانة بن عبد ياليل : ١٧٠ هـ

(م)

- ماركس : ١٠
ماوتسى تونج : ١٠
المتنبى : ٥٥٠
محرز بن نضلة : ٤٠
محمد الفاتح : ١٠
محمد بن القاسم : ١٠
محمد بن مسامة الأنصارى : ٢٢، ٢٣
٤١، ٤٢، ١١٨، ١٤٨، ١٨٨
٢٠٨، ٢٤٦

مسعدة : ٤٠

مسعود بن سنان : ٨١

مسلم (الإمام) : ٦٢، ٦٥

المسور بن مخزومة : ٢٥٥

مسيلمة الكذاب : ٢٤، ٢٥

معاوية بن أبى سفيان : ٥٦، ٥٨، ٧٣

معبد بن أبى معبد الخزاعي : ٢٤٨

المغيرة بن شعبة : ١٦٧، ١٦٩، ١٧٠ هـ

المقداد بن الأسود : ١١٨

٢٢٧، ٢٢٨، ٢٣٥، ٢٣٧،

٢٣٨، ٢٣٩، ٢٤٠، ٢٤٦،

٢٥٩، ٢٦٠، ٢٧٨، ٢٧٩،

٢٨٠.

عمران بن حصين : ٢٣٦

عمرو بن أبى سفيان بن حرب : ٢١٩

عمرو بن أمية الضمري : ٧٠، ٧٢،

٧٣، ٧٤، ٧٥

عمرو بن العاص : ١٠، ٢٧٧

عمرو بن سالم : ١٥٤، ١٥٩

عمرو بن سعيد الأشدق : ٢٦١ هـ

عمرو بن غنمة السلمى : ٢٥٨

عمرو بن هشام (أبو جهل) : ١١٥،

٢٥٧، ٢٥٨، ٢٥٩.

عمر بن وهب الجمحي : ٢٠٧ هـ

عكاشة بن محصن : ٢٨، ٢٩، ٢٠٩ هـ

عكرمة بن أبى جهل المخزومي : ١٢٢،

١٢٣، ١٢٧، ١٥٦، ١٦٠،

٢٧٧.

على بن أبى طالب : ٣٨ هـ، ٥٤، ٥٥

٥٩، ٦٠، ٦٩، ١٦٨ هـ، ٢٣٦

عيسى عليه السلام : ١٦٣

عيينة بن حصن الفزارى : ٣٦

٣٧، ٣٨، ٤٠، ٤١، ٢٥٧

(غ)

غزية بن عمرو : ٢٠٩

غيفارا : ١٠

(ف)

فاطمة بنت ربيعة بن بلر : ٦٣

(هـ)

هشام بن العاص بن وائل : ٢٠٧ هـ

هرقل : ٥١٠ هـ . ١٧٢

الهنيد : ٥١ . ٥٢

(و)

الواقدي : ١٢٣ ، ١٣٦ ، ١٥٥ ، ١٥٧

١٦٩ هـ . ١٩٥ . ٢٣٨ . ٢٤٠ . ٢٤٣

وبر بن عليم : ٦٠

وقاص بن محرز : ٤٠

الوليد بن عبد الملك : ١٥٥

وهب بن كيسان : ١٣٦

(ي)

يسار التوي : ٦٨ هـ

المقداد بن عمرو الكندي : ١٣٠

مكرز بن حفص : ١٧٥ . ١٧٦ . ١٨٨

٢٠٨ ، ٢١٣ ، ٢١٤ ، ٢٣٣ :

٢٣٤ ، ٢٤٤ ، ٢٤٦ ، ٢٥٣ .

المنذر بن الحرث بن شمر الغساني : ٢٨

مهرة بن حيدان : ٢٥٧

موسى بن عقبة : ٢٥٨

موسى بن نصير : ١٠

(ن)

ناجية بن الأعجم : ١٥٠ ، ١٥١

ناجية بن جندب : ١١٤ ، ١١٨

النجاشي : ١٧٢

النعمان بن الحارث الغساني : ٥٦ هـ

النعمان بن مقرن : ١٦٨ هـ

نخيلة بن عبد الله الليثي : ١١٢

فهرس الموضوعات

الصفحة

٥	تقديم الكتاب بقلم الكولونيل : عبد الله التل
١٢	تمهيد المؤلف
١٩	الفصل الأول
	مجمال الأحداث السياسية والعسكرية بين غزوة بني قريظة
١٩	وصلح الحديبية
١٩	الأعراب والأحزاب
٢١	العمليات العسكرية
٢١	خير آخر المطاف
٢٢	حملة القرظاء
٢٣	سيد حنيفة في الأمر
٢٥	ثمامة يتنصر للإسلام من قريش
٢٥	قريش تقتل ثمامة
٢٦	منع بيع محاصيل اليمامة في مكة
٢٧	حملة الغمر
٢٩	غزوة بني الحيا
٣١	النبي يقود الحملة بنفسه
٣١	تضليل العدو
٣٢	فرار اللحيانيون قبل وصول النبي
٣٣	المطاردة
٣٣	الإقامة في أرض العدو
٣٤	إرهاب المشركين بمكة
٣٥	الترحم على الشهداء
٣٥	نهي النبي عن الاستغفار لأمه
٣٦	غزوة الغابة
٣٧	فرارة تغير على المسلمين

٣٨	الصريح في المدينة
٣٩	اندحار المغيرين واستعادة الإبل
٤٠	قتلى الفريقين في المعركة
٤١	عودة المرأة الأسيرة
٤١	حملة ذى القصة
٤٢	حملة ذى القصة أيضاً
٤٤	حملة الجحوم
٤٥	حملة العيص
٤٧	ابنة النبي وزوجها الأسير
٤٧	رد الأموال وإطلاق الأسرى
٤٩	حملة الطرف
٥٠	حملة حسمى
٥٢	احتجاج بنى الضبيب لدى القائد زيد
٥٣	زيد بن رفاعه يحتج لدى الرسول
٥٣	الأمر بإعادة الغنائم والسبي
٥٥	حملة وادى القرى
٥٦	حملة دومة الجندل
٥٩	وقفة فقهية
٥٩	حملة إرهاب بنى سعد بفدك
٦١	حملة تأديب بنى فزارة
٦٢	الصدبى القائد
٦٣	نجاح الحملة
٦٣	تحاول اغتيال النبي صلى الله عليه وسلم
٦٥	وقفة تأمل وتدبير
٦٧	سرية كرز الفهري إلى اللعنيين
٦٩	سرية زيد بن حارثة إلى مدين
٧٠	بعث عمرو بن أمية الضمري لقتل أبى سفيان بمكة
٧٠	محاولة اغتيال الرسول صلى الله عليه وسلم
٧١	إن هذا ليريد غدراً
٧٢	السعى لاغتيال أبى سفيان

٧٤	أخذ جثة الشهيد خبيب
٧٤	قتل جاسوس
٧٥	مصرع ملك خبير (أبرافع)
٨٢	الفدائيون في خبير
٨٣	تحق الفدائيين بالنهار
٨٤	اللغة العبرية
٨٤	الخطوة .. والتنفيذ
٨٧	اختلاف المؤرخين
٨٨	رواية ابن إسحاق
٩٠	رواية البخاري
٩٣	ليس هناك تناقضاً
٩٤	المطاردة
٩٥	مقتل ملك اليهود الثاني في خبير أسير بن زارم
٩٧	الاستخبارات النبوية في خبير
٩٧	عبد الله بن رواحة في خبير
٩٩	خروج ملك خبير إلى المدينة
٩٩	كيف قتل ملك خبير ؟
١٠٠	حاولوا الغدر فقتلوا
١٠١	الفصل الثاني
١٠٣	حروب فاشلة
١٠٤	الحرب الشاملة
١٠٦	رسوخ جنود الإسلام
١٠٧	يهود خبير فقط
١٠٨	الخروج للعمرة
١٠٩	الاستعداد للطوارئ
١١٠	تثبيط المنافقين
١١١	القرآن يفضحهم
١١١	الصفوة المختارة
١١٢	أمير على المدينة
١١٣	حمل السلاح

١١٣	علامات النسك لا الحرب
١١٤	شارى بدن رسول الله صلى الله عليه وسلم
١١٤	ناجية بن جندب على الهدى
١١٥	هدى الموسرين من الصحابة
١١٥	تاريخ الخروج للعمرة
١١٥	الإحرام بالعمرة
١١٦	النساء المعتنات
١١٦	و المنافقون أيضاً
١١٧	طلائع للاستكشاف ورجل الاستخبارات
١١٨	طريق الرسول إلى مكة
١٢٠	كيف تلقت قريش النبأ
١٢٢	قريش في برلمانها
١٢٢	لجنة المتابعة والتنفيذ
١٢٣	قريش تستعد لمنع المسلمين بالقوة
١٢٥	تنفيذ خطة الصد
١٢٦	المعسكر الرئيسي لقريش
١٢٧	إطعام المرتقة
١٢٧	الاستخبارات النبوية في مكة
١٢٩	النبي يستشير أصحابه
١٣٠	المقداد بن عمرو يتكلم
١٣٠	مشادة بين الصديق وابن ورقاء
١٣٢	نذر الحرب
١٣٢	النبي يتحاشى الصدام المسلح
١٣٤	سلاح فرسان الفريقين في حالة المواجهة
١٣٥	صلاة الخوف في عسقان
١٣٥	خالد يحاول مهاجمة المسلمين وقت الصلاة
١٣٦	الحديبية بدلا من التنعيم
١٣٨	النبي وأصحابه يضلون الطريق عدة مرات
١٤٠	الكلمة التي عرضت على بني إسرائيل
١٤٠	أصحاب الثنية المغفور لهم

١٤١	بغيره أهم إليه من أن يستغفر له الرسول
١٤٢	عودة خالد إلى مكة
١٤٥	حابس الفيل
١٤٧	فضائل حراسة المسلمين
١٤٨	معجزة الرسول في الحديدية
١٥١	موقف المنافقين من هذه المعجزة
١٥٢	نموذج من نفاق ابن أبي
١٥٢	مقالة الجد بن قيس المنافق
١٥٣	يمنتع عن المبايعات تحت الشجرة
١٥٤	الغلام الذي أعجب الرسول بقصاحته
١٥٥	النبي يبلغ قريشاً نواياه السلمية رسمياً
١٥٧	وسيط السلام الأول
	بدليل بن ورقاء يتأثر بقول النبي صلى الله عليه وسلم وينصح قريشاً
١٥٨	يقبول عرضه السلمي
١٥٩	يطلبون مقاطعة الوفد الخزاعي
١٦٠	لا يفلح قوم فعلوا هذا أبداً
١٦٢	قريش ترفض عروض السلام النبوية
١٦٢	الوسيط الثاني
١٦٥	عروة بن مسعود في معسكر المسلمين
١٦٧	مشادة بين الصديق وعروة بن مسعود
١٦٧	مفارقة رائعة
١٦٩	يقرع عمه بقائم السيف
١٧٢	ما أراكم إلا تستصيكم قارعة يا معشر قريش
١٧٣	عروة بن مسعود ينصح قريشاً
١٧٤	أول انشقاق في معسكر الشرك
١٧٥	الوسيط الثالث
١٧٦	فشل الوسيط الثالث
١٧٧	الوسيط الرابع
١٧٨	أخطر انشقاق في معسكر قريش
١٧٨	ما ينبغي لهؤلاء أن يصدوا عن البيت

١٨٠	سيد الأحابيش ينذر قريشاً
١٨٢	البحث عن مخرج من الورطة
١٨٥	الفصل الثالث
١٨٦	اعتقال سبعين متسللاً من المشركين
١٨٧	للنبي يعفو عن المتسللين ويطلق سراحهم
١٨٨	نشوب القتال في الحديبية
١٨٩	قريش تقتل رجلاً من المسلمين
١٨٩	المبعوث النبوي عثمان في مكة
١٩١	عمر بن الخطاب يعتذر عن الوساطة
١٩٣	محاولة الاعتداء على عثمان
١٩٣	عثمان في معسكر قريش ببلدح
١٩٤	قيمة الجوار في الجاهلية ..
١٩٥	اجتماع عثمان بسادات المشركين في بلدح
١٩٥	خلاصة الرسالة النبوية لقريش
١٩٦	عثمان في مكة
١٩٧	عثمان عند أبي سفيان
١٩٧	قريش تطلب من عثمان أن يطوف فيرفض
١٩٨	بش ما ظنتم
١٩٨	مبعوث السلام يزور المستضعفين في مكة
٢٠٠	إشاعة مقتل عثمان وبيعة الرضوان
٢٠١	تضاييق المسلمين من طول المكث
٢٠٢	المسلمون واقتحام مكة بالقوة
٢٠٣	بيعة الرضوان نقطة التحول في حل الأزمة
٢٠٥	تحول المسلمين نحو الحرب جعل قريشاً تطلب السلم
٢٠٦	سبب اتخاذ النبي القرار بإعلان الحرب
٢٠٨	ابن الخطاب يمسك بيد الرسول للمبايعة
٢٠٩	النبي يبايع عن عثمان
٢١٠	عثمان يبايع النبي تحت الشجرة
٢١٠	قريش تسعى للصالح بعد البيعة
٢١١	كيف نصح سهيل بن عمرو قريشاً بالخنوع إلى السلم

٢١٢	سهيل بن عمرو يشاهد بيعة الرضوان
٢١٣	سهيل بن عمرو والنجم اللامع
٢١٤	هيئة الوفد القرشي
٢١٤	الخطوط العريضة للمعاهدة عند قريش
٢١٦	سهل الله لكم من أمركم
٢١٦	رغبة النبي في السلام
٢١٧	بدء المفاوضات
٢١٨	اعتذار رئيس الوفد القرشي للنبي وإطلاق سراح عثمان وأصحابه
٢١٩	النبي يطلق سراح المشركين المحتجزين
٢٢٠	بحث بنود الصلح
٢٢٠	النبي في حراسة أصحابه
٢٢١	بنود الصلح التاريخية
٢٢٢	الحل الوسط
٢٢٣	أهم بنود الصلح
٢٢٥	المعارضة الشديدة للاتفاقية
٢٢٥	احتجاج ابن الخطاب ومجادلة النبي صلى الله عليه وسلم
٢٢٦	ألسنا بالمسلمين وأليسوا بالمشركين ؟
٢٢٧	اشتداد الكرب على المسلمين
٢٢٨	حادثة أبي جندل المؤثرة
٢٣٠	تسليم أبي جندل للمشركين
٢٣١	النبي يعتذر لأبي جندل
٢٣١	أبو جندل يستسلم ويطيع أمر الرسول
٢٣٢	ازدياد الكرب على المسلمين
٢٣٢	سهيل بن عمرو يرفض شفاعة الرسول في ابنه
٢٣٣	عضوا الوفد القرشي يمجرون أبا جندل
٢٣٤	تفجر المعارضة بين المسلمين من جديد
٢٣٥	التفكير في التمرد ، ولكن !
٢٣٦	ابن الخطاب يفرى أبا جندل بقتل أبيه المشرك
٢٣٨	يا عمر لعله يقوم مقاماً لمحمد عليه
٢٣٨	عودة المعارضة إلى مناقشة النبي صلى الله عليه وسلم

٢٣٩	أبو عبيدة ينصح ابن الخطاب بالكف عن المعارضة
٢٤٠	عمر يرجع عن المعارضة ويندم أشد الندم
٢٤١	تسجيل المعاهدة وتبادل الوثائق
٢٤١	الخلاف حول صيغة المعاهدة
٢٤٢	سيد الأنصار يتدخلان
٢٤٣	الرسول يحسم الخلاف
٢٤٥	الصيغة النهائية لوثيقة الصلح
٢٤٦	شهود الصلح من الجانبين
٢٤٧	إنهاء حالة الحرب بين خزاعة وكنانة أيضاً
٢٤٧	عداوة الإسلام جمعت بين كنانة وقريش
٢٤٨	خزاعة لم تكن عدوة لقريش
٢٤٩	كيف انقلب العدو صديقاً
٢٤٩	خزاعة في عهد المسلمين وكنانة في عهد قريش
٢٥٠	غضب قريش على خزاعة لدخولها في عهد المسلمين
٢٥١	النبي يرفض تسليم لاجئين من العبيد والشباب القرشي
٢٥١	من ذيول أزمة الحديبية
٢٥٣	النبي يحل الإحرام في الحديبية
٢٥٣	من رواهب المعارضة للصلح
٢٥٤	النبي يعمل بمشورة امرأة
٢٥٥	أم سلمة تشير على النبي فتنجح في المشورة
٢٥٧	قصة جمل أبي جهل
٢٥٨	مائة ناقة ثمناً لحمل أبي جهل
٢٥٩	نحو عشرين بدنة عند المروة
٢٥٩	مدة الإقامة في الحديبية
٢٦٠	العودة إلى المدينة
٢٦٠	المجاعة في طريق العودة
٢٦٠	النبي يعمل بمشورة ابن الخطاب
٢٦٣	الفصل الرابع
٢٦٣	القرآن و صلح الحديبية
٢٦٤	ثناء الله على أهل الحديبية

الصفحة

٢٦٨	تبشير المسلمين بفتح خير
٢٧٠	فضل أصحاب الشجرة
٢٧١	ثناء الله على أصحاب للشجرة
٢٧٢	أهل الحديبية مثل أهل بدر
٢٧٣	دروس في قضية الحديبية :
٢٧٣	١ - الحيلة والخذر
٢٧٤	٢ - ضبط النفس ساعة الاستفزاز
٢٧٧	٣ - احترام المعارضة التريية ندم الفاروق على المعارضة
٢٨٠	٤ - إيضاح أهم نقطة إشكال
٢٨٢	٥ - الوفاء بالعهد